مُقارنة الأديانْ

محاضرات في النصرانية

تبحث الأدوار التي مرت بها عقائد النصارى ، وفي كتبهم

وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم

ألقاها

الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

على

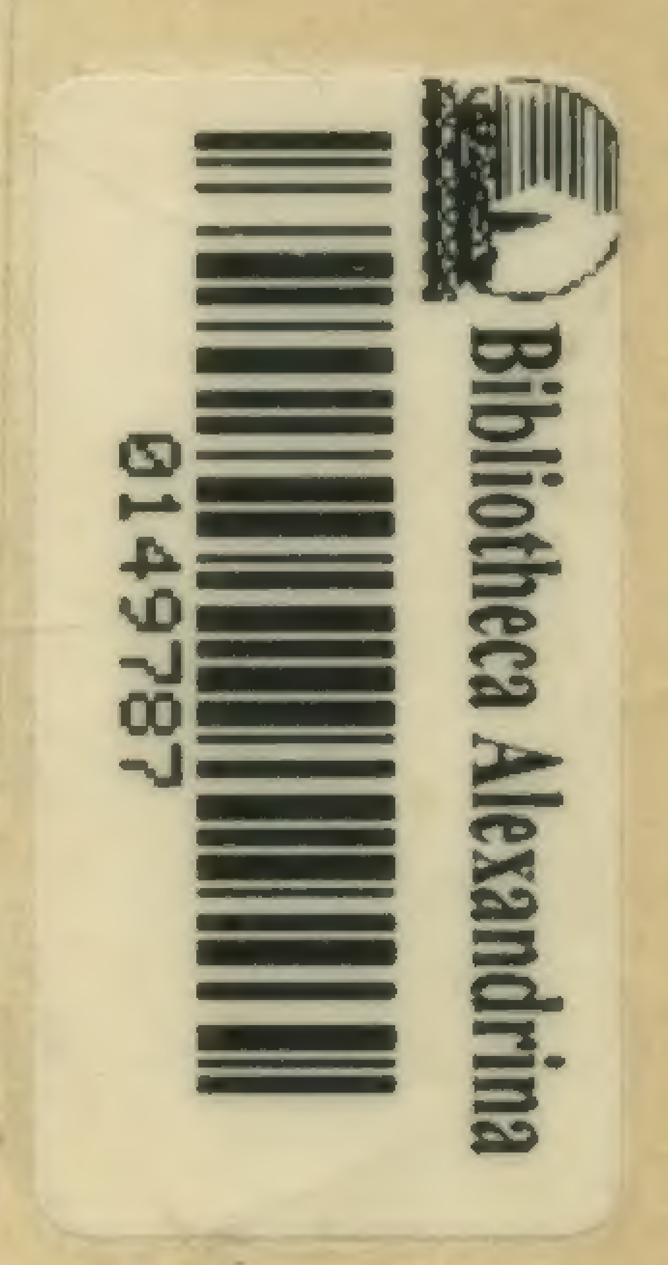
طلبة معهد الدراسات الإسلامية

الطبعة الثالثة

١٣٨٥ هـ – ١٩٦٦

مطبعة المدني

ت : ٨٢٧٨٥١



مقارنة الأديان

محاضرات في النصرانية

DL

تبحث الأدوار التي مرت بها عقائد النصارى، وفي كتبهم
وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم

ألقاها
الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

على
طلبة معهد الدراسات الإسلامية

الطبعة الثالثة
١٣٨٥ - ١٩٦٦

مطبعة يوسف
٦٨ شارع العباسية - عمارة النجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، الذى بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ، والصلاة والسلام على النبى الأمى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبى الرحمة الذى بعث على فترة من الرسل، بعد أن ضلت الأفهام ، وحرفت الحقائق وسيطرت الأوهام ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا كالنجوم بين العالمين .

أما بعد فهذه محاضراتى فى النصرانية أعيد طبعها ، بعد أن ألح الكثيرون فى طلب الإعادة ، إذ تعذر على مريدى قراءتها الحصول عليها ، حتى إنها عندما قررت دراستها على طلبة معهد الدراسات الإسلامية لم يجد الدارسون ما يراجعون فيه ، فلم يكن بد من أن يعيد المعهد طبعها . ليعين الدارسين ، ولينشر تلك الحقائق ، من غير تهجم على متدين ، ولامضايقة لغير مسلم ، لأن البحث العلمى الذى يتبع فيه المنهاج العلمى السليم ، لايصح أن تضيق به الصدور ، ولا أن تنزوى عنه العقول ، وإذا كانت فيه ثغرات يرأبها النقد المنطقى المستقيم ، ويعالجه البحث العلمى القويم من غير عِوج فى القول ، ولا التواء فى القصد .

لقد كتبنا تلك المحاضرات بروح المحقق الذى يجمع الحقائق ، ويعرضها . وقد تماسك بعضها ببعض ، ليتكون من ذلك مجموعة علمية تهدى ولا تضل ، وما كنا نجهد التاريخ لنسيره ، ولكنا خضعنا له ، وهو الذى كان يسيرنا ، وكنا فى ذلك كالقاضى العادل يخضع للبينات التى تكون بين يديه ، وهى التى تحكم فى الحكم الذى نسجله ، لا نغير ولا نبدل ، ولا ننحرف بها عن النتائج التى تؤدى إليها مقدماتها ، فنسير حيث يسير بنا الدليل من غير انحراف ولا تحريف .

وما كانت البينات التى بين أيدينا من مصادر إسلامية ، أو من أعداء المسيحية ، بل كانت من كتاب المسيحيين أنفسهم التى سجلوها فى تاريخها ، كتبها المتقدمون ، ورددها المتأخرون ، فهى شهادات من أهلها استنطقناها ، فنطقت ، واستهديناها ، فهدت ، واسترشدنا بها فأرشدت ، وما ضنت .

وإذا كان من إخواننا وعشرائنا من تململ من محاضراتنا ، أو تبرم من مخالفتنا لما يؤمن به ، فإنا علم الله ما قصدنا بكلامنا إحراجا ولا إيلاما ، إنما

أمانة العلم هى التى جعلتنا لانقدم لتلاميذنا الذين نلقاهم، والذين لانلقاهم بالخطاب، بل نلقاهم بالكتاب، إلا ما نعتقد أنه الحق الناصع. وقد وجه إلينا نقد من بعض المخلصين من إخواننا المسيحيين فى مقالات متتابعة نشرتها إحدى المجلات المسيحية، فما ضاقت صدورنا، بل ذهبنا إلى الناقد فى داره، وطلبنا إليه أن يطلعنا على كل الأعداد التى تشتمل على نقد لنا، لنصحح خطأ وقعنا فيه، أو لنبدل حكمنا ما أنصفنا فيه، عملا بقوله تعالى: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون».

وإنا لنحسب أنه ليس من بين إخواننا أقباط مصر من ظلموا، فما كان لنا إلا أن نتقبل النقد بقبول حسن، وتتبعه فى كل ما وجه إلينا مستطيبين ذلك، حتى ما كان منه تهجم علينا، فإن المخلص يستمع، ولو كان فى كلام مخالفة هجوم، أو تهجم بغير الحق.

وما وجدنا فى النقد ما يغير حكما، ولقد أرسل إلينا بعض أبنائنا المسيحيين رسائل نقد قدرناها، فقرأناها، وكان كتابها يخرجون عن حد النقد أو الدفاع إلى ما لا يحسن من قول، فما ضاقت صدورنا، وحاولنا أن ننتفع منها، ولكننا ما وجدنا فيها أيضاً ما يبرر لنا تغيير حكم حكمنا به، وإلى هؤلاء وأولئك نعتذر.

ولا يصح أن يتبرم أحد من إخواننا وأبنائنا من كلام نسوقه لطلابنا، معتقدين أنه الحق الذى لاريب فيه، فلو كان أهل كل دين تضيق صدورهم بالبحث والدرس، لكان حقاً علينا معشر المشتغلين بالدراسات الإسلامية أن تذهب نفوسنا حسرات مما يكتبه بعض علماء أوروبا عن الإسلام، يفترون على حقائقه ولا يدرسونه دراسة موضوعية، بل يدرسونه دراسة ذاتية محرفين الكلم عن مواضعه، ومع ذلك ندرس كلامهم، ونضع الصواب منه فى موضعه، ونضع الباطل فى مكان سحيق، نأخذهم إلى المنطق، ولا ننحرف معهم عن قصد السبيل.

وأخيراً نقول لإخواننا إننا نؤمن بالمسيح عليه السلام، ونؤمن بمحمد وسائر النبيين «قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم، لانفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون».

٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٨١

١٩ من مارس سنة ١٩٦٦

محمد أبو زهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الثانية

الحمد لله الذى خلق فقدر ، وخلق آدم من طين ، وعيسى بن مريم من غير أب ليكون حجة على العالمين ، فيثبت أن الخلق بالإرادة لا بالعلية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر النبيين ، المبعوثين رحمة للناس أجمعين .

أما بعد ، فقد جاء فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذ أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران .

وبقبس من هذا الروح السمح كتبنا كتاب محاضرات فى النصرانية ، نرجو به مع إحقاق الحق الهداية ، لا نهاجم اعتقاداً ، ولا نبطل عقيدة ، بل ننير السبيل ونضع المصباح أمام الجادة فيسلكها من يريد الرشاد ، ومن يرجو السداد ، ولكننا فى عصر فهم الناس فيه الدين منزعا جنسيا ، ولم يفهموه حقا اعتقاديا ، ولا تهذيبا نفسيا ، ولا خلاصاً روحياً ، فكان ذلك حاجزاً دون أن تصل الهداية إلى القلوب ، وأن تشرق النفوس بنور الحق .

ولقد كان الناس فى الماضى يوجد من بينهم من يقول : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » أما الآن فالناس جميعا غلقوا على أنفسهم باب النور باعتبارهم الدين جنسا ، والاستمساك به من القومية أو ما يشبهها ، فيكون العار على من خالف ، وإن كانوا يعلمون أن فيما يعتقدون ما ليس بمفهوم .

وبسبب هذه النزعة الجنسية فى التدين ظهر نقد لكتابى هذا من بعض بنى وطنى غير المسلمين ، وكنت (علم الله) مستريحاً لظهوره ، فجمعت النقد ، وشكرت الناقد ،

وتغاضيت عن عبارات نالنى بها ، لأنها من فلتات القلم ، ولقد أخذت أدرس ذلك النقد حرفاً حرفاً ، لأصحح به خطأ جرى فى الكتاب ، أو سوء تفسير فسرناه ، أو تخريجا بعيداً عن المعنى خرجناه .

ولكنى وجدت النقد خالياً من ذلك فى جملته ، بل هو مهاجمة لمقصد الكتاب ، يثير اعتبار الدين جنساً ، ويدفعه التعصب الشديد ، ويحاول توهين المكتوب ، حتى إنه فى سبيل ذلك يعتبر الكلام المقيد بوصف متناقضاً ، والمعلق على شرط متضارباً ، لأن صدر الكلام غير الوصف ، ومقدم القضية الشرطية غير تاليها . وإن كان فى النقد ما يفيد فهو أنه أثبت أن بعض إخواننا تألم من عبارات جاءت فى كتابنا ، فغيرناها ، إن لم يكن فى التغيير ما يمس الجوهر ، ويفسد المعنى .

وقد كنا بسبب التألم نحجم عن إعادة طبع الكتاب ، مع الإلحاف من الكثيرين وبعضهم من إخواننا المسيحيين ، وأحجمنا عن ذلك نحو ست سنوات ، ولكن اشتد الطلب من البلاد الشرقية والمصرية ، وزكوا الطلب بأنه لا يليق أن تحول الاعتبارات النفسية دون ظهور ثمرات الفكر ، وإن عند إخواننا من سعة الصدر ما يتسع لذلك ، وخصوصا أن الكتاب معروف فى أمريكا وأوروبا والهند ، فقد ترجم إلى الإنجليزية ، ولخصته بعض المجلات الأمريكية تلخيصاً كاملا ، وترجم إلى الفرنسية والأردية .

فإذا كانت هذه الأمم المسيحية تطوع بعض المسيحيين فيها بترجمته تسجيلا للآثار العلمية ، وإن خالفوها ـ فإنه من نقص الحرية الفكرية فى مصر أن يضيق صدر بعض أبنائها حرجاً بإعادة طبع كتاب سجله المسيحيون فى لغاتهم .

لهذا أقدمت على إعادة طبع الكتاب بعد طول الإحجام ، راجيا من المولى جلت قدرته الهداية والتوفيق والسداد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

٦ من رجب المحرم سنة ١٣٦٨

الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٤٩

محمد أبو زهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم . أشهد ألا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى بن مريم من النبيين الصديقين ، ومن عباد الله الصالحين وأولى العزم من الرسل .

أما بعد . فقد عهد إلى تدريس تاريخ الديانات بقسم الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين ، فالقيت محاضرات فى النصرانية ، هذه خلاصتها ، وتلك لبابها . ولقد عنيت ببيانها فى أدوارها ، المختلفة متبعا فى بيان المسيحية الحاضرة سلسلة أسنادها المتصلة ، فكان أول السلسلة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، وتنتهى بعصرنا الحاضر ، هذا مبدأ السند وهذا منتهاه ، فالسند إذن ينقطع بين المسيح عليه السلام ، والمجمع الأول من المجامع المقدسة ، وإن انقطاع السند فى هذه الفترة الطويلة سببه الاضطهاد الذى لحق النصارى فيها ، حتى كانوا يستخفون ويتعبدون فى السر ، فلا يعلنون دينهم الذى ارتضوا ، ويفرون به فرارا إن كشف أمرهم ، وقد ينطقون بكلمة الكفر يتقون بها حد السيف أو نار العذاب ، وقد اعترف بقطع السند مجادلوهم واختاروا ذلك السبب علة لهذا القطع .

وإنا إزاء ذلك العجز ، أو عدم تواقر أسباب العلم ابتدأنا بحثنا فى دينهم بكتبهم التى ألزم المسيحيون بها بعد قرار المجامع بالإلزام ، ثم تتبعنا فى البحث سير المجامع ، نسير فى مسارها . ونتجه فى اتجاهاتها ، ولكننا لانكتفى بدراسة قرارات المجمع من المجامع ، بل ندرس البواعث التى بعثت إلى انعقاده ، ونفصل بعض التفصيل الخلاف الذى سبقه ، والذى جاء المجمع لحسمه ، ثم انتهى إلى تشعيبه وتوسيع زاويته .

وإن عنايتنا بتفصيل البواعث التى ادت إلى انعقاد المجمع الأول ، وبيان قراراته ، وكيف تلقى جمهور المسيحين ، وخاصة رجال الدين تلك القرارات ، قد

أزالت الستار عما أكنته غياهب التاريخ فى الفترة التى كانت بين المسيح ، وهذا المجمع ، بل إن تلك العناية جعلتنا نخترق حجب الظلام التاريخى ، لنصل إلى ضوء نعشو إليه لنعرف حقيقة دعوة المسيح ، وعقيدة المسيحين فى عصر الاستخفاء أو عصر الاضطهاد ، ولقد ساعدنا على الاستضاءة بذلك الضوء موازنات تصدينا لها وازنا فيها بين المسيحية الحاضرة وفلسفة الرومان واليونان فى تلك الفترة ، وما حاولنا أن نفرض ما استنبطنا على القارىء أو نسبقه إلى الاستنباط ، بل ألقينا إليه بالمقدمات ، وتركنا له استخراج نتائجها ، ليشاركنا فيما وصلنا إليه باقتناعه ، ولكيلا نملأ عقله ، وهو خال ، فينقص تقديره للدليل ويضعف وزنه للبرهان .

ولقد كانت عنايتنا متجهة إلى بيان العقيدة ، فجلينا أدوارها ، وبينا ما قام حولها من مناقشات وخلافات ، وبينا عقيدة كل فرقة ومنبعثها ، والمجمع الذى انبعثت من بعده ، وما أحصينا فرقهم عدا ، ولا فصلنا آراء كل فرقة تفصيلا ، بل عنينا بالفرق الكبرى ، وعنينا بتفصيل العقيدة دون سواها .

وعلم الله أنى لبست رداء الباحث المنصف ونظرت بالنظر غير المتحيز ، وتخليت عن كل شىء سواه ، لأصل إلى الحق وصول المجتهد الحر ، لا المقلد التابع المأسور بسابق فكره ، والمأخوذ بسابق اعتقاده ، ولكنى انتهيت كما ابتدأت ، مؤمنا بالله الواحد الأحد ، الذى ليس له والد ولا ولد .

وإني لأهدى كتابى هذا إلى كل مسيحى طالب للحقيقة يسير فى مسالكها لاأبغى به غلبا فى جدال ، ولاسبقا فى نزال ، ولكن أبغى به الحق المجرد « ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

محمد أبو زهره

تمهيد

١ — عسير على المرء أن يكتب فى رأى يخالف رأيه ، ويتحرى مع هذه المخالفة أن يصور الرأى ، كما يجول بخاطر صاحبه ، وينبعث فى نفسه ، فيبين دوافعه وغاياته ، وإذا كان ذلك واضحاً فى رأى مخالف يرتأى ، فكيف تكون الحال إذا كانت المخالفة فى عقيدة تعتنق ، وتتغلغل فى أعماق النفس ، وتستكن فى أطوائها !! إن الطريق حينئذ يكون أوعث ، ومسالكه أضيق ، لذلك كان الطريق غير معبد أمام الباحث الذى يريد أن يكتب فى النصرانية ، كما يعتقد النصارى ، ويصورها أمام القارىء كما تجول بخاطر معتنقيها ، ويفرض من نفسه ناظراً غير متحيز ، يبين العقيدة ، كما هى فى نفس أصحابها ، لا كما ينبغى أن تكون ، أو كما يعتقد هو ، لأن الباحث لا يستطيع خلع نفسه مما تعتنق وتؤمن به ، ويجردها تجرداً تاماً مما قد صار منها بمنزلة الملكات ، وخالط الأحساس والمشاعر ، واستولى على كل مسالك الآراء إليها ، وتصوير المسيحية كما يعتقد أصحابها ليس فقط عسيراً على الكاتب غير المسيحى ، بل إنه عسير على الكتاب المسيحيين أنفسهم ، يستوى فى ذلك المختصون بالدراسات الدينية وغير المختصين ؛ ولذلك يستعينون فى تصويرها ، وإدنائها إلى العقول بضرب الأمثال ، والتشبيهات الكثيرة ، لتأنيس غريبها بالقريب المألوف ، والمشاهد المحسوس ، ولإدخالها فى العقل من الباب الذى يألفه ويعرفه ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

٢ — ولكن البحث العلمى يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية إن أراد أن يعلنها كما يعتقد أهلها مجرداً من نزعاته السابقة على الدراسة ، غير جاعل لعقيدته سلطاناً على حكمه ؛ حتى لا تسيره فى دراسته ، وتتحكم فى اتجاهاته ، لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد على القوم ، والتزيد ليس من شيمة العلماء ، أو

يدفعه لأن يتأول كلامهم بغير ما يريدون ، وذلك لا يجعل العقل يدرك الأمور كما هي في ذاتها، بل يدركها كما انعكست في نفسه ، وكما رسمت على قلبه ، وقد يباعد ذلك الأمر في ذاته .

ولذلك سنحاول داعين الله - مبتهلين إليه أن يلهمنا التوفيق - دراسة المسيحية مجردين من أنفسنا ناظراً غير متحيز عليها ، لنصورها كما هي وكما يعتقد أهلها ، ولنتمكن من أن نكتبها بروح الإنصاف : ولقد نضطر في سبيل ذلك الانصاف أن ننقل عبارات كتبهم المقدسة عندهم وغير المقدسة من غير أن نتصرف بأى تصرف ، حتى ما يتعلق بالإعراب وأساليب البيان ، لكيلا يدفعنا التصرف في التعبير إلى تغيير الفكرة ، أو تحريف القول عن مواضعه .وسنجتهد ما استطعنا في تصوير تفكيرهم بضرب الأمثال ، إن لم نجد بداً من ذلك .

ولكن مع عنايتنا الشديدة بتفهم ما عند القوم . وتعرف غاياته ومراميه لا نترك النقد العلمى النزيه ، الذى يستمد قوانينه من بدائه العقول ، وأحكام المنطق ، وخصوصاً ما يتعلق بكتبهم، لأنه إذا كان الإنصاف قد طالبنا بألا نتزيد على ما عندهم ، أو نحرفه عن مراده ومرماه ، فالإنصاف أيضاً يطالبنا بألا نهمل العقل ، وإلا خرج بحثنا عن معناه العلمى التاريخى ؛ وصار بحثاً لاهوتياً صرفاً ؛ وذلك ما لا نريد ، فلا يصح أن يدفعنا حرصنا على إنصافهم إلى ظلم العلم والحق والعقل .

المسيحية كما جاء بها المسيح عليه السلام

المسيحية فى القرآن

٣ — وقبل أن نخوض فى المسيحية كما هى عند المسيحيين نتكلم فى المسيحية التى جاء بها المسيح عليه السلام ، وإنا إذا تصدينا للمسيحية التى جاء بها المسيح نجد التاريخ لا يسعفنا بها، إذ بعد العهد ، واضطربت روايات التاريخ بالأحداث التى نزلت بالمسيحيين ، ويجوز أن تكون قد عملت يد المحو والإثبات عملها ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، وصار من العسير أن نميز الطيب من الخبيث ، والحق من الباطل ، والصحيح من غير الصحيح ، وإننا معشر المسلمين لا نعرف مصدراً صحيحاً جديراً بالاعتماد والثقة من المسلم غير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، فهما المصدران المعتمدان للمسلم فى هذا ، وما نكتب هذا لنلزم به المسيحيين ، ولا على أنه هو المعتبر عندهم ، ولكن نكتبه ، ليتسق البحث ؛ ولتتم السلسلة .

ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هى التوحيد الكامل ، التوحيد بكل شعبه ، التوحيد فى العبادة ، فلا يعبد إلا الله ، والتوحيد فى التكوين، فخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له ، والتوحيد فى الذات والصفات فليست ذاته بمركبة ، وهى منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى . فالقرآن الكريم يثبت أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد الكامل، وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه . « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا

ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد » .

فهذا نص يفيد بصريحه أن عيسى مادعا إلا إلى التوحيد ، فغير التوحيد إذن دخل النصرانية من بعده ، وما كان عيسى إلا رسولا لله رب العالمين .

ولقد نزل على السيد المسيح عليه السلام كتاب هو الانجيل ، وهو مصدق للتوراة ، ومحى لشريعتها ، ومؤيد للصحيح من أحكامها . وهو مبشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، وهو مشتمل على هدى ونور وهو عظة المتقين، وإنه كان على أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل فيه ، ولذلك قال الله تعالى « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» .

دعوة المسيح

٤ — ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على أساس أنه لاتوسط بين الخالق والمخلوق، ولا توسط بين العابد والمعبود ، فالأحبار والرهبان لم تكن لهم الوساطة بين الله والناس ، بل كل مسيحى يتصل بالله فى عبادته بنفسه ، من غير حاجة إلى توسط كاهن أو قسيس أو غيرهما ، وليس شخص — مهما تكن منزلته أو قداسته أو تقواه — وسيطا بين العبد والرب فى عبادته ، وتعرف أحكام شرعه مما أنزل الله على عيسى من كتاب ، وما أثر عنه من وصايا ، وما اقترنت به بعثته من أقوال ومواعظ .

ودعوة عيسى عليه السلام — كما ورد فى بعض الآثار ، وكما تضافرت عليه أقوال المؤرخين — تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفى لأن تقوم عليه الحياة ، وكان يحث على الإيمان باليوم الآخر ، واعتبار الحياة الآخرة الغاية السامية لبنى الإنسان فى الدنيا ، إذ الدنيا ليست إلا طريقا غايته الآخرة ، وابتداء نهايته تلك الحياة الأبدية .

ولماذا كانت دعاية المسيح عليه السلام إلى الزهادة فى الدنيا ، والابتعاد عن

أسباب النزاع والعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب عن ذلك أن اليهود الذين جاء المسيح مبشراً بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية ، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بنى الإنسان ، بل إن التوراة التى بأيديهم اليوم خلت من ذكر اليوم الآخر : ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذى أوعد به العاصين ، وثوابه الذى وعد به المتقين ، إنما زمانه فى الدنيا لا فى الآخرة وقد قال رينان الفيلسوف الفرنسى فى كتابه حياة المسيح: « الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية فى نفس هذا العالم ؛ فإنه يؤخذ من أقوال شيوخهم أن الصالحين يعيشون فى ذاكرة الله والناس إلى الأبد ، وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ، ويكونون معروفين عند الله ، أما الأشرار فلا ؛ هذا كان جزاء أولئك ، وعقاب هؤلاء . ويزيد الفريسيون على ذلك أن الصالحين ينشرون فى هذه الأرض يوم القيامة ليشتركوا فى ملك المسيح الذى يأتى لينقذ الناس ، ويصبحوا ملوك العالم وقضاته ؛ وهكذا يتنعمون بانتصارهم ، وانخذال الأشرار أعدائهم ؛ وعلى ذلك تكون مملكتهم فى هذا العالم نفسه » اهـ فجاء المسيح عليه السلام مبشراً بالحياة الآخرة ؛ وأنها الغاية السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها ، ومن لم ينكرها بقوله منهم أنكرها بفعله ؛ فكانوا فى ذلك الإنكار سواء .

مريم والمسيح فى القرآن الكريم :

٥ — وإذا كانت شخصية المسيح هى اللب فى المسيحية الحاضرة ، وأساس الاعتقاد فيها ، وجب أن نبينها كما جاءت فى القرآن ، كما سنبينها كما جاءت فى المسيحية ، ليستطيع القارىء أن يوازن بين الشخصيتين ، ويعرف أيهما أقرب إلى التصور ، والعقل يتقبلها بقبول حسن ولنبدأ بأمه .

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام ، فيقص خبر الحمل بها

وولادتها وتربيتها فى سورة آل عمران ، فيقول تعالت كلماته « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن . وأنبتها نباتاً حسناً . وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال يامريم أنى لك هذا . قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

هذه هى الأحوال التى اكتنفت الحمل بالبتول مريم ، وولادتها ، وتربيتها ، ويلاحظ القارىء أن العبادة والنسك أظلاها ، وهى جنين فى بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء ، واصطفاها الله لأمر جليل خطير ، فأمها وهى حامل بها نذرت أن يكون ما فى بطنها محرراً خالصاً لخدمة بيت الله وسدانته ، والقيام بشئونه ، واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها ، فلما وضعت ، وكان نذرها على فرض الذكورة ، كما يبدو من إشارات النصوص القرآنية ، جددت العزم على الوفاء بالنذر . وقد وجدت ما تسوغه النفس للتحلل من النذر . فكان ذلك الإصرار عبادة أخرى ؛ إذ وجدت فى النفس داعيات التردد ، والرجوع والتحلل من الوفاء . فكان كفها هذه الدعايات والقضاء عليها عبادة أخرى . ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة . وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبى من أنبياء الله الصديقين الصالحين . فكفلها زكريا ، ووجهها إلى العبادة الصحيحة ، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والإثم . وكان الله سبحانه وتعالى يدر عليها أخلاف الرزق من حيث لا تقدر ولا تحتسب ، ومن غير جهد ولا عنت ، حتى أثار ذلك عجب نبى الله كافلها فكان « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . قال يا مريم أنى لك هذا . قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

٦ — ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التى تكونت فى ظلها بريئة من دنس الرذيلة — لا يجد الشيطان سبيلا أو منفذاً ينفذ إلى النفس منها — تمهيداً لأمر جليل قد اصطفاها الله تعالى له دون العالمين . ولذا خاطبتها الملائكة وهى الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ». ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أماً لمن يولد من غير نطفة آدمية . وكان ذلك لكى تكون آية الله مشهورة ، تحمل فيما حف بها من أحوال القرائن التى تقطع ريب المرتاب ، وألسنة كل أفاك ، وتنير السبيل أمام المؤمنين إذ أن ولادته من غير أب من أم كانت حياتها كلها للنسك والعبادة . والعكوف على التقوى . وتحت ظل نبى من أنبياء الله تعالى ، لم تزن بريبة قط — يجعل المؤمن يؤمن بآية الله الكبرى فى هذا الكون ، ولا يجعل شيئاً يقف أمام مريد الهداية من تظنن بالأم أو ريبة فيها ، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفى هذه الريبة ، وتبعدها عن موطن الشبهة .

الحمل بالمسيح وولادته

٧ — حملت العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام ، وهو الأمر الذى اجتباها الله له ، واختارها لأجله ، ولقد فوجئت به ، إذ لم تكن به عليمة. فبينما هى قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، أرسل الله إليها ملكا تمثل لها بشراً سويا « قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك : هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا . وكان أمراً مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا » حملت السيدة مريم البتول بعيسى من غير أب ، ثم ولدته . ولم تبين الآثار النبوية مدة الحمل . فلم ترد فى

الصحاح آثار تبين تلك المدة ، ولو كانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا إذن إلا أن نفرض أن مدة الحمل كانت المدة الغالبة الشائعة بين النساء . وهى مدة تسعة أشهر هلالية .

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم . سواء فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ، ومن لا يعرف ، لأنها فاجأتهم بأمر غريب ، وهى المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام ، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية ، ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر ، وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم . وقرينته أمر عادى لا مجال للريب فيه عادة ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها من هذه المفاجأة . فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله ، ويأتى على قواعده . ويفجأهم بالبراءة وبرهانها الذى لا يأتيه الريب ، ليعيد إلى ذاكرتهم ماعرفوه فى نسكها وعبادتها ؛ ولذلك نطق الغلام ، وهو قريب عهد بالولادة . أشارت إليه « قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

٨ ـ نطق السيد المسيح فى المهد ، ليكون كلامه إعلاماً صريحاً ببراءة أمه وأنه لم يكن إلا عبدالله ، ولد من غير أب . ويروى ابن كثير : « عن ابن عباس أن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا ، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان ، فأكثر اليهود فيه ، وفى أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية » ، وذلك قوله تعالى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » . ولم يذكر فى الآثار الصحاح عن النبى عليه السلام حال عيسى عليه السلام فى مرباه ونشأته ، وكيف كان منه مما يكون إرهاصاً بنبوته ، فليس لنا إلا أن

نقول إنه قد تربى بما كان يتربى به أمثاله الذين ينشئون على التقى والمعرفة فى بنى إسرائيل . ويغلب على الظن أن يكون قد ظهر منه . وهو غلام ما يدل على روحانيته . وما يدعوا إليه بعد ذلك من حياة روحية ، وسط قوم سيطرت عليهم المادة ، وغلبت عليهم نزعتها ، والاتجاه إليها .

الحكمة فى كون المسيح ولد من غير أب

٩ ـ ولا بد من أن نشير هنا قبل أن ننتقل إلى بعثته عليه السلام إلى السبب الذى من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب . فإنه لا بد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته . وقد أشار إليها سبحانه فى قوله تعالت كلماته « ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضيا » .

وإنا نتلمس تلك الآية الدالة فى ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان : أحدهما : أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه الفاعل المختار المريد ، وأنه سبحانه لا يتقيد فى تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التى نرى العالم يسير عليها فى نظامه الذى أبدعه الله ، والذى خلقه، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله ، لأنه خالقها ، وهو مبدعها ومريدها . فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته ، كما يصدر الشى عن علته ، والمسبب عن سببه ، من غير أن يكون للعلة إرادة فى معلولها ، بل كانت بفعله سبحانه وبإرادته التى لا يقيدها شيء مهما يكن شأنه، وخلق عيسى من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية ، بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية ، وفى عصر ساده نوع من الفلسفة ، أساسها أن خالق الكون كان من مصدره الأول ، كالعلة عن معلولها ، فكان عيسى آية الله على أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية ، وأن العالم كان بإرادته ، ولم يكن سبحانه بمنزلة العلة من المعلول . تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

الأمر الثانى : أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح

بين قوم أنكروها ، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لاروح فيه ، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التى يتكون منها ، فلقد قيل عن اليهود إنهم كانوا لايعرفون الإنسان إلا جسما عضويا ، ولا يقرون أنه جسم وروح ، فقد قال رينان فى بيان سبب الحقد الذى تغلغل فى النفس اليهودية : « لو كان الشعب الإسرائيلى يعرف التعاليم اليونانية التى كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين : أحدهما الروح ، والآخر الجسد ، وأنه تعذبت الروح فى هذه الحياة لأنها تستريح فى الحياة الثانية ، لسرى عنه شىء كثير من عذاب النفس ، واضطراب الفكر ، بسبب ذله وخضوعه ، مع ما كان يراه فى نفسه من الامتياز الأدبى والدينى عن الشعوب التى كانت تذله » .

يقرر رينان فى هذا أن اليهود ما كانوا يقولون كاليونان إن الإنسان جسم وروح ، ولقد يؤيد هذا ماجاء فى التوراة التى بأيديهم فى تفسير النفس بأنها الدم فقد جاء فيها : « لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هى دمه » . إذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على أنها شىء غير الجسم ، فلما جاء عيسى من غير أب ، وكان إيجاده بروح من خلق الله ، كما قال تعالى « والتى أحصنت فرجها ؛ فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » كان ذلك الإيجاد الذى لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ فى جيب مريم ، فكان الإنسان من غير بذرة الإنسان وجرثومته . كان ذلك إعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها ، ولم يعرفوها . فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية معلنة لمن لم يعرف الإنسان إلا على أنه جسم لا روح فيه ؛ وهذه آية الله فى عيسى وأمه عليهما السلام ..

بعثة عيسى عليه السلام ومعجزاته

١٠ — بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد فى القرآن الكريم ، ولا فى الآثار الصحاح بيان للسن التى بعث عند بلوغها عليه السلام . ولكن ورد فى

بعض الآثار أنه بعث فى سن الثلاثين ، وهى السن التى تذكر الأناجيل المعتبرة عند النصارى أنه بعث على رأسها ، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث فى هذه السن على هذا الأساس .

بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح ، وهجر الملاذ التى استغرقت النفوس فى تلك الأيام ، واستولت عليها ، ويبشر بعالم الآخرة ، ولقد أيده الله بمعجزات وإن ولادته نفسها معجزة ، كما جاء فى الملل والنحل للشهرستانى ؛ فقد قال رحمه الله فى ذلك : « كانت له آيات ظاهرة ، وبينات زاهرة ، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه ، وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ، ونطقه من غير تعليم سابق » .

ومعجزاته التى ذكرها القرآن الكريم تتلخص فى خمسة أمور ، جاء ذكر أربعة منها فى سورة المائدة فى قوله تعالى : « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة ، والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها ، فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمة والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى » . . . إلى قوله تعالى كلماته : « إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء : قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا ، وأنت خير الرازقين ، قال الله إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » .

ويستبين من هذه الآيات الكريمة أربع معجزات :

الأولى : أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيراً بإذن الله ، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق على يديه طيراً من الطين ، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى ، ولكن جرى الخلق على يد عيسى ، وبنفخ من روحه عليه السلام بإذن الله تعالى .

الثانية : إحياؤه عليه السلام الموتى بإذن الله جلت قدرته ، والمحيي فى الحقيقة هو الله العلى القدير ؛ ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام ، ليكون ذلك برهان نبوته ، ودليل رسالته :

الثالثة : إبراؤه عليه السلام الأكمة والأبرص ، وهما مرضان تعذر على الطب قديمه وحديثه العثور على دواء لهما ، والتمكن من أسباب الشفاء منهما ، ولكن عيسى بقدرة الله شفاهما ، وبرىء المريضان برقيته ، فكان ذلك دليلا قائماً على رسالته عليه السلام .

الرابعة : إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين ، لتطمئن قلوبهم ، وليعلموا أن قد صدقهم .

وهنالك خامسة ذكرت فى سورة آل عمران ، وهى إنباؤه عليه السلام بأمور غائبة عن حسه ، ولم يعاينها ، فقد كان ينبىء صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، وقد ذكر الله تعالى ذلك فى قوله تعالى حاكيا عنه : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

الحكمة فى كون معجزاته عليه السلام من ذلك النوع

١١ — هذه معجزات عيسى عليه السلام ، وهنا يتساءل القارىء لماذا كانت معجزاته عليه السلام من ذلك النوع ؟ يجيب عن ذلك ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية بقوله : « كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب أهل زمانه »

وكانوا سحرة أذكياء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه ، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله ، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ـ أسلموا سراعاً ، ولم يتلعثموا: وهكذا عيسى بن مريم بعث فى زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ، وغير هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله . أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال ، فلم يفعلوا ، ولن يفعلوا . وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله لا يشبهه شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله » .

ما نراه حكمة صحيحة

١٢ — من هذا الكلام يستفاد أن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى الذين يتعذر شفاؤهم وإحياء الموتى ، لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعى وكانوا فلاسفة فى ذلك ، فجاءت المعجزة من جنس مايعرفون ، ليكون عجزهم حجة عليهم ، وعلى غيرهم ممن هم دونهم فى معرفة الطب ، ولكن رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسى يقرر أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعى فيقول : « كانت صناعة الطب فى المشرق فى ذلك الزمان كما هى اليوم . فإن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التى وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ . وكان قد ظهر قبل ذلك بأربعة قرون ونصف كتاب

لأبقراط أبى الطب موضوعه العلة المقدسة يعنى الهستريا . وفيه وصف هذه العلة ، وذكر دواءها إلا أن اليهود فى فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب ، وكان فى اليهودية فى ذلك الزمان كثيرون من المجانين ، وربما كان ذلك ناشئاً من شدة الحماسة الدينية »

فاليهود الذين بعث المسيح بين ظهرانيهم لم يكونوا على علم إذن بالطب ، أو الطب الطبيعى على رأى ذلك الفيلسوف المؤرخ .

وفى الحق إن الذى نراه تعليلا مستقيما لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه ، لا لأنهم أطباء ، فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأدواء ، بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم ، وأفعال جميعهم ، فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة ، مصدق لما يأتى به الرسول وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح ، وبرهان قاطع على وجودها ، فهذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حياً ، ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه ، فكانت معه الحياة ، وهذا ميت قد أكله البلى ، وأخذت أشلاؤه فى التحلل ، وأوشكت أن تصير رميا ، أوصارت ، يناديه المسيح عليه السلام ، فإذا هو حى يجيب نداء من ناداه ، وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيره البلى حلت فيها بذلك النداء ، ففاضت عليه بالحياة ، وهكذا . فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته ، وتناسب أخص رسالته ، وهو الدعوة إلى تربية الروح ، والإيمان بالبعث والنشور ، وأن هناك حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه . والمسىء بإساءته . إن خيراً فخير . وإن شراً فشر . وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى إنكاره . أو تسمح لجاحد البعث والنشور

أن يستمر فى جحوده . وقد أسلفنا لك القول أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة . وعدم الإيمان باليوم الآخر . إن لم يكن بالقول . فبالعمل . فكان إحياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملا . ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون .

تلقى اليهود لدعوته

١٣ — بعث عيسى عليه السلام بتلك البينات . وأيد رسالته بتلك المعجزات وإنها باهرة تخرس الألسنة . وتقطع الطريق على منكرى رسالته . لو كان الدليل وحده هو الذى يهدى النفوس الضالة . والقلوب الشاردة ، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب : قساة القلوب . فكانت مهمته شاقة . إذ حاول هدايتهم . لأن منهم من علم الديانة رسوما وتقاليد يتجهون إلى الأشكال والمظاهر منها . دون الاتجاه إلى لبها وغايتها . حتى لقد كان منهم من يحجم عن عمل الخير فى يوم السبت زاعما أنه داخل فى عموم النهى عن العمل فيه . فإذا جاء المسيح داعياً اليهود إلى أن ينظروا إلى إصلاح القلب . بدل الأخذ بالمظاهر والأشكال فإنه لا شك يصدم هؤلاء فيما يألفون . وفيما وجدوا عليه سابقيهم .

واليهود قوم عكفوا على المادة . واستغرقتهم . واستولت على أهوائهم ومشاعرهم حتى لقد كان نساكهم وسدنة الهيكل عندهم . وقد فاتهم العمل على كسب المال من أبوابه الدنيوية — يجمعون المال من نذور الهيكل . والقرابين التى يتقرب بها الناس . ويحرصون على ذلك أشد الحرص ، فكانوا يأخذون القرابين من أشد الناس حاجة وأفقرهم . فجاء المسيح وندد بهذا .

ولقد اتخذ بنو إسرائيل من تدينهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده . وزعمهم أن لهم منزلة دينية لا يساميهم فيها أحد — اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى ارستقراطية دينية . فزعموا أن لهم المكانة السامية . ولغيرهم

المنزل الدون . ولو اعتنقوا الديانة اليهودية . وآمنوا برسالة موسى . فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة . وكان الإسرائيليون يعاملون آحادها . كأنهم المنبوذون . فلما جاء عيسى عليه السلام . وسوى بين بنى البشر فى دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداوة .

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية . دون الناس . فجاء المسيح وجعل الناس جميعاً سواء أمام ملكوت الله.

مناوأة اليهود له

١٤ — لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح . وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به ، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعايته : فلما أعيتهم الحيلة . ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه . ويلتفون حوله مقتنعين بقوله — أخذوا يكيدون له . ويوسوسون للحكام بشأنه . ويحرضون الرومان عليه . ولكن الرومان ما كانوا يلتفتون إلى المسائل الدينية . والخلافات المذهبية بين اليهود . بل تركوا هذه الأمور لهم يسوونها فيما بينهم ، واليهود يريدون أن يغروا الرومان بعيسى كيفما كان الثمن . فبثوا حوله العيون يرصدونه . ويتسقطون قوله بشأن الحكومة والحكام . عساهم يجدون كلمة له يتعلقون بها وينقلونها للحاكم الرومانى . فلم يجدوا ، لأن المسيح ما كان يدعو إلا إلى إصلاح الجانب النفسى الخلقى ، ولم يكن قد اتجه إلى إصلاح الحكومة بعد ، ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه ، وانتهى الأمر بهم إلى أن تمكنوا من حمل الحاكم الرومانى على أن يصدر الأمر بالقبض عليه والحكم عليه بالإعدام صلباً .

نهاية المسيح فى الدنيا

١٥ — وهنا نجد القرآن الكريم يقرر أن الله لم يمكنهم من رقبته ، بل نجاه الله من أيديهم ، فما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وبعض الآثار تقول

إن الله ألقى شبهه على يهوذا ، ويهوذا هنا هو يهوذا الاسخريوطى الذى تقول الأناجيل عنه إنه هو الذى دس عليه ، ليرشد القابضين إليه ، إذ كانوا لا يعرفونه ، وقد كان أحد تلاميذه المختارين فى زعمهم .

ولقد وافق هذا إنجيل برنابا موافقة تامة ، ففيه : « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ـ سمع يسوع دنو جم غفير ، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً ، وكان الأحد عشر نياما ، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفائيل وأدريل [1] سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة التى تسبح الله إلى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع ، وكان التلاميذ كلهم نياما ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه ، فصار شبيها بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن استيقظ أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا ، وأجبنا أنت يا سيدى معلمنا ، أنسيتنا الآن .. الخ »

والأناجيل المعتبرة عند المسيحيين لم تختلف فى شىء كاختلافهم فى قصة الصلب ، فلكل رواية بشأنها .

المسيح بعد نجاته

١٦ــ لم يصلب المسيح بنص القرآن ، ولكن شبه على القوم ، لقوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » وقوله تعالى : « وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه » وإذا كان المسيح عليه السلام لم يصلب ، فما هى حاله بعد ذلك؟ اختلف فى هذا الشأن مفسرو القرآن ، فجلهم على أن الله سبحانه وتعالى رفعه بجسمه وروحه إليه ، وأخذوا بظاهر قوله تعالى فى مقابل القتل « بل رفعه الله

---

(١) يريد إسرافيل ، وعزرائيل .

إليه » وببعض آثار قد وردت فى ذلك . وفريق آخر من المفسرين ، وهم الأقل عدداً ، قالوا : إنه عاش حتى توفاه الله تعالى كما يتوفى أنبياءه ، ورفع روحه إليه كما ترفع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء ، وأخذوا فى ذلك بظاهر قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ومن ظاهر قوله تعالى : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » ولكل من المختلفين وجهة هو موليها ، ولا نريد أن ندخل فى تفصيل حجج الفريقين وترجيح إحداهما على الأخرى ، فلذلك موضع ليس هذا مقامه .

١٧ — ويزعم بعض الناس أن المسيح عليه السلام قد هاجر إلى الهند . وأنه عاش فيها ، حتى استوفى أجله ، ومات هناك ، وله قبر . ولقد جاء فى تفسير المنار ما نصه : « وجد فى بلدة سرى نكرا مقبرة فيها مقام عظيم يقال إنه مقام نبى جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة ، ويسمى يوز آسف ويقال إن اسمه الأصلى عيسى ، وإنه نبى من بنى إسرائيل ، وإنه ابن ملك وإن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم . وتذكر فى كتبهم ، وإن دعاة النصرانية الذين رأوا ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا إن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله » هذا ما جاء فى تفسير المنار وقد ذكر أنه نقله عن غلام أحمد القديانى الهندى ، وهو راو يشك فى صدقه .

هذا ، وإن القرآن لم يبين ماذا كان من عيسى بين صاحب الشبيه ؟ ووفاة عيسى أو رفعه على الخلاف فى ذلك ، ولا إلى أين ذهب ، وليس عندنا مصدر صحيح نعتمد عليه ، فلنترك المسألة ؛ ونكتفى باعتقادنا اعتقاداً جازماً أن المسيح لم يصلب ، ولكن شبه لهم .

موازنة بين المسيح في القرآن والمسيح في المسيحية الحاضرة

١٨ — ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون : ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون : وتلك ديانته كما جاء بها ، ودها إليها ، فما الذى عرض لها من بعده . وما الذى أدخل عليها بعد أن رفع إلى ربه ؟ . . أول ما أدخل على هذه الديانة هو مايتعلق بشخص المسيح عليه السلام . ولنسارع فى بيان اعتقادهم فى المسيح بإيجاز . ثم بعد ذلك نبين الأدوار التاريخية التى مرت بتاريخ المسيحيين . محاولين ما استطعنا أن نبين مصادر هذه الاعتقادات التى تتعلق بالمسيح . ثم بقوانينهم الكنيسية .

يعتقد المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى أوصى آدم بألا يأكل من الشجرة ، فأكل منها بإغواء إبليس، فاستحق هو وذريته العذاب ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جسد كلمته ، وهى ابنه الأزلى تجسداً ظاهرا ، ورضى بموته على الصليب ، وهو غير مستحق لذلك ، لكى يكون ذلك فداء الخطيئة الأولى ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بذلك الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان معاً ، وكان ذلك الابن ، وهذا الفداء هو المسيح عيسى ولد مريم العذراء .

أرسل الله إليها ملاكه جبريل، وبشرها بأن المسيح مخلص الدنيا يولد منها، وأن الروح القدس يحل فيها، فتلد الكلمة الأزلية ، وتصير والدة الإله ، وقد ولد ببيت لحم ، إذ كان قد ذهب إليها يوسف النجار خطيب مريم الذى لم يتركها بعد أن حملت ، لرؤيا رآها فى منامه تمنعه من ذلك، لأن بيت لحم بلده ، فذهب إليها ومعه مريم ليقيد اسمه فى الإحصاء العام الذى أمر به الرومان .

ولد المسيح فى خان قد نزل فيه يوسف ومريم ، ولفقرهما لم يجدا مأوى لهما فى الخان سوى مكان الدواب ، ولقد قمطته وأضجعته فى مذود البقر .

وفى ليلة ميلاده ظهر ملاك لجماعة من الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم فى الحقول المجاورة لبيت لحم، فرأوا بغتة جمهوراً من الملائكة مسبحين قائلين « المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة » فترك الرعاة القطعان، وذهبوا إلى المكان الذى دلهم عليه الملائكة، فرأوا الطفل فى المذود، وعادوا وهم يمجدون الله، ويسبحونه على كل ماسمعوا ورأوا، كما قيل لهم.

وقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من وقت ولادته، وسمى يسوع، أى المخلص فى زعمهم كما سماه الملاك عند التبشير به.

ولقد حدث بعد ولادته بأيام أن وفد إلى أورشليم جماعة من حكماء المجوس وعلمائهم، قالوا إنه لاح لهم فى السماء نجم عرفوا من مرآه بما أوتوا من علمهم وماعندهم من آثار ونبوات أنه نجم مولود جديد، هو ملك اليهود المنبأ به فعزموا على الرحيل إليه، ليسجدوا له، وحملوا معهم هدايا من الذهب واللبان والمر، وكانوا فى مسيرهم يسيرون والنجم الذى رأوه يهديهم إلى الطريق هم ومن معهم من خدم، حتى جاءوا إلى المدينة، وسألوا عن مكان الملك المولود. فلما علم هيرودس ملك اليهود بأمرهم دعاهم إليه، واستطلع طلعهم، وتعرف أمرهم، فقصوا عليه قصصهم، ومابعثهم إلى الضرب فى الأرض، والمجىء إلى أورشليم. فسرى إلى نفسه الخوف على ملكه من هذا الوليد، ثم دعا إليه كهنة اليهود وكتبتهم. وسألهم أين يولد المسيح؟ فقالوا: فى بيت لحم اليهودية حسب النبوءات فقال للمجوس: اذهبوا إلى بيت لحم. ومتى وجدتم الصبى فأخبرونى لأسجدله. قال ذلك: وأخفى فى نفسه أمراً لم يبده. فذهبوا والنجم يتقدمهم. ووجدوا الصبى يسوع وأمه. فسجدوا له، وقدموا هداياهم. وفى هذا الوقت ظهر ملاك الرب فى الحلم ليوسف. وقال له قم وخذ الصبى وأمه، واهرب إلى مصر، لأن هيرودس يطلب الصبى ليقتله. ففعل كما أمر. وخرجت الأسرة المقدسة إلى مصر.

وسافر المجوس إلى بلادهم من غير أن يعرجوا على هيرودس لأنهم نهوا عن العودة إليه بوحي أوحي إليهم في حلم ، فأخذه الغيظ ، واندفع فأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد التي تجاوره ممن لا تتجاوز سنه سنتين . زاعماً أن يسوع لا بد أن يكون أحدهم .

رحلت الأسرة المقدسة إلى مصر ونزلوا حيث يوجد الدير المحرق ، كما يعتقدون . وبعد أن قاموا بضعة أشهر اعتزموا الرحيل . لأن ملاك الرب ظهر ليوسف في الحلم . وقال له : قم وخذ الصبي وأمه . وعد إلى اليهودية : لأن هيرودس الذي كان يطلب نفس الصبي قد مات ، فقاموا واتجهوا إلى فلسطين . ومروا في طريقهم بالمطرية ، واستظلوا بشجرة هناك تسمى شجرة العذراء . وفي بعض الآثار أنه لما دخلت مريم وابنها ويوسف أرض مصر . انكفأت أصنامها وتحطمت . وكان ذلك إتماماً لنبوة أشعياء القائلة : هو ذا الرب راكب على سحابة وقادم إلى مصر . فترتجف أوثان مصر من وجهه . ويذوب قلب مصر داخلها » سفر أشعيا - ١٩ : ١ -

ولما عادوا إلى فلسطين أقاموا في الناصرة . ولما بلغ يسوع الثلاثين من عمره عمد في نهر الأردن . عمده يوحنا المعمدان . ثم صام أربعين يوماً ، ولما شرع في التبشير ظهر له الشيطان يجربه . وقال له : أعطيك هذه الدنيا إن خررت وسجدت لي : فأجابه يسوع وقال : اذهب ياشيطان . ثم تركه إبليس ، وإذا ملائكة قد جاءت وصارت تخدمه ، وبعد هذه التجربة صار في طريق التبشير . فلازمه حواريوه الاثنا عشر ، واختار معهم سبعين أرسلهم مثنى مثنى إلى قرى اليهود والجليل للتبشير .. ثم أقام ثلاث سنوات يبشر ، ويأتي بالمعجزات المثبتة لألوهيته في زعمهم ، يشفي المريض ، ويفتح أعين العميان : ويخرج الأرواح النجسة . وينهر الرياح إذا ثارت . والبحر

إذا اصطخب بالأذى ، وقذف بالزبد . فيهدأن . ولما رأى اليهود أن الأمر كاد يفلت من أيديهم تشاوروا لكى يصطادوه ، وتآمروا عليه . وشكوه ظلماً . وكذبوا عليه ، ثم أمسكوا به واسلموه إلى بيلاطس حاكم فلسطين من قبل الرومان ، فقضى عليه بالموت صلبا . فصلب فى زعمهم ، ودفن . وبعد أن مكث فى القبر ثلاثة أيام قام فى الفصح . ومكث أربعين يوما ارتفع بعدها إلى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر ديانته . إذ قال لهم اذهبوا إلى العالم ، وكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها ، وعمدهم باسم الآب والابن والروح القدس » .

المسيحية بعد المسيح

ما نزل بالمسيحيين من اضطهاد

١٩ — هذا هو المسيح كما جاء فى كتبهم وتعاليمهم . ولا نريد أن نخوض فى بيان خلافاتهم حوله . ولا بيان اختلافهم فى تفسير هـذه العقيدة . ولا فى تفصيل مجملها قبل أن نبين ما نزل بالمسيحيين بعد المسيح ، ولـكنا سارعنا إلى بيان اعتقادهم الذى استقروا عليه فى المسيح ، ليوازن القارىء بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى أناجيلهم وتعاليمهم .

ونعود بعد ذلك إلى ما يوجبه البحث العلمى . وهو تتبع العقيدة فى نموها . وفى استقامتها أو انحرافها بعد صاحبها . وتمهيداً لذلك نبين ما نزل بالمسيحيين بعده . لـكى يستبين القارىء مقدار قوة السند بين الديانة وصاحبها مع هذه الأحداث . وليعرف الفلسفة التى عاصرت المسيحية ومقدار اتصالها .

اتفقت المصادر شرقية وغربية . دينية وغير دينية : على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكورات ، جعلتهم يستخفون بدياناتهم ، ويفرون بها أحياناً ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحياناً أخرى . وهم فى كلتا الحالين لا شوكة لهم ، ولا قوة تحميهم وتحمى دياناتهم وكتبهم . وإنه فى وسط هذه الاضطهادات يذكرون أنه دونت أناجيلهم الأربعة التى يؤمنون بها ، ودونت رسائلهم !!

وأول اضطهاد نزل بالمسيحيين كان فى عهد المسيح ، وانتهى بالخاتمة التى بيناها . ولقد نزلت من بعده الشدائد بالمسيحيين بما يتفق مع هذا الابتداء . فلقد جاء قيصران بعد طيباروس الذى عاصر المسيح ، كانا شديدين على تلاميذه . وقتلا منهم قتلا ذريعا . وفى زمن ثانيهما دون متى انجيله بالعبرية . وترجمه يوحنا صاحب الإنجيل إلى اليونانية على رواية ابن البطريق كما سنبين . ولم يكن الاضطهاد

فى عهد هذين القيصرين من الرومان فقط ، بل كان من اليهود أيضاً ، وأذاهم أمكن . وتنقيبهم عن العقيدة أدخل ، لأنهم من الشعب ومخالطوهم ومعاشروهم . فهم بداخلهم أعرف .

وأشد ما نزل من أذى كان فى عهد نيرون (سنة ٦٤م) وتراجان سنة ١٠٦م وديسيوس (٢٤٩ - ٢٥١م) ودقلديانوس (سنة ٢٨٠) ، فنيرون هاج الشر عليهم ، وأنزل البلاء والعذاب بهم . و تهمهم بأنهم الذين أحرقوا روما ، فأخذهم بجريرتها . وكانت السنوات الأربع الأخيرة عذاباً أليما لهم . فقد تفنن هو وأشياعه فى هذا العذاب ، حتى لقد كانوا يضعون بعضهم فى جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم . وصلبوا بعضهم . وألبسوا بعضهم ثياباً مطلية بالقار ، وجعلوهم مشاعل يستضاء بها . وكان هو نفسه يسير فى ضوء تلك المشاعل الإنسانية .

وفى عصر نيرون هذا دون إنجيل مرقس سنة ٦١ على رواية ، وكان بمصر وقد كتبه عنه بطرس وهو بروما وكتب أيضاً لوقا إنجيله فى عهد هذا القيصر . وفى ابتداء هذا الإنجيل ينص على أنه يراسل به تاوفيلس . ليؤكد به صحة الكلام . وتاوفيلس هذا رجل من عظماء الروم وأشرافهم . وفى عصر هذا القيصر أو بعده دون يوحنا إنجيله .

وفى عهد تراجان نزلت بهم آلام . لأنهم قد جرت عادتهم بالصلاة فى الخفاء هرباً من الاضطهاد ، وقد أمر تراجان بمنع الاجتماعات السرية ، فأنزل بهم الذل والعذاب لذلك . ولأنهم مسيحيون لا يدينون بدين القيصر .

جاء فى كتاب تاريخ الحضارة « قد كتب بلين - وكان والياً فى آسيا - إلى الأمبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التى كان يعامل بها المسيحيون . قال : « جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية وهو أنى أسألهم

إذا كانوا مسيحيين فإذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً بالقتل ، فإن أصروا أنفذت عقوبة الإعدام فيهم ، مقتنعا بأن غلطهم الشنيع ، وعنادهم الشديد ، يستحقان هذه العقوبة ، وقد وجهت التهمة إلى كثيرين بكتب لم تذيل بأسماء أصحابها فأنكروا أنهم نصارى . وكرروا الصلاة على الأرباب الذين ذكرت أسماءهم أمامهم . وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمداً مع تماثيل الأرباب ، بل إنهم شتموا المسيح ، ويقال إن من الصعب إكراه النصارى الحقيقيين ، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى ، ولكنهم كانوا يثبتون بأن جريمتهم فى أنهم اجتمعوا فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على أنه رب ، وعلى إنشاد الأناشيد إكراماً له ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم ، بل على ألا يسرقوا ، ولا يقتلوا ، ولا يزنوا ، وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضرورى لمعرفة الحقيقة أن أعذب امرأتين ذكروا أنهما خادمتا الكنيسة ، بيد أنى لم أقف على شىء سوى خرافة سخيفة مبالغ فيها » .

وهذا الكتاب كاشف كل الكشف عما كان يحدث للنصارى فى عهد ذلك القيصر من اضطهاد وتعذيب ، وتنقيب عن القلب وخبيئة النفس .

ولم ينقطع الاضطهاد بعد موت تراجان ، بل استمر ، وإن أخذت الرأفة بعض القياصرة ، خلف من بعده خلف ينزلون عذاباً مراً يزيل أثر كل رحمة سابقة كانت نسبية حتى جاء ديسيوس فأنزل بهم من البلاء ما تقشعر من هوله الأبدان ، ولنترك القلم لبطريرك الاسكندرية ، يصف بعض ما عاين من ديسيوس بعد أن ذاق بعض الرحمة من سابقه ، فهو يقول : « لم نكد نتنفس الصعداء ، حتى حلق بنا الخوف ، وحفنا الخطر ، عندما بدل ذلك الملك الذى كان أرق جانباً ، وأقل شراً من غيره وجاء مكانه ملك آخر ، ربما لا يجلس على كرسى المملكة حتى يوجه أنظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا . وقد تحقق حدسنا ، عندما أصدر

أمرا شديد الوطأة ، فعم الخوف الجميع ، وفر بعضهم ، وقد أبعد كل مسيحى من خدمة الدولة . مهما يكن ذكاؤه . وكل مسيحى يرشد عنه يؤتى به على عجل ويقدم إلى هيكل الأوثان ، ويطلب منه تقديم ذبيحة للصنم وعقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة . بعد أن يجتهدوا فى حمله بالترهيب . . . ومن ضعاف الإيمان من أنكر مسيحيته . واقتدى به البعض ، ومنهم من تمسك بأذيال الفرار ، أو من زج به فى غيابات السجون » .

وهكذا يقص ذلك القسيس ما نزل بهم مما انتهى به الأمر إلى فراره هو ، وقد كتب يعتذر[1] عن ذلك إلى بعض من أبلوا بلاء حسنا ، ولم يلوذوا بالفرار .

ولم يكن البلاء مقصورا على مصر ، بل كان يتتبع المسيحيين فى الدولة الرومانية حيثما ثقفوا ، وأينما كانوا .

ولى بعد ديسيوس من أوقع البلاء وأنزله بالمسيحيين ؛ ولكن كان أشدهم هؤلاء وأبلغهم أذى . وأنكاهم بطشا ـ دقلديانوس الذى جاء إليهم ، بعد أن خف العذاب عنهم قليلا ، وقد رجوا فيه خيراً ، وأملوا منه أن يكون عونا ، لأن مدير خاصته مسيحى ، ولكنه كان أشد من غيره على المسيحيين ، وخصوصا المصريين ؛ وذلك لأن المصريين رأوا أمماً تحللت من حكم الرومان ، وفكوا أغلاله ، فاقتدوا بهم . ونزعوا إلى السير فى طريق الحرية والاستقلال ، وساروا فيه ، وعقدوا الإمرة لواحد منهم ، فجاء دقلديانوس إلى مصر ، وأنزل بها البلاء ، وأزال استقلالها ، وأعاد فتحها ، وكانت كثرتها فى ذلك الإبان مسيحية ، وقد أمر بهدم الكنائس ، وإحراق الكتب ، وأصدر أمراً بالقبض على الأساقفة والرعاة ، وزجهم فى غيابات السجن ، وقهر المسيحيين وحملهم على إنكار دينهم ، وقد استشهد فى هذا الوقت عدد كبير من الأقباط تجاوزت عدتهم

---

(١) راجع هذا فى كتاب تاريخ الأمة القبطية الجزء الأول ص ١٠٤ و١٠٥ و١٠٦ .

أربعين ومائة ألف ، وعدهم بعض المؤرخون ثلاثمائة ألف ، ولكثرة ما استشهد من شهداء وما نزل من بلاء كانت ولاية دقلديانوس حادثا ذا خطر فى شأن مصر فجعلوه مبدأ تقويمهم ، وذلك فى سنة ٢٨٤ ميلادية .

وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين ، فكان يمنا وبركة على المسيحيين ، لا على المسيحية كما سنبين .

أثر الاضطهادات فى الديانة

٢٠ — هذه هى الاضطهادات التى قارنت المسيحية فى نشأتها وفى تكونها وليداً وفى تدرجها ، وفى عصر تدوينها ورواية كتبها . وهى مع أسباب أخرى جعلت بعض العلماء يبحثون عن قيمة هذه الكتب ، وجعلت بعض علماء المسيحيين أنفسهم يعتذرون عن بعض الاضطراب فى الأناجيل بأنها دونت فى عصور اضطهاد المسيحية الأولى ، بل إن مناظريهم يقررون بأن تلك الاضطهادات كانت سببا فى فقد سندها المتصل بصاحب الشريعة . يقول الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه إظهار الحق : « طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه ، واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم . فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة ، وتفحصنا فى كتب الاسناد لهم ، فما رأينا فيها شيئاً غير الظن ، يقولون بالظن ، ويتمسكون ببعض القرائن . وقد قلت إن الظن فى هذا الباب لا يغنى شيئاً ، فما داموا لم يأتوا بدليل شاف ، وسند متصل فمجرد المنع يكفينا . وإيراد الدليل فى ذمتهم لا فى ذمتنا » . وفى الحق ان تلك الاضطهادات جعلت كل عمل يقومون به فى شئونهم الدينية ــ وخاصة ما كان متصلا ببيان الشريعة يقومون به سراً لا جهراً . وفى خفية من العيون المتربصة ، والأعداء المترقبين . والسرية يحدث فى ظلمتها ما يجعل العقل غير مطمئن إلى ما يحكى عما يحدث فيها ، فيتظنن فى كل ما يروى عنها . ولا مانع من أن يدس على اجتماعاتها ما لم يجر فيها ، وينقل عن أشخاصهم ما لم يقولوه ،

ويتسامع الجمهور أموراً ما حدثت فى تلك الاجتماعات . ولا قالها حاضروها .
فإذا جرى الشك والريب فيما دون من كتب المسيحية التى فقدت سندها بسبب
هذا الاضطهاد . والتى كتبت فى ظلمة السرية . يكون قد وقع حيث وجدت
دواعيه . وقامت شواهده .

الفلسفة الرومانية والمسيحية

٢١ — ولقد كان من المسيحيين من يفرون بدينهم . ومنهم من يظهر الوثنية
ويبطن المسيحية . ومنهم من دخل النصرانية وفى رأسه تعاليم الوثنية لم تخلع
منه ولم تزايله ، وإن زايلها بعقله المدرك . فعقله الباطن ما زال مستقرا لها ومكمنا
تسكن فيه . وهؤلاء لاشك أثر تفكيرهم فى المسيحية التى لم يكن لها قوة تحميها
ولا شكيمة تعقل النفوس إلى حظيرتها .

وإن التاريخ يروى لنا أنه فى القرن الثانى ، والثالث ، والرابع الميلادى
قد دخل الرومان والمصريون أفواجا ، أفواجا فى المسيحية . فمن حق العلم أن
نحكى ما كان يسيطر على هذه الأمم من أفكار ، وما كان يسود تفكيرها من
منازع عقلية ودينية . ولا نعتمد فى ذلك إلا على ما أثبته تاريخ العلم والفلسفة ،
وما أجمع عليه المؤرخون .

يحكى التاريخ أن مدنية الرومان لم تكن متناسقة تناسقا اجتماعيا ، فلم يكن
توزيع الثروة فيها توزيعاً يتحقق معه العدل الاجتماعى ، فبينما ترى ترفا ورخاء
لمن أفاءت عليهم الدولة بالفىء والغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ، ترى
ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به فى حياتهم ، فاستولى عليهم
الإحساس بالظلم ، والسخط على الحياة ، والتململ بها ، والناس لا يشقون لآلامهم
وحرمانهم بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم ، وكذلك كانت
آلام سواد الرومان ، ولولا إيمان بحياة مستقبلة ، يستمتعون فيها بما حرموا منه
فى هذه الحياة ، لضاقت الصدور بما يجلجل فى القلوب ، ولانفجرت فى ثورة

الاجتماعية ، لكن توجهت هذه النفوس إلى الإيمان بعالم علوى ، واعترف الإنسان بعجزه التام عن معرفة نفسه وإسعادها ، إذا اعتمد على تفكيره فقط ، لذلك رجعوا إلى الدين .

وفى هذا الوقت أراد الفلاسفة أن يحلوا فلسفتهم محل الأديان ، إذ أخذت التماثيل والأوثان تفقد قوة تأثيرها ، ولم يعد لها سلطان فى تصريف سلوك الإنسان . وفقدت معابدها ما كان لها من روعة وقوة ، فاعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان ، كلاهما فيه قوة وبأس . فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة إلى عزاء من الدين ، وسلوى باليوم الآخر ، وملاذ إلى حياة روحية . والفلسفة — بما لها من سلطان العقل — لما وجدت الأوثان تسقط قيمتها أرادت أن تحل محلها ، حينئذ التحمت الفلسفة بالشعور الدينى ، أو التقت الفلسفة والدين ولم يكن التقاؤهما عداوة وخصاماً ، بل كان محبة وسلاماً ، فكانت تلك الحال داعية اتصال بينهما ، لا داعية افتراق .

قال فندلبند فى ذلك : « إن الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم بالشعور الدينى اللجوج فكرة فى العالم تقنعه ، فأوجدت نظما دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقاً يختلف قلة وكثرة » .

هذه كلمة ذلك الفيلسوف نقلها عنه صاحب كتاب المبادىء الفلسفية فما هذه الأديان المتضادة التى ألفت بينها الفلسفة . وجعلت من نغماتها المختلفة نغمة واحدة مؤتلفة ؟

إن التاريخ يقص علينا أن الأديان التى كانت فى بلاد الرومان ثلاثة : الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة . فهل عملت الفلسفة على إيجاد ديانة تجمع بين المسيحية واليهودية ، وفيها وثنية ؟ وهل المسيحية التى تؤمن بالتوراة التى عند اليهود على اختلاف هين . وتؤمن بالتثليث وألوهية المسيح

وتقدس الصليب ، هى النظام الدينى الجامع بين الأديان الثلاثة !!! لنترك ذلك الآن . وقد وضعنا أمام القارىء المصباح الذى يرى به الطريق .

الأفلاطية الحديثة وأثرها فى النصرانية

٢٢ — ولنتجاوز رومة والرومان ولنعبر البحر الأبيض . ولنيمم شواطئه الجنوبية ، فهنالك تجد مدينة الإسكندرية ومدرستها ، وفلسفتها التى كانت تشع على العالم كله بنور العلم . وقد آوى إليها فلاسفة اليونان ، وتابعوا الفلسفة اليونانية ، والتى نراها تتجه اتجاهاً واضحاً إلى النواحى الدينية ، والبحث فى منشىء الكون .

كان شيخ هذه المدرسة امنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ، اعتنق فى صدر حياته الديانة المسيحية . ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين ، وجاء من بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ وقد تعلم فى مدرسة الإسكندرية أولا ، ثم رحل إلى فارس والهند . وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية ، واطلع على تعاليم بوذا وديانته . وبراهمة الهند وديانتهم . وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، والبراهمة فى كرشنة . وقد عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية ، وأخذ يلقى بآرائه على تلاميذه ... وجلها يتجه إلى تعرف ما وراء الطبيعة ، ومنشىء الكون .

ويتلخص اعتقاده فى منشىء الكون فى ثلاثة أمور :

(أولها) أن الكون قد صدر عن منشىء أزلى دائم لا تدركه الأبصار ... ولا تحده الأفكار . ولا تصل إلى معرفة كنهه الأفهام .

(ثانيها) أن جميع الأرواح شعب لروح واحد وتتصل بالمنشىء الأول بواسطة العقل .

(ثالثها) أن العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ، وهو تحت سلطانها ، فالله منشىء الأشياء ، وهو مصدر كل شىء ، وإليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث . فليس بجوهر ولا عرض ، وليس فكراً

كفكرنا . . ولا إرادة كإرادتنا ولا وصف له . إلا أنه واجب الوجود ـ يتصف بكل كال يليق به ، يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج هو إلى موجود ، وأول شيء صدر عن هذا المنشيء فى نظر أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الإنتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه ، ومن العقل تنبثق الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يتولد كل شيء .

٢٣ — هذه هى فلسفة المعاصرين لنشأة الديانة المسيحية عندما أريد تحويلها، وترى أن فلسفة الرومان ترمى إلى إيجاد ألفة بين الوثنية واليهودية ومسيحية المسيح عليه السلام كما ترى أن فلسفة الإسكندرية ترجع العالم فى تكوينه وتدبيره إلى ثلاثة عناصر أو إلى ثالوث مقدس : المنشيء الأول، والعقل الذى تولد منه كما يتولد الولد من أبيه ، والروح الذى يتصل بكل حى ومنه الحياة . فإذا عبرنا عن المنشيء الأول بالآب ، وعن العقل المتولد عنه بالابن ، وعن الروح بروح القدس ، كما هو ثالوث النصارى الذى أخذ ببعضه مجمع نيقية ، وبكله المجامع التى جاءت من بعده لما خرجنا فى التسمية عن الصواب ، وما كان فيها أى تسامح ، فذلك الثالوث فى معناه هو ثالوث النصارى . وإذا لم يختلف المسمى ، فلماذا يختلف الاسم ؟

وهنا يرد على النفس سؤال أيهما استقى ، وأيهما كان الينبوع ؟ أأخذت الأفلاطونية الحديثة من النصرانية ، أم النصرانية الحاضرة هى التى أخذت عن الفلسفة ؟ إن الجواب عن هذا يقتضى تعرف السابق منهما ، فالسابق بلا ريب أستاذ اللاحق، والزمن هو الذى يحكم ويفصل، وسنجد فيما يلى من البحث أن مجمع نيقية هو الذى سار فى تقرير هذا الثالوث ، ووضع الأساس لمن بعده أو بعبارة أدق قرر ألوهية الابن ، وأن جوهره هو جوهر الآب ، وقد جاء فى قراره « إن الجامعة المقدسة ، والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لاشيء أو من يقول إن الابن

وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول إنه قابل للتغيير » [(١)] .؟

---

(١) اطلع زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية أصول الدين سابقا على هذا الاستنباط التاريخي فقال : إنه يوافق ما استنبطه بعض المستشرقين ، ثم ترجمه ، وتفضل فأرسل إلينا نص الترجمة وها هي ذي ، ننشرها مع بحثنا شاكرين له رحمه الله فضل تعاونه :

التثليث ليس من المسيحية بل من الفلسفة الإغريقية

(١) كانت المشكلة الفلسفية التي واجهت أولا الاغريق هي : « ما مبدأ كل شيء ؟ » . وباجتهاد الفلسفة في الإجابة عن هذا السؤال إجابة محدودة ومقنعة شيئاً فشيئاً كان لنا تلك المذاهب الفلسفية التي تتابعت في تاريخ الفلسفة الاغريقية . هذه فلسفة بدأت طبيعية مع الفلاسفة الايونيين ، ثم أخذت فكرة التوحيد في الظهور على أيدي سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، بحيث رأى هؤلاء أن المبدأ الذي صدر عنه العالم هو الله الواحد الذي لم يتغير ، على غموض في تعين هذه الصفات ونحوها مما يصح أن يتصف بها .

ولكن بمقدار تبين هذه المعارف والمعلومات عن الله كانت تكبر الصعوبة الأساسية التي اصطدمت بها المذاهب التي سبقت سقراط : كيف تصدر الأشياء عن مبدئها ؟ كيف يمكن أن يخرج الكثير — أي العالم — من الواحد ، والمتغير من الذي لا يتغير ؟ وأنه كلما قرب المبدأ الأول من الوحدة الحق بصيرورته روحيا ، ومن عدم التغير الحق بصيرورته كاملا ، تتسع الهوة التي تفصله عن العالم وكثرته ، وتصير أكبر عمقاً ، كما يصبح عسيراً فهم كيف يبرز الله العالم للوجود ويحركه .

(٣) إذا كان الله واحداً وحدة مطلقة كيف يمكن أن يخلق الكثرة المختلفة دون أن يقبل في ذاته كثرة بأي وجه من الوجوه ؟ وإذا كان كماله المطلق يقتضي عدم التغير ، كيف تفهم أنه في وقت ما أوجد العالم دون أن يلحقه تغير ، مع أنه انتقل من حالة عدم العمل إلى حالة العمل؟ هنا تظهر عبقرية العقل الآري ! الواحد البريء من التغير لا يمكن أن يصدر عنه العالم المتكثر المتغير مباشرة . يجب إذن أن تتوسط بينهما وسائط أزلية متدرجة حسب نظام ميتافيزيقي .

(٤) كان أفلاطون أول من أدرك تلك المشكلة وأول من أدرك هذا الحل الذي وجب على العقل الاغريقي فيما بعد — بعد إنضاجه طويلا — أن يجتمع نهائياً عليه ، أعني عقيدة ثلاثة أقانيم أو عقيدة التثليث — ص ٧٠ — ٧١ .

(٥) هذا المذهب أو هذه العقيدة التي تمثلها عقل أفلاطون ، وإن كان أدركها إدراكا ، فيه نوع غموض ليس إلا عقيدة التثليث المشهورة ؛ ومن السهل إدراك الغرض منها : الاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغير ، جعله يضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه خارجين عنه ؛ وعلى نحو ما داخلين فيه أي تتضمنهما ذاته — صادرين عنه ، دونه في الكمال ، ويجعلانه ممكناً أن يصدر عن الله العالم الكثير المتغير . أول هذين الوسيطين العقل وثانيهما الروح الإلهية — ص ٧٣ — ٧٤ .

(٦) وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الاغريقية لم ينتج فلسفة فقط ، بل =

وهذا المجمع كان فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد ، والمسيحيون قبله كانوا على اختلاف كبير جداً ، ويكفى للدلالة على هذا الاختلاف أن الذين حضروا المجمع نيف وأربعون بعد الألفين ، وهم على آراء مختلفة ، ولم يجمع على قراراته إلا ثمانية عشرة وثلاثمائة كما سنبين . إذن ففكرة البنوة بمعنى أنه تولد عن المنشىء من غير زمن بينهما كما يقول الفلاسفة ، وأنه من جوهر أبيه ، كما يقولون لم تسد إلا بعد ذلك المجمع ، وسيأتى لذلك فضل بيان إن شاء الله تعالى ، وعلى ذلك يكون تثليث المسيحية كحقيقة مقررة متأخراً عن أفلوطين ، لأن أفلوطين توفى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد كما علمت والتثليث لم يتكامل إلا فى آخر القرن الرابع ، والمتقدم أستاذ للمتأخر كما يرجح العقل ، وكما يوجبه الظن الذى لا يعد من الإثم .

ولقد قوى ذلك الظن عند بعض علماء أوربا ، حتى شك بعضهم فى حياة المسيح وقالوا إنه شخص خرافى لم يوجد ، أراد بعض فلاسفة الأفلاطونية الحديثة أن يفرضوه ، ليجعلوا من آرائهم ديانة يعتنقها العامة ، وتسود الكافة ، وقد تم لهم ما أرادوا ، ولكنا نحن المسلمين لا نقر ذلك كله ، لما فيه من إنكار وجود المسيح الذى نؤمن به ونزل بخبره الوحى الأمين وإن كنا نصدق لبه .

= أنتج معها ديناً أيضاً ، أعنى المسيحية التى تشربت كثيراً من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان . ذلك أن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية الحديثة (يريد فلسفة أفلاطون التى كانت المعين الأصلى للفلسفة الأفلاطونية الحديثة) ولذا نجد بينهما (أى اللاهوت المسيحى والأفلاطونية الحديثة) مشابهات كبيرة ، وإن افترقا أحياناً فى بعض التفاصيل . فإنهما يرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة الأقانيم واحدة فيهما – ص ٩٣ .

(٧) أول هذه الأقانيم هو مصدر كل كمال ، والذى يحوى فى وحدته كل الكمالات ، وهو الذى دعاه المسيحيون الآب . والثانى أو الابن هو الكلمة . والثالث هو دائما الروح القدس ص ٩٢ – ٩٤ .

على أنه يجب أن يلاحظ (وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحى عن الأفلاطونية الحديثة) أن الأقانيم الثلاثة ليست فى نظر هذا المذهب متساوية فى الجوهر والرتبة . بينما هى متساوية عند المسيحية . فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن أن يكون أدنى منه كمالا . وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطراراً عنه غير الكامل . وهذا حط من رتبته . وكذلك الروح القدس مساو للآب والابن – ص ٩٤ .

كل هذه النقول من كتاب : « مقدمة (أو المدخل لدراسة) الفلسفة الإسلامية » تأليف المستشرق المعروف ليون جوتيه L. Gauthier طبع باريس عام ١٩٢٣ .

مصادر المسيحية بعد عيسى

٢٤ ـ الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة والأناجيل، ورسائل الرسل، وتسمى التوراة (أسفارها الموسوية وغيرها) كتب العهد القديم، وتسمى الأناجيل، ورسائل الرسل كتب العهد الجديد، فمن العهد القديم يعرفون أخبار العالم فى عصوره الأولى، وأجياله القديمة، وشرائع اليهود الاجتماعية والدينية، وتاريخ نشأتهم، وحكوماتهم وحوادثهم، والنبوات السابقة منذ هبوط الإنسان على هذه الأرض، والبشارات بالنبيين اللاحقين، وبالمسيح. وفيها يجدون أدعية متوارثة تعين على أداء العبادات، والقيام بالطقوس الدينية كمزامير داود. ولنترك الكلام فى التوراة وأسفارها، فالذلك موضعه من الدراسة الديانة اليهودية بيد أنه يجب أن يلاحظ أن بعض الأسفار المعتبرة عند اليهود مرفوضة عند المسيحيين، لعدم اعتقادهم بصحة الوحى فيها.

الأناجيل :

٢٥ ـ أما كتب العهد الجديد فهى التى تعنينا فى هذا البحث، ويهمنا أن نجلى أمرها، ونعرف حقيقتها، وأولها الأناجيل.

والأناجيل المعتبرة عندهم أربعة : إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.

ومكان الأناجيل فى النصرانية مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما أحاطوها به من أفكار هى شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هى المشتملة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه فى إعتقادهم، وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهى بهذا تشتمل

على عقيدة ألوهية المسيح فى زعمهم ، والصلب والفداء . أى أنها تشتمل على لب المسيحية فى نظرهم بعد المسيح ومعناها .

وهذه الأناجيل الأربعة هى التى تعترف بها الكنائس ، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها . ولكن التاريخ يروى لنا أنه كانت فى العصور الغابرة أناجيل أخرى ، قد أخذت بها فرق قديمة ، وراجت عندها ، ولم تعتنق كل فرقة إلا إنجيلها ، فعند كل من أصحاب مرقيون ، وأصحاب ديصان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل ، ولأصحاب مانى إنجيل يخالف هذه الأربعة ، وهو الصحيح فى زعمهم ، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس ، والنصارى ينكرونه ، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة ، وإنجيل سرن تهس ، ولقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة ، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية ، ثم أرادت الكنيسة فى آخر القرن الثانى الميلادى ، أو أوائل القرن الرابع أن تحافظ على الأناجيل الصادقة ـ فى اعتقادها ـ فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذلك .

ولقد يذكر بعض المؤرخين أنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث ، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس فى سنة ٢٠٩ ، ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس فى سنة ٢١٦ ، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم ، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة ، بل أرادت الناس على قبولها لاعتقادها صحتها ، ورفض غيرها ، وتم لها ما أرادت ، فصارت هذه الأناجيل هى المعتبرة دون سواها .

ولقد كنا نود ونحن ندرس المسيحية وأدوارها فى التاريخ أن تعرف هذه الأناجيل التى أهملت ، وما كانت تشتمل عليه ، مما كان سبباً فى رفضها ، وحمل الناس على تركها ؛ وخصوصاً أنها كانت رائجة ، ويأخذ بها طوائف

ممن المسيحيين ويتدينون هذه الديانة على مقتضاها ، فإن الاطلاع عليها يمكننا من معرفة اعتقاد الناس فى المسيح ، وكيف كان ، خصوصاً بين أولئك الذين قاربوا عصره، وأدركوا زمانه ، ولقوا تلاميذه، ونهلوا من مناهلهم، وإذا ضن التاريخ بحفظ نسخ منها ، فقد كنا نود أن تطلعنا الكنيسة على ما اشتملت عليه مما يخالفها ، وكان سبب رفضها ، وترينا حجة الرفض ، لتكون دليلا منيراً لنا على أنها بهذا أقامت ديانة المسيح ، ولم تغيرها ، ولكن ضن التاريخ علينا ، فطوى تلك الأناجيل، وضنت الكنيسة فطوت تلك البينات ، فلم يبق لنا إلا أن نكتفى من الدراسة بما بين أيدينا، ولعل فيه غناء إن أنعمنا النظر ، وأمعنا فى الاستنباط ، وجعلنا لقضية العقل سلطاناً ، ومن بدهياته برهاناً .

الأناجيل لم يملها المسيح ولم تنزل عليه

٢٦ — وهذه الأناجيل الأربعة لم يملها المسيح ، ولم تنزل عليه هو بوحى أوحى إليه ، ولكنها كتبت من بعده — كما رأيت — وتشتمل على أخبار يحيى (يوحنا المعمدان) والمسيح ، وما كان منه ، وما أحاط بولادته من عجائب وغرائب ، وما كان يحدث منه من أمور خارقة للعادة ، ولا تحدث من سواه من البشر ، وما كان يحدث له من أحداث ، وما كان يجرى بينه وبين اليهود ، وما كان يلقيه من أقوال وخطب وأحاديث وأمثال ومواعظ ، وفيها قليل من الشرائع التى تتعلق بالزواج والطلاق ، ثم أخبار المؤامرة عليه ، واتهامه والقبض عليه ، ومحاكمته ، سواء أكانت تلك المحاكمة أمام اليهود ، أم أمام الرومان ، ثم فيها الحكم عليه بالموت صلباً ، وصلبه بالفعل فيما يعتقدون ، وفيها أيضا قيامته من قبره ، ومكوثه أربعين يوماً ، ثم رفعه إلى السماء . وفى الجملة هى تشتمل على أخبار المسيح وصلواته ، وأقواله وعجائبه ، من بدايته إلى نهايته فى هذا العالم . وهذا — كما قلنا — لب المسيحية ومعناها ، لأن فيها النواة الأولى لألوهية المسيح ؛ وعقيدة النصارى فيه . ولنتكلم على كل إنجيل من هذه الأناجيل بكلمة تبين تاريخ تدوينه . وتعرف بمؤلفه . ومكانته من المسيح .

إنجيل متى :

٢٧ — وقد كتبه متى ، وهو أحد تلاميذ المسيح الأثنى عشر ، ويسميهم المسيحيون رسلا . وقد كان قبل اتصاله بالمسيح من جباة الضرائب ، وكانوا يسمون فى ذاك العهد عشارين . ولقد كان جابياً للرومان فى كفر ناحوم من أعمال الجليل بفلسطين ، وكان اليهود ينظرون للجباية نظر ازدراء ، لأنها تحمل صاحبها على الظلم ، أو على الأقل تحمله على العنف ، والعامل فيها معين للدولة الرومانية المغتصبة التى تحكم البلاد بغير رضا أهلها . ولكن السيد المسيح اختاره تلميذاً من تلاميذه كما جاء فى إنجيله . ففى الأصحاح التاسع منه « وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية ، واسمه متى ، فقال له : اتبعنى ، فقام وتبعه ، وبينما هو متكئ فى البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا ، واتكئوا مع يسوع وتلاميذه .

فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب ، بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ماهو ، إنى أريد رحمة لا ذبيحة ، لأنى لم آت لأدعو أبراراً ، بل خطاة إلى التوبة » .

ولما صعد المسيح إلى ربه جال متى للتبشير بالمسيحية فى بلاد كثيرة .

ومات فى سنة ٧٠ ببلاد الحبشة على أثر ضرب مبرح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة ، وفى رواية أخرى أنه طعن برمح فى سنة ٦٢ بالحبشة بعد أن قضى بها نحو ثلاث وعشرين سنة داعياً للمسيحية مبشراً بها ، فموطن دعايته كما يروى مؤرخو المسيحية هو الحبشة .

إنجيل متى كتب بالعبرية ولم يعرف إلا باليونانية وجهل المترجم

٢٨ — وقد اتفق جمهورهم على أنه كتب إنجيله بالعبرية أو السريانية ، كما اتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت شائعة رائجة كانت باليونانية ، ولكن موضع الخلاف فى تاريخ تدوينه ، ومن الذى ترجمه إلى اليونانية ، فمن المتفق

عليه عند أكثرهم أن متى كتب إنجيله بالعبرانية ، وذلك لأنه كتبه لليهود يبشر بالمسيحية بينهم ، وليقرأه مؤمنوهم بها . قال جيروم : « إن متى كتب الإنجيل باللسان العبرى فى أرض يهودية للمؤمنين من اليهود » وقال غيره : إن متى كتب الإنجيل باللسان العبرى ، وهو الذى انفرد باستعمال هذا اللسان فى تحرير العهد الجديد » .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ تدوين هذا الإنجيل وترجمته نرى ميدان الخلاف فسيحا . فنجد ابن البطريق يذكر أنه دون فى عهد قلوديوس قيصر الرومان من غير أن يعين السنة التى كتب فيها .

ويذكر أن الذى ترجمه يوحنا ، فيقول فى ذلك : « فى عصر قلوديوس كتب متاوس (متى) إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ، وفسره من العبرانية إلى اليونانية يوحنا صاحب الإنجيل » .

وهنا نجده لم يعين السنة التى كتب فيها الإنجيل ، بل عين الملك الذى كتب فى عهده ، وهذا الملك لم يكن هو الذى عاصر المسيح ، ولا الذى يليه ، بل الذى عاصر المسيح وصلب – على زعمهم – فى عهده طيباريوس ، وولى من بعده غابيوس ، وملك أربع سنين وثلاثة أشهر ، ثم جاء من بعده قلوديوس وملك أربع عشرة سنة ، فيحتمل تدوين هذا الإنجيل أن يكون فى آخر العشرة الرابعة من ميلاد المسيح ، ويحتمل أن يكون فى أول أو آخر العشرة الخامسة أو أوائل السادسة . فكلام ابن البطريق يحتمل كل هذا ، وقال جرجس زوين اللبنانى فيما ترجمه عن الفرنسية : « إن متى كتب بشارته فى أورشليم فى سنة ٣٩ للمسيح على ماذهب إليه القديس أيرنيموس ، والسبب فى ذلك على ماذهب إليه القديس أبيفانيوس أنه كتبه إما إجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح ، أو إجابة لأمر الرسل ، ولم يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرانية على زعم أوسيبيوس فى تاريخه ، وقد وافق أسيبيوس القديس أيرنيموس ، إذ أن بانتيوس

قد ذهب ليكرز بالإيمان المسيحى فى الهند ، فوجد إنجيلا لمتى الرسول مكتوباً بالعبرانية ، فجاء به إلى الإسكندرية ، وبقى محفوظاً فى مكتبة قيصرية إلى أيامه ، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت ، وبعد فقدها ظهرت ترجمتها فى اليونانية » اه . وفى هذا يعين الكاتب تاريخ السنة الذى دون فيها الإنجيل ، ولكن لا يعين المترجم ، بل يذكر أنه غير معروف ، بينما نرى ابن البطريق يعين أنه يوحنا صاحب الإنجيل المسمى باسمه .

ويقول بالنسبة لتاريخ التدوين صاحب كتاب (مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين) : « إن متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب إنجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا ، ومرقس ولوقا كتبا إنجيلهما قبل خراب أورشليم ، ولكن لا يمكن الجزم فى أية سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص ، لأنه ليس عندنا نص إلهى على ذلك » .

وقال صاحب ذخيرة الألباب : « إن القديس متى كتب إنجيله فى السنة ٤١ المسيح باللغة المتعارفة يومئذ فى فلسطين ، وهى العبرانية أو السير وكلدانية . . ثم ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم إلى اليونانية ، ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذى لعبت به أيدى النساخ الأيونيين ومسخته بحيث أضحى ذلك الأصل خاملا ، بل فقيداً ، وذلك منذ القرن الحادى عشر » .

وقال الدكتور بوست فى قاموس الكتاب المقدس ، مخالفاً جمهور المتقدمين فى أنه كتب بالعبرانية أو السريانية « إن هناك من يقول إنه كتب باليونانية ، ثم يرجح أنه ألف باليونانية مخالفاً بذلك إجماع مؤرخيهم ، ثم يقول بالنسبة لتاريخ تدوينه : « ولا بد أن يكون هذا الإنجيل قد كتب قبل خراب أورشليم . ويظن البعض أن الإنجيل الحالى كتب ما بين سنة ٦٠ وسنة ٦٥ » والحق أن باب الاختلاف فى شأن التاريخ لا يمكن سده ، ولا يمكن ترجيح رواية على رواية ، ولا جعل تاريخ أولى من تاريخ بالاتباع ، ولذلك يقول هورن

« ألف الإنجيل الأول سنة ٣٧ أو سنة ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٣ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد » .

ونقول نحن : يجوز غير ذلك ، والجمهور على أنه كتب بغير اليونانية ، ولكن لم يعرف غيرها ، ولم يعرف جمهرة المؤرخين من يكون المترجم ، وفى أى عصر ترجم ، وقد علمت أن ابن البطريق يذكر أن يوحنا هو الذى ترجمه إلى اليونانية ، ولكن لانجد أحداً من المؤرخين أيده ، بل إن الكثيرين منهم يقولون : « إنه لم يعرف المترجم » .

أثر جهل تاريخ التدوين والمترجم

٢٩ ــ ولا شك أن جهل تاريخ التدوين ، وجهل النسخة الأصلية التى كانت بالعبرية ، وجهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره ، وعلم بالدين واللغتين التى ترجم عنها والتى ترجم إليها ، كل هذا يؤدى إلى فقد حلقات فى البحث العلمى ، ولئن تسامح الباحث فى تاريخ التدوين ، وتاريخ الترجمة وملابساتها ، ليمنعنه العلم من الاسترسال فى التسامح ، حتى لا يرى أن السلسلة تكون كاملة إذا لم يعرف الأصل الذى ترجم ، فلقد وددنا أن نعرف ذلك الأصل ، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل ، أم فيها انحراف ، ولنعرف أفهم المترجم مرامى العبارات ومعانيها سواء أكانت هذه المعانى تفهم بظاهر القول أو بإشاراته ، أم بلحن القول وتلويحاته ، أم بروح المؤلف وغرضه ، ومرماه الكلى من الكلام . ولكن عز علينا العلم بالأصل ، ولقد كنا نتعزى عن ذلك لو عرفنا المترجم ، وأنه ثبت أنه ثقة أمين فى النقل ، عالم لا يتزيد على العلماء ، فقيه فى المسيحية حجة فيها ، عارف للغتين فاهم لهما ، مجيد فى التعبير بهما ، فعندئذ كنا نقول . ثقة روى عن ثقة بترجمته ونسد الخلة بتلك الرواية ، ونرأب الثلمة بتلك النظرة ، ولكن قد امتنع هذا أيضاً فقال جمهرة علمائهم . إن المترجم لم يعرف ، فبقيت الثلمة من غير ما يرأبها .

إنجيل مرقس :

٣٠ ــ يقول المؤرخون إن اسمه يوحنا ويلقب بمرقس ، ولم يكن من الحواريين

الاثنى عشر الذين تتلمذوا للمسيح ، واختصهم بالزلفى إليه ، وأصله من اليهود ، وكانت أسرته بأورشليم فى وقت ظهور السيد المسيح ، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته ، فاختاره من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس فى اعتقادهم من بعد رفعه ، وألهموا بالتبشير بالمسيحية ، كما ألهموا مبادئها .

ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية : « وقد أجمعت تقاليد الطوائف المسيحية على أن الرب يسوع كان يتردد على بيته ، وأنه فى هذا البيت أكل الفصح مع تلاميذه ، وفى إحدى غرفه حل الروح القدس على التلاميذ » . وجاء فى سفر الأعمال : « إن الرسل بعد صعود السيد المسيح كانوا يجتمعون فى بيته » .

ولقد لازم مرقس خاله برنابا (وهو من الرسل) وبولس الرسول فى رحلتهما إلى إنطاكية وتبشيرهما بالمسيحية فيها ، ثم تركهما بعد ذلك ، وعاد إلى أورشليم ، ثم التقى مرة أخرى بخاله ، واصطحبه إلى قبرص ، ثم افترقا ، فذهب إلى شمال أفريقية ودخل مصر فى منتصف القرن الأول ، فأقام بها وأخذ يدعو إلى المسيحية التى كانت أخبارها قد سبقته إليها ، وقد وجد فى مصر أرضاً خصبة لقبول دعوته ، فدخل فيها عدد كبير من المصريين ، وكان يسافر من مصر أحياناً إلى رومة وأحياناً إلى شمال أفريقية ، ولكن مصر كانت المستقر الأمين له ، فاستمر بها إلى أن ائتمر به الوثنيون فقتلوه بعد أن سجنوه وعذبوه ، وكان ذلك سنة ٦٢ من الميلاد .

وقد جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس الحوارى ، وقد جاء فى ذلك الكتاب عن مرقس : « صنف إنجيله بطلب من أهالى رومية ، وكان ينكر ألوهية المسيح » .

اللغة التى كتب بها إنجيل مرقس وتاريخ تدوينه والاختلاف فيه وفى الكاتب

٣١ ــ وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية ؛ ولم نر أحداً من كتاب المسيحيين ناقض ذلك ، وقد ذكر الدكتور بوست فى كتابه (قاموس الكتاب المقدس) أنه كتب الإنجيل باليونانية ، وشرح فيه بعض الكلمات اللاتينية . وأخذ من ذلك أنه كتب فى رومة ، ويجىء مثله فى تاريخ ابن البطريق ، ففيه :

« وفى عصر نارون قيصر كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عن مرقس فى مدينة رومية ، ونسبه إلى مرقس » .

ونوجه نظر القارىء إلى ما قاله ابن البطريق من أن الذى كتب الإنجيل هو بطرس عن مرقس ، ونسبه إليه ، فكأن بطرس راوى مرقس ، مع أن الأول رئيس الحواريين – كما يقول ابن البطريق – والثانى من تلاميذه ، كما جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار . وإذا كان ذلك الإنجيل خلاصة علمه بالمسيحية ، فإذا رواه عنه أستاذه ، فقد روى هذا عن مرقس ما ألقاه عليه وعلمه ، وإن ذلك لغريب ، ولقد ذكر هذا الأمر صاحب مرشد الطالبين : « قد زعم أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان ينصرهم بخدمته وقد ذكر الأمر بلفظ الزعم ، كأنه لا يصدقه ، وأنه لا يراه مقبولا . كما نراه غريباً ، ولكن هكذا يذكر الرواة .

وبجوار هؤلاء الذين يقولون أو يزعمون أن إنجيل مرقس كتب بتدبير من بطرس ، آخرون يقولون إن مرقس ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس ، فقد قرر الكاتب القديم أرينيوس : « إن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس » .

وفى الحق إن ذلك الاختلاف ، وإن كان زمنياً فى ظاهره ، هو فى معناه ولبه ، اختلاف فى شخص المحرر لهذا الإنجيل . فابن البطريق ، وهو من المؤرخين المسيحيين الشرقيين يقرر أن الذى كتبه هو بطرس عن مرقس ، ونسبه إليه وأرينيوس يقرر أن الذى كتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس ، لأنه كتبه بعد موته . فمن الكاتب إذن ؟ ليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين على الأخرى ! .

ولنتجاوز هذا إلى تاريخ كتابة ذلك الإنجيل ، فنجدهم أيضاً قد اختلفوا فى زمان تأليفه ، وقد قال فى ذلك هورن : « ألف الإنجيل الثانى سنة ٥٦ وما بعدها إلى سنة ٦٥ والأغلب أنه ألف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ » ، ويقول صاحب كتاب مرشد الطالبين : إنه كتب سنة ٦١ .

إنجيل لوقا :

٣٢ — يقولون: إن لوقا ولد فى أنطاكية ، ودرس الطب ، ونجح فى ممارسته ولم يكن من أصل يهودى ، ولقد رافق بولس فى أسفاره وأعماله ، وجاء فى رسائل بولس مايشير إلى هذه الرفقة ، وتلك الملازمة ، ففى الأصحاح الرابع من رسالته إلى كولوسى يقول : « ويسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب » ، وفى الأصحاح الرابع من رسالته الثانية إلى أهل تيموثاوس يقول : « لوقا وحده معى » ، وفى رسالته إلى أهل فليمون يقول : « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا العاملون معى » . من هذا كله يفهم أن لوقا هذا هو لوقا الأنطاكى ، الطبيب ، ومثل هذا جاء فى تاريخ ابن البطريق ، ويستنبط القس إبراهيم سعيد من كون لوقا طبيباً معانى كثيرة تسمو بإنجيله ، فيقول . « وكان لوقا طبيباً ، وهذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها تلقى على حياة لوقا نوراً ساطعاً ، فترينا إياه الرجل العلمى العملى المدقق المحقق ، الرقيق الأسلوب ، الجميل الديباجة ؛ لأن الرومان لم يسمحوا فى وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب ، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة » ثم يبين « أن كونه طبيباً قد سرد ولادة المسيح من غير أب سرداً طبيعيا هادئا من غير محاولة التدليل على جوازه يؤخذ منه أن ذلك ليس ضد العلم ، وكان فوق متناول العالم ، وليس ضد الطبيعة ، وأنه فوق مجرى الطبيعة » ، ويرجح ـ كما قال كثيرون ـ أنه ولد بأنطاكية ، ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن إنطاكيا ، ويبين أن الذين يقولون إنه إنطاكى وهموا ذلك أو ظنوه من اشتباهه بلوكيوس ، فيقول : ظن بعضهم أنه (لوقا) مولود فى أنطاكية . إلا أن ذلك ناتج من اشتباهه بلوكيوس ، وزعم بوست أنه كان رومانياً نشأ بإيطاليا .

ومهنة الطب التى نسب إليها ليست أيضاً موضع اتفاق ، بل من المؤرخين المسيحيين من يقررون أنه كان مصوراً .

ومن هذا يتبين أن الباحثين ليسوا على علم يقيني بمولد وصناعة كاتب هذا الإنجيل؛ فمن قائل إنه إنطاكي ولد بإنطاكية ، ومن قائل إنه روماني ولد بإيطاليا، ومن قائل إنه كان طبيباً ، ومن قائل إنه كان مصوراً ، وكلهم متفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه ، ولم يكن من تلاميذ المسيح، ولا من تلاميذ حوارييه.. ولبولس هذا شأن خطير في المسيحية كما سنبين .

من كتب لهم إنجيل لوقا، واختلافهم حوله

ويختلفون أيضاً في القوم الذين كتب لهم أولا هذا الإنجيل. فالقس إبراهيم سعيد يقول : « إنه كتب لليونان، وإنجيل متى كتب لليهود ، وإنجيل مرقس كتب للرومان وإنجيل يوحنا كتب للكنيسة العامة » .

وإنا نجد إنجيل لوقا يبتدئ بهذه الجملة : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين رأيت أيضاً، إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به » .

وثاوفيلس هذا يقول عنه ابن البطريق إنه من عظماء الروم ، فيقول في ذلك : « وكتب لوقا إنجيله إلى رجل شريف من علماء الروم يقال له تاوفيلا .. وكتب إليه أيضاً الأبركسيس الذي هو أخبار التلاميذ » وهي الرسالة المسماة أعمال الرسل ، وهناك من يقول إن ثاوفيلس هذا كان مصرياً ، لا يونانيا ، فهو قد كتب للمصريين لا لليونان على هذا الرأي .

ويقول الدكتور بوست في تاريخه : « قد كتب هذا الإنجيل قبل خراب أورشليم وقبل الأعمال، ويرجح أنه كتب في قيصرية في فلسطين مدة أسر بولس سنة ٥٨ — ٦٠ من الميلاد غير أن البعض يظنون أنه كتب قبل ذلك » .

ومن هذا يفهم أن بوست يرجح أنه ألفه وبولس حي في الأسر ، ولكن يحقق العلامة لارون أنه حرر إنجيله بعد أن حرر مرقس إنجيله ، وذلك بعد موت بطرس، وبولس ، والواقع أن باب الخلاف في تاريخ تدوين هذا الإنجيل

أوسع من ذلك، فقد قال هورن : ألف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ .

ولا نترك هذا الإنجيل من غير أن نقول إن الباحثين قد اختلفوا فى شخصية كاتبه وفى صناعته ، وفى القوم الذين كتب لهم ، وفى تاريخ تأليفه ، ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه ، وإلا على أنه كتب باليونانية .

إنجيل يوحنا :

٣٣ — لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره فى نظر الباحث ، لأنه الإنجيل الذى تضمنت فقراته ذكراً صريحاً لألوهية المسيح ، فهذه الألوهية يعتبر هو نص إثباتها وركن الاستدلال فيها ، ولذلك كان لابد من العناية به ، إذ كان التثليث هو شعار المسيحية ، وهو موضع مخالفتها لديانات التوحيد ، وأساس التباين بين هذه الديانة وتلك الديانات .

يقول جمهور النصارى : إن كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحوارى بن زيدى الصياد الذى كان يحبه السيد المسيح ، حتى إنه استودعه والدته وهو فوق الصليب ، كما يعتقدون ، وقد نفى فى أيام الاضطهادات الأولى ، ثم عاد إلى افسس ، ولبث يبشر فيها ، حتى توفى شيخاً هرما .

هذه خلاصة ما جاء بكتاب مرشد الطالبين ، ولكن بجوار هؤلاء من محققى المسيحيين من أنكر أن يكون كاتب هذا الإنجيل هو يوحنا الحوارى ، بل كتبه يوحنا آخر لا يمت إلى الأول بصلة ، وإن ذلك الإنكار لم يكن من ثمرات هذه الأجيال ، بل ابتدأ فى القرن الثانى الميلادى ، فإن العلماء بالمسيحية فى آخر القرن الثانى الميلادى أنكروا نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحوارى وكان بين ظهرانيهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحوارى ولم يرد عليهم بأنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة ، ولو كانت صحيحة لعلم

بذلك حتما تلميذه بوليكارب ، ولأعلم هذا تلميذه أرينيوس ، ولأعلن هذا تلك النسبة عند ما شاع إنكارها .

ولقد قال استادلن فى العصور المتأخرة : « إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية ، ولقد كانت فرقة الوجين فى القرن الثانى تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند إلى يوحنا » .

ولقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية التى اشترك فى تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه : « أما إنجيل يوحنا فإنه لامرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض . وهما القديسان يوحنا ومتى ، وقد ادعى هذا الكاتب المزور فى متن الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه ، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ، ولو بأوهى رابطة ، ذلك الرجل الفلسفى ـ الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى ـ بالحوارى يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى » .

هذا قول بعض الباحثين من كتابهم ، ومن البدهى أن يعد المتعصبون ذلك القول خروجا على المسيحية ، ولذلك قال أحد هؤلاء المتعصبين ، وهو الدكتور بوست راداً على هؤلاء : « وقد أنكر بعض الكفار قانونية هذا الإنجيل ، لكراهتهم تعليمه الروحى ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح ، غير أن الشهادة بصحته كافيه ؛ فإن بطرس يشير إلى آية منه (٢ بط ١ : ١٤ قال يو ٢١ : ١٨) ، واغناطيوس وبوليكرس يقتطفان من روحه وفحواه . . وكذلك الرسالة إلى ديوكنيتس وباسيلوس وجوستينس الشهيد وتانيانس ، وهذه الشواهد

يرجع بنا زمانها إلى منتصف القرن الثانى ، وبناء على هذه الشهادات ، وعلى نفس كتابه الذى يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم بأنه من قلمه ، وإلا فكاتبه من المكر والغش على جانب عظيم ، وهذا الأمر يعسر تصديقه ، لأن الذى يقصد أن يغش العالم لا يكون روحيا ، ولا يتصل إلى علو وعمق الأفكار والصلات الموجودة فيه ، وإذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بونا عظيما ، حتى نضطر للحكم بأنه لم يكن منهم من كان قادراً على تأليف كهذا ، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه إلا يوحنا ، ويوحنا ذاته لا يستطيع تأليفه بدون إلهام من ربه » .

وإذا نظرنا إلى هذا القول نظرة فاحصة كاشفة نقسمه قسمين ، قسم يعلن به الكاتب شدة إيمانه وتعصبه لما يشتمل عليه هذا الكتاب وتقديسه ، وهو القسم الذى ذكره فى عجز قوله ، وهو أنه لا يستطيع أحد من الآباء ، بل لا يستطيعه أحد من الحواريين ، بل لا يستطيعه الكاتب نفسه إلا بإلهام من ربه ، ويلحق بهذه الجزء ما سبقه مما يماثله ، فإن من الخطأ أن يعد ذلك برهنة واحتجاجا ، فإنه ليس فيه أية محاولة لها .

أما القسم الثانى فهو ما يصح أن يعتبر محاولة للاستدلال وهو ما ذكر فى صدر قوله ، فإنه يقرر الاتفاق بين نص جاء فيه ، ونص جاء فى رسالة بطرس الثانية . فهو يقول : أن الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح الأول ونصها مع الفقرة التى قبلها : «١٣ ـ ولكنى أحسبه حقا مادمت فى هذا المسكن أن أنهضكم بالتذكرة ـ ١٤ ـ عالما أن خلع مسكنى قريب ، كما أعلن ربنا يسوع المسيح أيضاً » موافقة للفقرة الثامنة عشرة من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل يوحنا ، ونصها : الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك ، وتمشى حيث تشاء ، ولكن متى شخت فإنك تمد يدك ، وآخر يمنطقك ، ويحملك حيث لا تشاء » .

ونحن لا نجد موافقة بين الفقرتين لا فى اللفظ ولا فى المعنى ، واستولى علينا العجب من ادعاء الموافقة ، ولا جامع بينهما ، فظننا أن هناك خطأ فيما كتبه الدكتور بوست ، وقلنا لعله يريد الرسالة الأولى لا الرسالة الثانية ، فرجعنا إلى الفقرة الرابعة عشرة من الإصحاح الأول من الرسالة الأولى ، فوجدنا نصها هى وما قبلها هكذا : « لذلك منطقوا أحقاء ذهنكم صاحين فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التى يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة ، لا تشاكلوا شهواتكم السابقة فى جهالتكم » وهنا نجد بعضا من الموافقة فى اللفظ ، والموافقة فى المعنى ، فرجحنا أنه أراد هذه الرسالة ، وسبق قلمه فدون الثانية بدل الأولى . وعلى ذلك نناقش القول على أساسها .

وأساس المناقشة ما نعرفه من أن المتأخر إن وافق قوله من سبقه يكون قوله شهادة للسابق ، ولا يكون قول السابق شهادة له ، وأيهما أسبق تدوينا رسالة بطرس أم إنجيل يوحنا . قد اتفق مؤرخو النصرانية على أن بطرس قتله نيرون ؛ ويقول فى ذلك ابن البطريق « وأخذ نارون قيصر لبطرس فصلبه منكساً وقتله ، لأن بطرس قال له : إن أردت أن تصلبنى فاصلبنى منكساً لئلا أتشبه بسيدى المسيح ، فإنه صلب قائما » . .

وعاش بطرس بعد السيد المسيح اثنتين وثلاثين سنة ، فكأن بطرس قتل بعد ميلاد المسيح بنحو ٦٥ ، لأن المسيح صلب فى اعتقادهم ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، يضاف إليها اثنتان وثلاثون سنة عاشها بعده بطرس . ومن المؤكد أن إنجيل يوحنا كتب بعد ذلك ، فقد كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ على ما اعتمد الدكتور بوست ، فإذا وجدنا اتفاقا بين ما كتب فى هذا الإنجيل ، وما جاء فى رسالة بطرس يجب أن يكون كاتب هذا الإنجيل شاهداً لبطرس لا أن بطرس شاهد له ، وشهادة إنجيل يوحنا لا قيمة لها ، لأنها شهادة إنجيل فى نظر من أنكروه مجهول غير معروف يحتاج إلى دليل ، فلا حجة فى هذا الأمر ، وعلى

ذلك يكون الأمر فى غيره من الشهادات وظاهر أن كاتبة أخذ من رسالة بطرس ونسبه إلى يوحنا . وسنبين عند مناقشة كتبهم كثيراً من أوجه النقد فيها .

تاريخ تدوين هذا الإنجيل وسبب تدوينه

٣٤ — ولقد اختلف المسيحيون فى تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافا بينا فالدكتور بوست يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦ .

ويقول هورن فى تاريخ تدوين ذلك الإنجيل : ألف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد » إذن فليس هناك تاريخ محرر لتدوين هذا الإنجيل ، كما أنه ليس هناك بيان قد خلص من الشك بحقيقة كاتبه ، وقد علمت ما فى ذلك .

ولقد قالوا إنه كتب لغرض خاص ، وهو أن بعض الناس قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس بإله ، وأن كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة ، فطلب إلى يوحنا أن يكتب إنجيلا يتضمن بيان هذه الألوهية ، فكتب هذا الإنجيل . وقد قال جرجس زوين اللبنانى فيما ترجمه : « إن شيرينطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً ، وأنه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك فى سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح ، وينادى بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون ، وأن يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح » . وقال يوسف الدبس الخورى فى مقدمة تفسيره : (من تحفة الجيل) إن يوحنا صنف إنجيله فى آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها ، والسبب أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح ، فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متى ، ومرقس ، ولوقا فى أناجيلهم ، وقال صاحب مرشد الطالبين : « إنه لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التى فيها كتب يوحنا إنجيله ، فإن بعضهم يزعم أنه كتبه فى سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم ، وآخرون ممن يوجد فيهم بعض الأقدمين يروون بكتابته فى سنة ٩٨ ، وذلك بعد رجوعه من النفى ، فالمقصد

بكتابته إبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات التروى مما لم يذكره باقى الإنجيليين ، وإفناء لبعض هرطقات مفسدة ، أشهرها معلمون كذبة فى شأن ناسوت المسيح وموته ، وخاصة ترسيخ النصارى الأوائل فى الاعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديهم ومخلصهم . وقد قيل إن يوحنا لم يؤلف إنجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع التبعية لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك » .

ما يستنبط عن سبب كتابته

٣٥ ـ من هذه النقول يستفاد أن كتاب النصارى يجمعون أو يكادون على أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا كتب لإثبات ألوهية المسيح التى اختلفوا فى شأنها . لعدم وجود نص فى الأناجيل الثلاثة بعينها .

وهنا لا يسع القارىء لتلك النقول إلا أن يستنبط أمرين :

« أحدهما » صريح وهو أن الأناجيل الثلاثة الأولى ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح . أو هى كانت كذلك قبل تدوين الإنجيل الرابع على الأقل . وهذه حقيقة يجب تسجيلها ؛ وهى أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح .

« وثانيهما » . أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذى يدل عليها . ويصرح بها . ولما ارادوا أن يحتجوا على خصومهم ، ويدفعوا هرطقتهم فى زعمهم لم يجدوا مناصا من أن يلتمسوا دليلا ناطقاً يثبت ذلك ، فاتجهوا إلى يوحنا ، فكتب كما يقولون إنجيله الذى يشتمل على الحجة وبرهان القضية ، والبينة فيها على زعمهم .

وهذا ينبىء عن أن الاعتقاد بألوهية المسيح سابق لوجود نص فى الكتب عليه ، وإلا ما اضطروا اضطراراً إلى إنجيل جديد طلبوه ، افتقدوه ، فلما لم يجدوه طلبوا من يوحنا أن يكتبه .

ولكن الواقع أن رسائل الرسل التي كتبت في قولهم قبل هذا الإنجيل .. فيها ما ينبئ عن ألوهية المسيح . ويعلنها ، أفلم تكن فيها حجة لا تجعلهم في حاجة ماسة إلى إنجيل جديد . وفيها غناء من البيان يغنيهم عن سواه ، أم لعل تلك الرسائل المشتملة على هذه الألوهية كتبت بعد هذا الإنجيل ليؤيدوه بها . وليثبت ما أتى به . ويرسخ في نفوس المسيحيين . ثم نسبت إلى السابقين .

هذه الأناجيل، لم تنزل على عيسى، عليه السلام

هذا تنبيه مجمل اضطرنا سياق البحث لبيانه قبل أوانه ، وفي غير مكانه ، وله في البحث موضع ، لا يغني فيه الإجمال عن التفصيل .

٣٥ — هذه هي الأناجيل التي ذكرناها كما كتب النصارى ، لا كما يعتقد غيرهم ، وسنلقي عليها نظرة علمية بعد الكلام في بقية الكتب ، ولكن يجدر بنا هنا أن ننبه إلى أن هذه الأناجيل ليست نازلة على عيسى عليه السلام في نظرهم ، وليست منسوبة له . ولكنها منسوبة لبعض تلاميذه ، ومن ينتمي إليهم ، وهي تشتمل على أخبار المسيح وقصصه ، ومحاوراته ، وخطبه ، وابتدائه ونهايته في الدنيا كما يعتقدون هم .

إنجيل عيسى

ولكن هل هناك إنجيل غيرها يعد إنجيل عيسى ؟ وهل في كتابات الباحثين من النصارى ما يدل على ثبوت هذا الإنجيل ، وإن كنا لا نجده ؟ نجد في هذه الأناجيل عبارات تذكر كلمة إنجيل أو بشارة (وهي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية) مضافة أحياناً إلى المسيح على أنه ابن الله ، وأحياناً إلى الله ، وأحياناً إلى ملكوت الله ، فنرى مثلاً في إنجيل متى في الإصحاح الرابع منه ما نصه : « وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض ، وكل ضعف في الشعب » ، وبشارة الملكوت هي ترجمة كلمة إنجيل باليونانية .

ونرى في إنجيل مرقس في الإصحاح الأول منه : « وبعد ما أسلم يوحنا

جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول : « قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » .

وجاء في رسالة بولس إلى أهل رومية في الإصحاح الأول منها : « أولا أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم ، إن إيمانكم ينادى به في كل العالم ، فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم .. »

ويجيء في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس في إصحاحها التاسع : « بصرت الضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل ، لأكون شريكا فيه » .

ففي هذا كله نجد كلمة إنجيل أو كلمة بشارة ، وهي ترجمة كلمة إنجيل باليونانية» مضافة إلى ملكوت الله ، كما في إنجيل متى ومرقس ، وإنجيل الابن كما في رسالة بولس إلى أهل رومية ، وكلمة الإنجيل من غير إضافة كما في إنجيل مرقس ، ورسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى ، ولا شك أن الإنجيل المذكور في كل هذا ليس واحدا من هذه الأناجيل لأنها لا تضاف إلا إلى أصحابها باتفاق النصارى . ولأن المسيح قد وعظ بهذا الإنجيل ، كما جاء في عبارة متى التي نقلناها ، ولم يكن واحد من هذه الأناجيل قد وجد في عهده بالاتفاق ، وليس من المعقول أن يعظ بأقوال تلاميذه ، وهم بعد لا يزالون في دور التعلم ، ولأن هذا الإنجيل قد ذكر في هذه الأناجيل على أنه كان قائما في عهد عيسى ، ولأنه ذكر من غير نسبة كما في إنجيل مرقس ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ، وليس واحد من هذه الأربعة تنصرف إليه كلمة إنجيل من غير نسبته إلى صاحبه ، ولأنه ذكر في رسالة بولس إلى أهل رومية منسوبا إلى المسيح الابن في زعمهم ، وليس واحد من هذه الأناجيل يستحق هذا الاسم . لهذا كله نقول : ليس هذا الإنجيل واحداً منها كما تقضي بذلك طبيعة السياق ، وكما يقضي بذلك العقل ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهل لنا أن نفهم أن هناك إنجيلا أصيلا نزل على عيسى وكرز به على حد تعبيرهم ووعظ . ويعتبر الأصل لهذه الديانة ؟

أقوال علماء النصرانية في إنجيل عيسى

ولقد يمهد لذلك الرأى ، ويرشح له — أننا وجدنا من مؤرخى المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم فى بحثهم إلا العلم والحقائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت فى القرن الأول رسالة تعتبر أصلا لهذه الأناجيل فيها ما جاء به المسيح ، وخلاصة أحواله ، وهذا ترجمة ما قاله نارتن فى كتاب له : « قال اكهارن فى كتابه : إنه كان فى إبتداء الملة المسيحية فى بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هى الإنجيل الأصلى، والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم ، ولم يروا أحواله بأعينهم. وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب » .

إذن فهؤلاء الأحرار يقررون أنه كان هناك إنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب ، ولكنه غير موجود ، فهل لنا أن نقول إن ذلك الإنجيل هو المشار إليه فى أقوال متى ، ومرقس ، وبولس السابقة ، وهو الذى نزل على عيسى وهو إنجيله وإنجيل الله ؟ ليت ، وهل ينفع شيئاً ليت ، ليت هذا الإنجيل كان قائماً ، وحرصت الكنيسة على بقائه ، وقامت بحياطته ، ليكون فيصلا بين المختلفين ، وحكما بين الفرق والمفترقين ، وليكون قسطاس المجامع القديمة والحديثة التى حكمت حين الانشقاق ، وليكون مصدراً علمياً لمن يكتب فى المسيحية الأولى . ويتتبعها فى مدارجها فى أحقاب الزمن ، وملابسات التاريخ .

إنجيل برنابا

٣٦ — لقد كتبنا خلاصة مابينه المسيحيون فى أناجيلهم الأربعة ، واستنبطنا من نصوصها ما يدل على وجود إنجيل أصيل ، هى منه الفرع من الأصل ، على أن فى ذلك كلاماً قد طويناه إلى موضعه من القول ، وقد أيدنا فى استنباطنا بعض الأحرار المسيحيين ، واستنبطوا قريباً مما استنبطنا .

وقبل أن نغادر الكلام فى الأناجيل إلى الكلام فى الرسائل يجدر بنا أن نتكلم فى إنجيل جديد قد كشف عنه البحث العلمى ، وقد حمل من الأمارات

ما يدل على أنه فى نشأته يمتد إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحى ، وأبعد أغواره ، وهو يشبه الأناجيل القائمة فى أنه قصة المسيح من ولادته إلى اتهامه . ويحكى محاوراته ، ومناقشاته ، وخطبه ، ولكن الكنيسة لم تعترف به ، وأنكرته ، فليس معتبرا عند المسيحيين مصدراً دينيا ، ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية ، وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية ، والاهتمام ولم يمنعهم من ذلك إنكار الكنيسة له . وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا ، ومن الحق علينا أن ندرسه ، ونعرف رأى المسيحيين فيه ، وما يؤدى إليه النظر العلمى من غير افتيات عليهم ولا تهجم ، ومن غير أن نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على القوم فى دينهم .

برنابا :

٣٧ — جاء ذكر برنابا فى رسالة أعمال الرسل التى ينتسب تدوينها إلى لوقا . فقد جاء فى الإصحاح الرابع من تلك الرسالة : « ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ . وهو لاوى قبرصى الجنس ؛ إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ، ووضعها عند أرجل الرسل » .

وجاء فى الإصحاح التاسع عند الكلام عن إيمان شاول ـ وهو الذى اشتهر بعدئذ باسم بولس الرسول ـ أن برنابا هو الذى شهد له بالإيمان . وهذا هو نص ما جاء فيه « ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ . وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق وأنه كلمه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع » . ولقد ذكر ذلك السفر أيضاً أنه كانت ترسله الكنيسة للوعظ والهدايه .

وفى الاصحاح الحادى عشر ، فسمع الخبر عنهم فى آذان الكنيسة التى فى أورشليم ، فأرسلوا برنابا لكى يجتاز إلى أنطاكية . الذى لما أتى . ورأى نعمة

الله فرح ووعظ أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب . لأنه كان رجلا صالحا . وممتلئا من الروح القدس والإيمان . فانضم إلى الرب جمع غفير ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول . ولما وجده جاء به إلى أنطاكية ... » .

ويزعمون أن الروح القدس خاطبه واختصه بالخطاب . هو وبولس (شاول) من بين الأنبياء والمعلمين . فقد جاء الإصحاح الثالث عشر من رسالة الأعمال « وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون : برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ، ولوكيوس القيروانى . ومنابن الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع ، وشاول .

وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه ، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى ثم أطلقوهما ، فهذان ، إذ أرسلا من الروح القدس انحدرا إلى سلوكية ، ومن هناك سافرا فى البحر إلى قبرص . ولما سارا فى سلاميس ناديا بكلمة الله فى مجامع اليهود ، وكان معهما يوحنا خادما » وقد استمر برنابا وبولس متصاحبين فى التبشير بالديانة المسيحية فى قبرص . وحدثت على أيديهما المعجزات ، حتى زعم الناس أنهما إلهان . وجاء فيه عن بيان وقع الخبر عليهما : فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما ، واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين : أيها الرجال لماذا تفعلون هذا ؟ نحن بشر تحت آلام مثلكم ، نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، الذى فى الأجيال الماضية ترك جميع الأمم ، مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد » .

ومن هذا كله يتبين أن رسالة الأعمال تشهد أن برنابا كان من الرسل فى اعتقادهم ، الذين أخلصوا للدعوة إلى المسيحية ، حتى باع كل مايملك ، وألقى بثمنه بين أيدى الرسل يتصرفون به فى سبيل نشر الدعوة ، وينفقونه فى حاجات الجميع . وأنه هو الذى شهد لبولس بالإيمان ، وأن الكنيسة أرسلتهما مبشرين

بالمسيحية فى قبرص بعد أن أرسلت برنابا وحده إلى أنطاكية ، وأن برنابا كان رجلا صالحاً ممتلئاً من الروح ، وأن الروح القدس خصه بعناية من بين الرسل والمعلمين كما يعتقدون .

وينص بولس فى رسالته إلى أهل كولوسى فى إصحاحها الرابع على أن مرقس صاحب الإنجيل ابن أخت برنابا ، فيقول . « يسلم عليكم أرسترخس المأسور معى ، ومرقس ابن أخت برنابا الذى أخذتم لأجله وصايا إن أتى إليكم فاقبلوه »

ولقد كان مرقس هذا يصاحب خاله وبولس فى سفرهما للدعاية والوعظ .

ولقد افترقا بسبب إرادة برنابا أن يصحبهما ابن أخته فى الطواف فى المدن التى سبقت إليها الدعاية ، ومخالفة بولس لذلك ، ولذلك جاء فى رسالة الأعمال فى إصحاحها الخامس عشر مانصه : « ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا : لنرجع ونفتقد إخواننا فى كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب ، كيف هم ؟ فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضاً يوحنا الذى يدعى مرقس ، وأما بولس فكان يستحسن أن الذى فارقهما من بمفيلية ، ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما ، فحصل بينهما مشاجرة ، حتى فارق أحدهما الآخر ، وبرنابا أخذ مرقس وسافر فى البحر إلى قبرص ، وأما بولس فاختار سيلا ، وخرج مستودعا من الأخوة إلى نعمة الله » .

ولقد أشرنا إلى الصلة بين برنابا ومرقس صاحب الإنجيل عند الكلام فى إنجيل مرقس ، ونقلنا من كتب المسيحيين ماتدل على أن مرقس هذا ، وهو حجة عندهم باتفاق ، كان ينكر ألوهية المسيح ، هو وأستاذه بطرس ، وقد نقلنا عن مروج الأخبار فى تراجم الأبرار مايدل على ذلك .

هل برنابا من الحواريين الاثنى عشر

٣٨ — هذا هو برنابا . قديس من قديسى المسيحين باتفاقهم ، ورسول من رسلهم ، وركن من الأركان التى قامت عليها الدعاية المسيحية الأولى ، وقد وجد

إنجيل باسمه يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه، والتقرب منه، وملازمته فى سرائه وضرائه، ولكن كتب المسيحيين غير هذا الإنجيل لا تعده من هؤلاء الحواريين، وإن كانت تعده من الرسل الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح، ومهما يكن من شىء فى هذا الأمر، وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم، فإن برنابا حجة عند المسيحيين، وهو من الملهمين فى اعتقادهم، فإن صحت نسبة هذا الإنجيل إليه كان ما يشمله حجة عليهم، يدعوهم إلى أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم، ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصور والتصديق، وأصح سنداً، وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً :

فلندرس الآن أقدم نسخة عرفت فى العصر الحديث :

اتفق المؤرخون على أن أقدم نسخة عثروا عليها لهذا الإنجيل، نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا، وذلك فى سنة ١٧٠٩ وقد انتقلت النسخة مع بقية مكتبة ذلك المستشار فى سنة ١٧٣٨ إلى البلاط الملكى بفيينا. وكانت تلك النسخة هى الأصل لكل نسخ هذا الإنجيل فى اللغات التى ترجم إليها.

ولكن فى أوائل القرن الثامن عشر، أى فى زمن مقارب لظهور النسخة الإيطالية وجدت نسخة أسبانية ترجمها المستشرق سايل إلى اللغة الإنجليزية، ولكن لم يعلم من تلك النسخة وترجمتها إلا شذرات أشار إليها الدكتور هوايت فى إحدى الخطب، وقد قيل إن الذى ترجم النسخة الأسبانية إلى تلك اللغة مسلم نقلها من الايطالية إلى الأسبانية.

ولقد رجح المحققون أن النسخة الإيطالية هى الأصل للنسخة الأسبانية، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذى كشف النقاب عن النسخة الإيطالية التى كانت أصلا للنسخة الأسبانية راهب لاتينى اسمه فرامينو وأنه يقص قصصها، فيقول : « إنه عثر على رسائل لأيريانوس وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس

الرسول . ويستند تنديده إلى إنجيل برنابا ، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا . وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقربين إلى البابا سكتس الخامس ، فإنه عثر على ذلك الإنجيل فى مكتبة هذا البابا ، فأخفاه بين أردانه ، وطالعه ، فاعتنق الإسلام . ويظهر أن تلك النسخة هى نفس النسخة التى عثر عليها سنة ١٧٠٩ .

ويقول فى ذلك الدكتور سعادة مترجم الإنجيل إلى العربية : « وإذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر . وقد علمت مما مر بك بيانه أن نوع الورق الذى سطر فيه إنما هو ورق إيطالى يمكن تعيين أصله من الآثار المائية التى فيه ، والتى يمكن اتخاذها دليلا صادقا على تاريخ النسخة الإيطالية . والتاريخ الذى يحدسه العلماء من كل ما تقدم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وعليه فمن الممكن أن تكون النسخة الإيطالية هى عينها التى اختلسها فرامينو من مكتبة البابا على مامرت الإشارة إليه » .

الكلام فى صحة نسبة هذا الإنجيل

٣٩ — أقدم نسخة معروفة إذن هى النسخة الإيطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد إلى منتصف القرن الخامس عشر أو أول القرن السادس عشر ، وقد وجدت فى جو مسيحى خالص ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم .

فأول من عثر عليها فى خزانة كتبه رئيس دينى خطير . وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الأيدى انتقلت إلى مستشار مسيحى من مستشارى ملك بروسيا ، ثم آلت إلى البلاط الملكى بفينا . فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم ، وهى منسوبة لقديس من القديسين هو برنابا ولم يعرف بهذا الاسم سواه ، له مثل مكانته الدينية . ولقد كان وجود إنجيل له أمراً معروفاً بين العلماء بهذا الدين . فهذا فرامينو يقول إنه اطلع على رسالة لأريانوس يستنكر ما كتب بولس مستشهداً على استنكاره بإنجيل برنابا .

ويذكر التاريخ أن هناك أناجيل كثيرة حرمت قراءتها الكنيسة - كما أشرنا من قبل - ويقول الدكتور سعادة : يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى إنجيل برنابا . ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه إنما هو برمته تزوير » .

ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء العلماء . وإن كانوا محققين ، فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة . فإذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه ، وجرى على سنته من بعده أخلاف . وإذا صح ذلك الأمر . كما يشهد التاريخ . وكما تنبىء عنه المقدمات والنتائج ؛ فإن إنجيل برنابا كان معروفاً متداولا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم . بأكثر من قرنين .

وزعم الدكتور سعادة بأنه لو كان معروفاً فى ذلك الإبان لعرفه النبى صلى الله عليه وسلم واحتج به ، أو أخذ منه - زعم باطل - لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقم فى البلاد التى سادتها المسيحية آماداً تمكنه من المعرفة والاطلاع ، ولأن مضى قرنين من الزمان بعد التحريم يجعل التحريم ينتج أثره ، فيخفى ما كان ذائعاً ، ويدفن ما كان معلوماً مشهوراً ؛ فمائتان من السنين تكفى لطمس الموجود ، وتعفيه آثار المفقود .

وإن المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخباراً دقيقة عن التوراة حتى لقد يقول الدكتور سعادة : « إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد لها مثيلا بين طوائف النصارى إلا فى أفراد قليلين من الاخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين ، كالمفسرين ، حتى إنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا » .

ترجيح صدق النسبة فى هذا الإنجيل

٤٠ — هذه بينات شاهدة ـ وإن لم تبلغ مبلغ اليقين والجزم ـ بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا نسبة يرجح أن تكون صحيحة ، لأنه وجدت نسخته الأولى فى جو مسيحى خالص ، وكان معروفا قبل ذلك يقرون أن لبرنابا إنجيلا ، وهو يدل على أن كاتبه على إلمام تام بالتوراة التى لا يعرفها الرجل المسيحى غير الاختصاصى فى علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من المختصين ، وإن برنابا كان من الدعاة الأولين الذين عملوا فى الدعوة عملا لا يقل عن عمل بولس ، كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو إنجيل .

هذه بينات تشهد بأن الإنجيل الذى كشف وعرف صحيح النسبة ، ليس للمسلمين يد فيه ، وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل فى يده شيئا يظن فى حمله اتهاما له ، فيسند ملكيته إلى غيره نفياً للتهمة عن نفسه . فهل يقبل منه ذلك النفى من غير حجة ولا دليل سوى أن فيه اتهاما له ؟ وهل يقر القضاء ذلك النفى ؟

قد يقول قائل : إن هذه البينات كلها مرجحة وليست يقينية ، ونحن نقول إن أكثر مسائل التاريخ ترجيح ، وليست يقينية جازمة . فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الاحتمال فإنا نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ فى أكثر مسائل التاريخ ، والاحتمال الذى لا ينشأ عن دليل لا يلتفت إليه ، بجوار الاحتمال الناشىء عن دليل ، ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهرانى المسيحيين ، وفى مكاتبهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليست لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أنه ليس لهم يد فى إنشائه .

ولكن زعم بعضهم أن أصله عربى ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه ، ويبين تاريخ تدوينه ، ومقدار نسبته .

ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربى بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية ، وأنه صرح فى التبشير باسم النبى ، مع أن المعهود فى البشارات الرمز لا النص .

ونحن نرد الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخة يعرف العربية على ضعف فيها، لأنه مستقيم التعبير أحيانا قليلة، وسقيم العبارة فى أحيان كثيرة، ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامى، ولا يتخذ من صلبه الإيطالى دليلا على أصله المسيحى.

أما كون التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم صريحاً فيه وليس بتلميح، فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات فى الكتب الدينية تلميح، نعم بعضها رمز وتلميح، ولكن ليس معنى ذلك نفى التصريح، وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح، فالنص الإيطالى الذى بين أيدينا ترجمة لا نص، وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى، فلم يسعفه فى لغته التلميح، فنطق بالصريح كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى.

ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفا عند المسلمين فى غابرهم وحاضرهم، لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة فى كل العصور، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظرة المسيحى بهذا الإنجيل، مع أنه فيه الحجة الدامغة التى تفلج المسلم على المسيحى، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هى الأصل للنسخة الإيطالية، فوق أنها لا دليل عليها مطلقاً، ولو بطريق الوهم هى تناقض أخبار التاريخ الإسلامى مناقضة تامة، وإلا احتج المجادل عن الإسلام بها، ففيها أقوى دليل، والتاريخ لم يحفظ ذلك، وهذى سجلاته ليستبطنوها، وليعرفوا دخائلها، فلن يجدوا شيئا يمكن دعواهم ويثبت قضيتهم.

قيمة إنجيل برنابا من حيث ما اشتمل عليه

٤١ ـ وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير، وسمو التفكير، والحكمة الواسعة، والدقة البارعة، والعبارة المحكمة، والمعنى المنسجم، حتى إنه لو لم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمة من الدرجة الأولى، لسمو العبارة وبراعة التصوير.

ولماذا أنكره المسيحيون مع أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة فى

كتبهم الأربعة كما ذكرنا ، إن لم تكن أقوى؟ الجواب عن ذلك أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ورسائلهم في مسائل جوهرية في العقيدة .

ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد في مصادر الدين ، لتعرف أى الكتب أقرب نسبا بالمسيحية الأولى ، أذلك الإنجيل بما خالف أم الرسائل والأناجيل التي توارثتها ؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار ، كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل .

مخالفة إنجيل برنابا لما عليه المسيحيون

والأمور التي خالف ذلك الانجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص في أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلها ، وقد ذكر ذلك في مقدمته فقال : « أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم ، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائما ، مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضل في عدادهم أيضا بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته » .

ويقول في آخر الفصل الثالث والتسعين : « أجاب الكاهن إن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك حتى إنهم يجاهرون بأنك أنت الله ، فاضطررت بسبب الشعب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني والملك هيرودس فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك ، لأن فريقا يقول إنك الله ، وآخر يقول إنك ابن الله ، ويقول فريق إنك نبي . أجاب يسوع : «وأنت يا رئيس الكهنة ، لماذا لم تخمد الفتنة ، وهل جننت أنت أيضا ، وهل أمست النبوات ، وشريعة الله نسيا منسيا ، أيتها اليهودية الشقية التي ضللها الشيطان ، ولما قال يسوع هذا عاد فقال . إني أشهد أمام السماء . وأشهد كل ساكن على

الأرض أنى برىء من كل ما قال الناس عنى . من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة ، وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر . عرضة للشقاء العام » .

ويقول فى الفصل السبعين : « أجاب يسوع وما قولكم أنتم فى ؟ أجاب بطرس « إنك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع . وانتهره بغضب قائلا : إذهب . وانصرف عنى . لأنك أنت الشيطان . وتريد أن تسىء إلى » .

(الأمر الثانى) أن الذِّبح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو إسماعيل . وليس بإسحق ، كما هو مذكور فى التوراة . وكما يعتقد المسيحيون . وهذا نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم إنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا إبراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله . حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله : فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : « خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » . فكيف يكون إسحق البكر . وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين .

(الأمر الثالث) هو كما يقول الدكتور سعادة بك : أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد ، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول ، وقال إنه رسول الله ، وإن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا : « إن الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ، لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات ، أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً فى

التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به ، فصرح بما يعلن حقيقته ، ويبين ماله من شأن .

(الأمر الرابع) أن هذا الإنجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ، ولكن شبه لهم ، فألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطى ، ويقول فى ذلك برنابا : « الحق أقول إن صوت يهوذا ، ووجهه ، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع ، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع ، معتقدين أن يسوع كان نبياً كاذباً ، وإنما الآيات التى فعلها بصناعة السحر ، لأن يسوع قال إنه لايموت إلى وشك انقضاء العالم ، لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم » .

ثم يبين أن يسوع طلب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه ، فنزل ثلاثة أيام .

ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات » وقام قائلا : « أتحسبوننى أنا والله كاذبون ، لأن الله وهبنى أن أعيش ، حتى قبيل انقضاء العالم ، كما قد قلت لكم ، الحق أقول لكم إنى لم أمت ، بل يهوذا الخائن . احذروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل ، وفى العالم كله . . لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها » .

٤٢ ــ هذا هو إنجيل برنابا ، وما خالف فيه بقية الأناجيـــل من مسائل جوهرية ، وفى الحق إنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى امتازت بها فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث ، وبنوة المسيح وألوهيته ، وكان هذا شعارها الذى بها تعرف ، وعلامتها التى بها تتميز ، وقد خالف كل هذا ، وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى ثابتة ــ وهو ينسب إلى قديس من قديسيهم ــ فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحين وفى مكاتب من لايتهمون بالكيد للمسيحية ، ومن لايتهمون بأنهم

لايرجون لها وقاراً ـ رجة فكرية عنيفة ، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع ، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضاً باتاً ، مادام قد أتى بما لايعرفونه هم ، ولا يعدون أنفسهم بدراسته دراسة علمية ، ينتهون فيها إلى نقضه جملة ، أو قبوله جملة ، أو قبول بعضه ، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده ، ومتنها أقرب إلى العقل والفكر من متنه .

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته ، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم ، بل القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ، ومما هو مشهور عند المسلمين .

وإن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية ، أن تعنى الكنيسة بدراسته ، ونقضه ، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ماجاء فيه وما جاء فى رسائل بولس ، ليعرف القارىء والباحث أيهما أهدى سبيلا ، وأقرب إلى الحق ، وأوثق به اتصالا .

رسائل رسلهم

٤٣ — انتهينا فى كلامنا السابق إلى ذكر الأناجيل وعرضها ، كما يقول المسيحيون ، وكنا فى ذلك ناقلين. ولم نعن فى ذلك بالنقد ، فإن لذلك موضعه .

والآن ننتقل إلى القسم الثالث من مصادر المسيحية ، وهو رسائل رسلهم، ويسمونها ـ ماعدا رسالة أعمال الرسل ـ الأسفار التعليمية ، كما يسمون الأناجيل ورسالة أعمال الرسل الأسفار التاريخية ، لأن الأناجيل تعنى بشرح حياة السيد المسيح وحكاية أحواله، وبعض أقواله ومواعظه، أما الرسائل فإنها تعنى بالناحية التعليمية التى تبين بها الديانة .

عدد الرسائل وكاتبوها

والرسائل اثنتان وعشرون رسالة : الأولى ، وتسمى أعمال الرسل ، وتنسب إلى لوقا صاحب الإنجيل ، وأربع عشرة كتبها بولس ، وهى رسالة أهل رومية، وكورنثوس الأولى والثانية ، وغلاطية ، وأفسس ، وفيلبى ، وكولوسى ، وتسالونيكى الأولى والثانية، وتيموثاوس الأولى وتيموثاوس الثانية، وتيطس، وفيلمون والعبرانيين، ورسالة كتبها يعقوب، ورسالتان كتبهما بطرس؛ وثلاث رسائل كتبها يوحنا ، ورسالة كتبها يهوذا .

وهناك غير الاثنتين والعشرين رسالة أخرى يسمونها السفر النبوى ، وهى رؤيا يوحنا ، وهذه الرسالة فى منحاها ومنهجها تخالف الرسائل السابقة ، فبينما الرسائل السابقة وعظية وتعليمية فى جملتها، وتتعرض كثيراً لذكر بنوة المسيح ، وتخليصه للعالم من خطيئته ، تجد رسالة رؤيا يوحنا اللاهوتى ، تعنى ببيان ألوهية المسيح وسلطانه فى السماء، وعلمه بحال الكنيسة والقوامين على المسيحية من بعده، وهى تارة تصور الإله فى عليائه كشيخ أشيب يشبه المسيح متمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب ، وعيناه كلهب نار ، وفى يده سبعة كواكب ، وسيف ماض

ذو حدين يخرج من فيه (راجع الإصحاح الأول من الرؤيا) .

وتارة تصور المسيح خروفاً قائماً كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين. (راجع الإصحاح الخامس) .

وتبين أن الناس يعرضون أمام الإله والمسيح » ويخرون ساجدين ، ثم تصور الملائكة وأحوالهم وأعمالهم ، وهكذا .. » .

فهى رسالة تشرح سلطان المسيح فى الملكوت وتبين أحوال الملائكة وخضوعهم للمسيح ولله .

٤٤ — وهذه الرسائل تشرح المسيحية الحاضرة بأكثر من الأناجيل ، وقد كتبت جميعها باليونانية ، كما يقول مؤرخوهم ، وللباحثين كلام كثير فى شأن الرسائل ، وقوة سندها ، وقيمتها من حيث الاستدلال لهذا الدين، ولكنا نرجىء القول فى ذلك إلى الكلام فى نقد مصادر المسيحية نقداً علمياً، ونكتفى الآن بعرضها وذكرها ، محوطة بهالة من تقديسهم ، ومكلوءة بتقديرهم .

وقد ذكرنا موجزاً لتاريخ يوحنا ، وعرفنا القارىء به ، وهو صاحب الرؤيا ، وثلاث رسائل ، وبينا لوقا ، وهو صاحب رسالة أعمال الرسل ، فلنعرف الآن بكلمات موجزة القارىء ببطرس صاحب الرسالتين ، ويعقوب ، ويهوذا ، ولكل رسالة ، وبولس وله أربع عشرة كما ذكرنا .

موجز حياة بطرس

فبطرس من حوارى المسيح ، وكان اسمه الأصلى سمعان ، وكان صياد سمك وقد جال بعد المسيح للتبشير ، فذهب إلى أنطاكية وغيرها ، ثم ذهب إلى رومة سنة ٦٥ فقبض عليه وزج فى السجن . وحكم عليه بالموت صلباً فى زمن نيرون على مانوهنا . وقد طلب أن يصلبوه منكساً . حتى لا يتشبه بالمسيح.

وقد علمت أن صاحب مروج الأخبار فى تراجم الأبرار يخبر أن بطرس وتلميذه مرقس صاحب الإنجيل الذى كان يعبر عنه بابنه كلاهما كان ينكر ألوهية المسيح .

ترجمة يعقوب صاحب الرسالة

٤٥ — ويعقوب صاحب الرسالة هو يعقوب بن زبدى الصياد ، أخو يوحنا ،

وكان حوارياً كأخيه ، ويقولون : إنه أول أسقف لكرسى أورشليم ، ويقول صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية « كان لشهرته بالطهارة يعرف بيعقوب البار ، وقد اغتاظ منه رؤساء اليهود ، فحكموا عليه بالموت فى مجمعهم ، فمات رجماً سنة ٦٢ » وكان قد كتب رسالته سنة ٦١ م .

ترجمة يهوذا

٤٦ — وأما يهوذا ، وهو حوارى ، ويقولون إنه يدعى لباوس ، ولقب تداوس وهذا هو الاسم الذى ذكر فى إنجيل متى ، ولكن إنجيل برنابا يقرر أن يهوذا غير يهوذا الأسخريوطى الذى شهد على المسيح وخانه ، وغير تداوس ، ويقولون : إنه أخو يعقوب الصغير ، وعلى هذا يكون لزبدى الصياد ثلاثة من الحواريين ، ولكن متى لما ذكر يعقوب ويوحنا ذكر أمامهما أنهما ولدا زبدى الصياد ، ولم يذكر ذلك أمام تداوس !! وعلى أية حال فليهوذا هذا رسالة منسوبة إليه وقد قالوا إنه مات شهيداً ببلاد العجم .

ترجمة بولس

٤٧ — بولس : ولننتقل الآن إلى الكلام فى بولس والتعريف به ، وإن لبولس هذا لشأناً فى المسيحية ، فهى تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواه ، فرسائله هى التى شرحتها ؛ وقد كان بنشاطه الجم ، وتطوافه فى الأقاليم مشرقاً ومغرباً ، لا يستقر فى مكان على نية الإقامة فيه ، بل على قصد فى الرحيل إلى غيره ـ أشد دعاتها ، وقد تأثر المسيحيون خطاه ، وتعرفوا أخباره وأقواله ، ما دونه منها فى رسائله ، وما ألقاه فى الجموع وتناقلوه ، وإن لم يدونه هو ، وتأثروا أعماله فاحتذوا حذوه ، وسلكوا مسلكه ، واعتبروه القدوة الأولى ، فلا بد إذن من العناية بتاريخه ، لنتعرف أكانت منزلته فى المسيحية الأولى كمنزلته فى المسيحية الحاضرة ، حتى يصلح أن يكون حلقة الاتصال بينهما ، وناقل الأولى إلى أهل الثانية ، ولنتبين أنه صادق النقل ، حتى تكون الأولى والثانية شيئاً واحداً ، وليستا شيئين مختلفين .

وإنا فى حكاية بدئه ونهايته نعتمد على المصادر المسيحية وحدها ،

كسنتنا فيما أسلفنا من القول ، حتى لا نتزيد عليهم ، ولكى نعرض الرجل كما هو عندهم .

فى سفر أعمال الرسل تفصيل لحياة بولس ، وقد أخذت أعماله من ذلك السفر الشطر الأكبر . وقد جاء فيه أن مولده كان فى طرسوس ، وتربى فى أورشليم ، واسمه الأصلى شاول . وهذا نص الفقرة الثالثة من الإصحاح الثانى والعشرين حكاية عنه : « أنا رجل يهودى ولدت فى طرسوس كيليكة ، ولكن ربيت فى هذه المدينة (أورشليم) .

ولقد جاء أنه من الفريسيين الذين يقولون إن هناك قيامة يشاركون فيها ملك المسيح فى الدنيا . فقد جاء فى الإصحاح الثالث والعشرين : « ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون ، والآخرون فريسيون » صرح فى المجمع ، « أيها الرجال الإخوة ، أنا فريسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات . أنا أحاكم » .

ونجد كتاب المسيحية متفقين على أنه من اليهود ، ولكن جاء فى سفر أعمال الرسل أيضاً مايدل على أنه رومانى ، ففى آخر الإصحاح الثانى والعشرين منه مانصه : « فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف : أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً رومانياً غير مقضى عليه ، فإذ سمع قائد المائة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلا : انظر ماذا أنت مزمع أن تفعل ، لأن هذا الرجل رومانى. فجاء وقال له : قل لى أنت رومانى ؟ فقال نعم . فأجاب الأمير ، أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية ، فقال بولس : أما أنا فقد ولدت فيها . وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه ، واختشى الأمير لما علم أنه رومانى ، لأنه قيده » .

وهذان بلا ريب نصان متعارضان . لعل أرجحهما أنه يهودى ، لأنه ذكر أنه رومانى عندما رأى أن جسمه سيكوى بالسياط . فأعمل الحيلة ، عساه يجد

مخرجاً ، فادعى أنه رومانى لينجو جلده ، وقد تم له ما أراد بتلك الحيلة التى احتالها فى انتسابه . وأصر عليها عندما روجع فيها .

ولكن لو اتخذنا من قرائن الأحوال دليلا على كذب ادعائه الرومانية ، وأنه قالها خلاصاً واحتيالا لورد مثل ذلك عند ما قال إنه يهودى ، لأنه كان يخاطب جمعاً يهوديا عمل للقبض عليه .

ولقد صرح فى سفر الأعمال أنه قال : إنه قال إنه فريسى ليوقع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين ، فقد جاء فيه عند ذكر إقرارهم بأنه فريسى « ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والآخر فريسيون » الخ فهو ماصرح بهذا التصريح إلا ليوقع الفرقة بينهم ، وينجو من كيدهم بتدبير فريق منهم .

وقد تم له بعض ماأراد ، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد كما دلت على ذلك الفقرات التى ذكرت من بعد فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الأعمال . وإذن فلا نستطيع أن نستبين جنسه من هذا على وجه تطمئن إليه النفس .

٤٨ — ومهما يكن من أمر جنسه ، فقد كان بولس هذا فى صدر حياته من أشد أعداء المسيحية ، وأبلغهم كيداً لها ، وأكثرهم إمعانا فى أذى معتنقيها ، كما يدل على ذلك ماجاء فى سفر الأعمال فى مواضع كثيرة منه .

فنى الإصحاح الثامن منه : « وحدث فى ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التى فى أورشليم ، فتشتت الجميع فى كور اليهودية والسامرة ماعدا الرسل ، وحمل رجال أتقياء استفانوس ، وعملوا عليه مناحة عظيمة ، وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ، ويجر رجالا ونساء ، ويسلمهم إلى السجن » .

وجاء فى أول الإصحاح التاسع : « أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلا على تلاميذ الرب ، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً فى الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » .

ويجىء فى ذلك السفر أيضا اعترافه الصريح بذلك الماضى فى مواضع متعددة أيضا .

فمنها ماجاء فى الإصحاح الثانى والعشرين مخاطبا اليهود : « كنت غيوراً لله ، كما أنتم جميعكم اليوم ، واضطهدت هذا الطريق ، حتى الموت ، مقيداً ومسلما إلى السجون رجالا ونساء ، كما يشهد لى أيضاً رئيس الكهنة . وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للأخوة إلى دمشق ، ذهبت لآتى بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكى يعاقبوا » .

ولكن سفر الأعمال يقول إن ذلك الرجل الذى كاد للمسيحية هذا الكيد وآذى أهلها ذلك الإيذاء ، قد انتقل من الجبت والطاغوت إلى المسيحية فجأة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال ، ولا تمهيدات مهدت له .

فيقول فى الإصحاح التاسع : « فى ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق ، فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض ، وسمع صوتا قائلا له : شاول . شاول . لماذا تضطهدنى ؟ فقال من أنت ياسيد ؟ فقال أنا يسوع الذى أنت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس مناخس ، فقال وهو مرتعد متحير يارب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة ، فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل » .

دخل بولس أو شاول فى المسيحية ، وحاول أن يتصل بتلاميذ المسيح ، ولكنهم أوجسوا منه خيفة ، ولم يصدقوا إيمانه ، ولكن شهد له برنابا الذى حدثناك عنه بالإيمان ، وماحدث له فى الطريق .

فقد جاء فى الإصحاح التاسع أيضا من السفر المذكور : « ولما جاء شاول حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين ، فأخذه برنابا ، وأحضره إلى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب . وأنه كلمه ، وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع » .

ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة ، والحركة الدائبة فى الدعاية للمسيحية ، كما تدل على ذلك عبارات سفر الأعمال ، وقد اصطحب فى رحلاته

برنابا ، حتى اختلفا كما ذكرنا فى الكلام على برنابا — فلما اختلفا افترقا ، وهناك نجد حلقة مفقودة ، فلم يبين لنا سفر الأعمال على من تلقى مبادىء المسيحية التى أخذ يبشر بها ، والتى دونها فى رسائله أربع العشرة ، والتى يضيف إليها بعض الكتاب سفر الأعمال ، وينسبه إليه بدل نسبته إلى لوقا ؟ لم تبين لنا الكتب المسيحية على من تلقى مبادىء المسيحية ؟ ولعلهم يعتقدون أنه ليس فى حاجة إلى التلقى ، لأنه انتقل من مرتبة الكافر المناوىء إلى مرتبة الرسل فى المسيحية . وصار ملهما ينطق بالوحى فى اعتقادهم ، فلم يكن فى حاجة إلى التعلم والدراسة ، لأن الوحى كفاه مؤونة الدرس وتعبه .

لقد أخذ بولس فى التطواف فى الأقاليم ينشىء الكنائس ، ويقوم بالدعاية ويلقى الخطب ، وينشىء الرسائل ، حتى كانت رسائله هى الرسائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادىء فى الاعتقاد ، وبعض الشرائع العملية ، وقد قالوا إنه قتل فى اضطهادات نيرون سنة ٦٦ أو سنة ٦٧ على الخلاف فى ذلك .

صفات بولس

٤٩ — إن الذى يستخلص من أحوال وأقوال بولس التى دونت فى رسائله وأعماله وأقواله التى ذكرها سفر أعمال الرسل ، يتبين له أنه امتاز بثلاث صفات جعلته فى الذروة من الدعاة إلى المبادىء والعقائد :

الصفة الأولى أنه كان نشيطا دائم الحركة ذا قوى لا تكل ، وذا نفس لا تمل.

والصفة الثانية أنه كان ألمعياً شديد الذكاء بارع الحيلة ، قوى الفكر ، يدبر الأمور لما يريد بدهاء الألمعى ، وذكاء الأروعى ، يسدد السهام لغاياته ومآربه . فيصيبها .

الصفة الثالثة أنه كان شديد التأثير فى نفوس الجماهير ، قوى السيطرة على أهوائهم ، قديراً على انتزاع الثقة به ممن يتحدث إليه .

وبهذه الصفات الممتازة ، وبهذه القدرة البارعة استطاع أن يجعل نفسه محور الدعاة للمسيحية ، وقطبهم ، وأن يفرض ما ارتآه على المسيحيين ، فيعتنقوه ديناً ، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها ، وبهذه الصفات الباهرة استطاع

أن يحمل صديقه برنابا على أن يصدقه فى رؤيته المسيح ، واستطاع أن يحتل المنزلة الأولى بين التلاميذ، وقد كان بلاءهم ، وكيد الشيطان لهم ، وبهذه الصفات القوية استطاع أن يحملهم على نسيان ماضيه ، وأن يندمجوا فى شخصه حتى يصير هو كل شىء ، وهم لا يستطيعون رد قوله فى الجماهير ، وحتى لقد صارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه ، منسوبة إليه ، ولقد يعجب الذين درسوا الديانات، وعرفوا أحوال رجالها ، وأدوارهم . فيقولون : كيف ينتقل رجل من كفر بديانة إلى اعتقاد شديد بها طفرة ، من غير سابق تمهيد ! ولكن ذلك العجب يزول إن كان الانتقال مقصوراً على مجرد الانتقال من الكفر إلى الإيمان ، فإن لذلك نظائر وأشباها ، بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة فى الدين الذى كفر به ، وناوأه وعاداه ، فإن ذلك ليس له نظير وليس له مشابه ، ولم يعهد ذلك فى أنبياء ورسل قط، وهذه توراة اليهود وأسفار العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون كما رووها ، وكما قالوها ليذكروا لنا رسولا بعث من غير أن يكون فى حياته الأولى استعداد لتلقى الوحى ، وصفاء نفس يجعله أهلا للإلهام ؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته ، وإنه إذا لم يكن للرسالة إرهاصات قبل تلقيها ، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها ، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب فى عصره . وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده ، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآراءه وتعاليمه .

بيد أن العقل يخترق بنوره كل الحجب ، ويزيل بضوئه كل أصداف الظلم ، ولو قاوم فى سبيل ذلك براعة بولس وذكاءه ، ولذا وجد فى العصور المسيحية من كانوا يثيرون مناقشات قوية حول أقوال بولس منكرين لها مبطلين ، ونسارع فنقول مقالة القس عبد الأحد : « إن بولس يبجل ويعظم رجلا اسمه عيسى أميت ومات، وحيي فقط ، وأن خمس عشرة رسالة من كتب العهد الجديد

تحمل اسم الرسول المشار إليه ، فلا محل للحيرة إذا قلت إن المؤسس الحقيقى المسيحية الحاضرة هو بولس ، فإن شارل الشاب الطرسوسى من سبط بنيامين .

ومن مذهب الفريسيين وتلميذ أحد علماء الدهر عضو مجلس صانهدرين المدعو عمائيل . . . الذى كان يجتهد فى محو اسم عيسى وأتباعه من الأرض ، والذى رأى أخيراً عدوه الناصرى فى السماء لامعا داخل الأنوار وقت الظهر أمام دمشق ، اهتدى وسمى باسم بولس ، وهو الذى وضع أساس العيسوية » .

والقسم الأعظم من أعمال الرسل يبحث عن سياحات بولس الطويلة وجهوده ومتاعبه ، فهل هو صادق فى النقل عن المسيح ، والإخبار عنه ؟ للإجابة عن هذا السؤال موضعها عند الكلام فى الإلهام الذى نحلوه لرسلهم ، ونقد الكتب نقداً علمياً .

كتب العهد القديم والأناجيل والرسائل كتبت بالإلهام فى اعتقادهم

٥٠ — إلى هنا قد بينا الكتب، وذكرنا طرفا من حياة منشئيها ، وأحوالهم ومقدار الاختلاف فى نسبة الكتب إلى أصحابها ، وقبل أن ننتقل إلى نقد هذه الكتب نقداً علمياً فى متنها وإسنادها ، نقول : إن المسيحيين يقولون إن هذه الكتب كلها ، كتبت بالإلهام أى بالوحى عن طريق الإلهام ، وإنها لذلك لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا خلفها ، فهى حق وصدق ، لأنه موحى بها ، وسواء فى ذلك كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، سواء أكانت أناجيل أم رسائل تعليمية أم رسالة النبوة .

ولذا يقول مؤلفو موجز تاريخ الأمة القبطية فى شأن الكتاب المقدس : « الكتاب المقدس هو مجموع الأسفار التى كتبها رجال الله القديسيون بإلهام الروح القدس فى أوقات مختلفة ، وفيها أعلن الله مشيئته ووصاياه ، وما قطعه من المواعيد ، وما فرضه من المثوبة ، وما فيه إرشاد للناس وخيرهم وخلاصهم ، وما أتمه من عمل الفداء » وبمراجعة ما كتبه شراحهم وعلماؤهم نفهم أن الإلهام عندهم ، هو الإلهام فى المضمون الرئيسى ، ولذا يقول هورن : « إذا

تخيل إن الـكتب المقدسة أوحى بها من عند الله لا يراد أن كل الألفاظ والعبارات من إلهام الله ، بل يعلم من اختلاف محاورات المصنفين واختلاف بيانهم أنهم قد جوز لهم أن يكتبوا ، على حسب طباعهم وعاداتهم وفهومهم ، واستعمل علم الإلهام على طريقة استعمال العلوم الرسمية ، ولا يتخيل أنهم كانوا يلهمون في كل أمر يبينونه ، وفي كل حكم كانوا يحكمون به » .

إذن لم تـكن كل الـكتب المقدسة ملهمة من حيث أسلوب البيان ، ومن حيث التصرف في التعبير، ومن حيث كل ماتشتمل عليه من معان، بل موضع الإلهام فقط المعانى الرئيسية أو الرسمية، وبقية الأفـكار والمعانى على حسب الطبائع والأفهام والعادات .

نظرة فاحصة

٥١ — عرضنا على القارىء كلام القوم فى كتبهم ، وحاولنا أن نكون حاكين ولم نعلق عليها ولم ننقدها ، ولم ننبه إلى وهنها ، إلا إذا كان ذلك التنبيه قد سبق إليه علماؤهم ، والباحثون منهم ، ووجهوا هم النقد إليه ، أو كان الأمر من الوضوح بحيث يكون المرور عليه من غير تنبيه إلى موضع الضعف يجعل البحث غير متسق ، وبعيداً عن الانسجام الفكرى .

والآن نريد أن ننتقل من النظرة الحاكية المتغاضية إلى النظرة الفاحصة الكاشفة ، ولسنا نريد أن نحصى كل أوجه النقد التى وجهت ، فإن ذلك يحتاج بيانه إلى مجلدات ضخام لكثرتها ، وتعدد نواحيها ، وكثرة دواعيها ؛ ولكنا نكتفى بإيراد بعضها ، ونترك الباقى للاطلاع عليه فى مصادره المسيحية وغير المسيحية .

ما يجب أن يكون فى الكتاب الدينى من صفات ليكون حجة

لأجل أن يكون الكتاب الدينى حجة — يجب الأخذ به على أنه شريعة الله ودينه ، ومجموع أوامره ونواهيه ، ومصدر الاعتقاد ، وأساس الملة — يجب أن يتوافر فى هذا الكتاب أمور :

أحدها : أن يكون الرسول الذى نسب إليه قد علم صدقه بلا ريب ولا شك ، وأن يكون قد دعم ذلك الصدق بمعجزة ، أى بأمر خارق للعادة قد تحدى به المنكرين المكذبين ، وأن يشتهر أمر ذلك التحدى وهذا الإعجاز ، ويتوارثه الناس خلفاً عن سلف ، ويتواتر بينهم تواترا لا يكون للإنسان مجال لتكذيبه .

ثانيها : ألا يكون ذلك الكتاب متناقضاً مضطرباً يهدم بعضه بعضاً ، فلا تتعارض تعليماته ، ولا تتناقض أخباره ؛ بل يكون كل جزء منه متمما للآخر ،

ومكملا له ، لأن ما يكون عن الله لا يختلف ، ولا يفترق . ولا يتناقض ، بل إن العقلاء فى كتبهم يتحرون ألا يتناقض قولهم ، ولا يختلف تفكيرهم .

ثالثها : أن يدعى ذلك الرسول أنه أوحى إليه به ، ويدعم ذلك الادعاء بالبينات الثابتة ، وهى المعجزات التى بعث بها الرسول ، ودعا إلى كتابه على أساسها ، ويثبت ذلك الادعاء بالخبر المتواتر ، أو يثبت بالكتاب نفسه .

رابعها: أن تكون نسبة الكتاب إلى الرسول الذى نسب إليه ثابتة بالطريق القطعى ، بأن يثبت نسبة الكتاب إلى الرسول ، بحيث يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف ، جيلا بعد جيل من غير أى مظنة للانتحال .

وأساس ذلك التواتر أن يروى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ، حتى تصل إلى الرسول بحيث يسمع كل فرد من الجمع الراوى عن الجمع الذى سبقه ، والذى سبقه كذلك ، حتى يصل إلى الرسول الذى أسند إليه الكتاب، ونسب إليه ، ونزل به الوحى عليه .

تطبيق هذه الشروط على كتب النصارى

٥٢ — إن الكتب فى الدين هى أساسة ؛ فإن لم تكن مستوفية الشروط السابقة لم يكن الاطمئنان إلى صحتها كاملا ، وتطرق إليها الريب والظن من كل جانب ، وبذلك يتهدم الدين من أساسه ، ويؤتى من قواعده ، ولا يكون شيئاً مذكوراً فى الأديان ، بل يكون طائفة من أساطير الأولين اكتتبها طائفة من الناس، وادعوها ديناً ، ونسبوها لشخص معترف به ، لتروج عند العامة، وتدخل فى أوهامهم ، ويعتمدون على الزمان فى تمكينها فى نفوسهم وقلوبهم .

وهل الكتب المقدسة عند النصارى سواء أكانت من كتب العهد القديم أم العهد الجديد ، مستوفية هذه الشروط ، فتكون ملزمة للكافة ؟ .

لا يزعم النصارى أن هذه الكتب كتبها المسيح نفسه ، حتى ننظر فى قوة نسبتها إليه ، ولكن يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعوثون بها ،

يبشرون الناس بما فيها ، فنبحث هل هؤلاء رسل حقاً وصدقاً قد ثبتت رسالتهم، بدليل لامجال للريب فيه ؟

لقد قلنا إن الطريق لذلك أن يدعوا هم هذه الرسالة ويثبتوها بمعجزة يجريها الله على أيديهم ، ويتحدوا الناس ليدفعوهم إلى الإذعان أو ليسجلوا عليهم الكفر بعد أن يقوم الدليل عليهم .

إننا نبحث فى مراجعهم فلا نجد مرجعاً صحيحاً قرر أن هؤلاء قد ادعوا مثل هذه الرسالة ، ودعوا الناس إلى الإيمان بها ، ومعهم البرهان عليها ، والدليل القائم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

نعم قد نجد فى رسالة أعمال الرسل ذكراً لأخبار تلاميذ المسيح ، وأن روح القدس تجلى عليهم ، وأنهم كانوا يأتون بأمور خارقة للعادة ، وسماهم كاتب تلك الرسالة رسلا ، ففيها يذكر أن عدد الأصحاب بعد المسيح أحد عشر ، وهم بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ، وأندراوس ، وفيلبس ، وتوما ، وبرثولماس ، ومتى ، ويعقوب بن حلفى ، وسمعان الغيور ، ويهوذا أخو يعقوب ، وأن بطرس وقف وألقى فى وسط التلاميذ ــ الذين بلغوا نحو عشرين ومائة ــ خطبة وأنهم امتلئوا جميعا بروح القدس ، وتكلموا بألسنة غير ألسنتهم .

ثم يذكر أن بطرس شفى أعرج من عرجه ، ومات من كذب عليه ، بعد أن كشف كذبه واختلاسه ، هو وامرأته .

ذكر سفر الأعمال هذا وذكر عجائب أتى بها بولس فى زعمه فى آخر ذلك السفر أيضاً .

وكذلك نجد فى إنجيل لوقا أنه يذكر أن المسيح أرسل سبعين رجلا ليبشروا باسمه ، وأنهم عادوا يقولون له « يارب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك ، فقال لهم : رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء ، هأنذا أعطيكم سلطاناً

لتدوسوا الحيات والعقارب ، وكل قوة العدو ، فلا يضركم شيء ، ولكن لاتفرحوا بهذا لأن الأرواح تخضع لكم ، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت فى السموات » .

مناقشة ادعاء الإلهام فى سفر الأعمال

٥٣ — ونريد أن نناقش سفر أعمال الرسول وإنجيل لوقا فى هذا المقام لتعرف منه من هم هؤلاء الرسل ، لم يذكر سفر الأعمال أسماء العشرين والمائة الذين ملئوا من روح القدس ، نعم إنه ذكر أسماء الحواريين الأحد عشر ، وليس منهم من ينسب إليه كتب أو رسائل ، سوى متى وبطرس ، ويوحنا ، ويعقوب ويهوذا .

وقد علمت بعض ما فى نسبة إنجيل متى ويوحنا إليهما . وأما بطرس والباقون فلهم رسائل ، ولم يكن معترفا بصحتها هى ورسائل يوحنا إلى سنة ٣٦٤ حتى إن مجمع نيقية لم يعترف بصحة نسبتها إلى أصحابها . وقد كان سنة ٣٢٥ .

وإذا كان سفر الأعمال لم يذكر أسماء العشرين والمائة ، ولم يذكر كذلك إنجيل لوقا أسماء ، فكيف تؤمن برسالة رسل لم تعرف أسماؤهم ؟ نعم كانت تذكر بعد ذلك أسماء أشخاص ، ويوصفون بأنهم رسل ، ولكن لم يذكر أهم من العشرين والمائة ، أم ليسوا منهم ، ومن المؤكد أن بولس لم يكن فى العدد الذى ذكر فى الأعمال ، ولا فى العدد الذى ذكر فى إنجيل لوقا .

إذن لامقنع فيما جاء فى سفر الأعمال ، ولا فى إنجيل لوقا ، لأنه لم يذكر أسماء هؤلاء معينين بالاسم . ثم من هو مؤلف سفر الأعمال ؟ قالوا إنه لوقا صاحب الإنجيل . إذن فالمصدر هو لوقا فى الاثنين ، ولوقا قد بينا أنه طبيب وقيل إنه مصور ، أو هو طبيب مصور . فهل هو كان من تلاميذ المسيح أو كان من تلاميذ تلاميذه ؟ لم يثبت شىء من ذلك ، وكل ماثبت من صلته برجال المسيحية أنه كان من أصحاب أو تلاميذ بولس ، وإذن فروايته عن هؤلاء وعن المسيح ليست رواية من شاهد وعاين ؛ وعلى ذلك يكون السند غير متصل بين لوقا والمسيح ، أو تلاميذ المسيح .

الرسل غير معروفين

٥٤ — لم تعرف إذن حقيقة هؤلاء الرسل ، ومن هم بسند صحيح، فضلا عن أن يكون السند قطعيا ، وإذا كنا لا نعرف من هم ، فكيف نؤمن لهم بمعجزات؟ إن المصدر الذى ذكر المعجزات هو نفس المصدر الذى ذكر الرسل من غير أن يبين من هم ، وهو راو لم يعاين ولم يشاهد . وعلى ذلك يكون الكلام فى الإلهام ، وأنهم رسل ملهمون لم يثبت بسند يصح الاعتماد عليه ، والاطمئنان إليه ، وبناء عقيدة تشرق وتغرب على أساسه .

ولكنا لا نكاد ننتهى الى النتيجة حتى نجد من مجادلى القوم ، والمناظرين عنهم من يزعمون أن لوقا نفسه ، صاحب سفر الأعمال ، وصاحب الإنجيل كان من الرسل الملهمين فهو لا يحتاج الى سند ، لأن كل كلامه من الروح القدس الذى ملأه ، كما ملأ إخوانه الرسل، ولكن أين معجزته التى تثبت إلهامه حتى نصدق كل ما جاء فى كتابيه ، ويؤمن مؤمن (يحترم الإيمان) بكل ما اشتملا عليه ؟ لم يرد عندهم أى شىء يدل على الهام لوقا ، وأنه كان من العشرين والمائة الذين ألقى فيهم بطرس خطبته ، وامتلئوا بروح القدس فى زعمه ، ولم يكن من السبعين الذين أرسلهم المسيح (كما ذكر فى إنجيله) وأخضعوا الأرواح ، وأخبرهم أن أسماءهم كتبت فى السماء .

ولسنا فى ذلك إلا مطالبين بأن يثبتوا إلهام لوقا ، لنصدق بأخباره عن الرسل وأعمالهم وعن إلهامهم ، وامتلائهم بالروح القدس ، وإعجازهم . لا يوجد أمامنا أى دليل يثبتون به إلهام لوقا فيما كتب ، حتى كنا نصدقه فى كلامه عن الرسل الذين تجلى عليهم الروح القدس، وامتلئوا به ، وإن كنا لا نعرف أشخاصهم ، ولا شيئا عن أسمائهم وأعمالهم .

بل لقد وجدنا من كتاب القوم الباحثين من يصرح بأن لوقا لم يكن من الملهمين ، وأن إنجيله لم يكن الهاميا ، وبالأولى رسالته لم تكن بإلهام ، فقد قال من المحدثين واطسن فى المجلد الرابع من كتابه الإلهام ما ترجمته : « ان عدم

كون تحرير لوقا الهامياً يظهر مما كتب فى ديباجة إنجيله ونصها : إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المستيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين ، وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » .

ويمثل هذا القول من أن ما كتب لوقا ليس بإلهامى قال العلماء الأقدمون من المسيحيين ، فيقول أرينيوس « إن الأشياء تعلمها من بلغها إلينا » .

لوقا صاحب سفر الأعمال لم يكن ملهماً

٥٥ — لم يكن إذن لوقا ملهماً ، لأنه لا يوجد دليل يثبت إلهامه ، ولأن مقدمة إنجيله كمقدمة رسالته تدل على أنه لم يكن ملهما ، ولأن الثقات من العلماء الأقدمين والمحدثين يقررون أنه لم يكن ملهما فيما كتب ، بل كتب ما تعلم ، ولقن ، لا ما أوحى إليه به وألهم .

وإذا كانت رسالة الأعمال هى المصدر المثبت لإلهام الرسل وامتلائهم بالروح القدس، فيكون ذلك المصدر قد فقد صلاحيته للاعتماد عليه، لأنه لم يكن متصل السند بين لوقا والتلاميذ والمسيح ، ولأن لوقا لم يكن ملهما. وهذا كله على فرض صحة نسبة ما أسند إلى لوقا، وفى تلك الصحة كلام سنثبته فى موضعه من بحثنا إن شاء الله .

ليس عندنا إذن دليل نقلى عندهم يثبت رسالة من يسمونهم رسلا، ويثبت معهم أنهم كتبوا بالإلهام ، حتى يعتبر كلامهم وحيا أوحى به ، ويجب تصديقه وقبوله ، ولا نجد من الكتب ما يؤيد هذه الدعوى ويثبتها ، بل إن راجعنا هذه الكتابات لا نجد أن كتابها يدعون لأنفسهم أنهم رسل ، ما عدا رسائل بولس ولم يكن من تلاميذ المسيح الأحد عشر بالإجماع ، ولا من تلاميذه العشرين والمائة ، ولا من السبعين الذين ذكرهم لوقا .

وقد رأينا بطرس فى رسالتيه يقدمهما بأنه رسول يسوع المسيح . ولم يذكر لنفسه وصف الرسالة المطلقة عن الله. ولا نجد فى عباراتهم ما يدل على أنهم كتبوا

ما كتبوا بالإلهام ، إلا رسائل بولس ، فهو الذى يذكر فى رسائله أنه يتكلم عن الله ، وأحيانا يقول إنه يتكلم من نفسه .

وإذن فلنا أن نقول إن أصحاب هذه الكتب والرسائل لا يدعون لأنفسهم الرسالة والإلهام إلا بولس الذى كانت صلته بالمسيحية على ما علمتم ، وليس فى كتبها مايشهد له بالرسالة والإلهام ، بل الإيمان إلا سفر الأعمال ، وقد علمت قوة الاستدلال به ، والاعتماد عليه فى الاحتجاج والإثبات .

دعوى الإلهام ليست محل إجماع المسيحيين

٥٦ — وفى الحق إن دعوى إلهام الرسل فى كل ما كتبوا لم تكن محل إجماع من كتاب المسيحيين فى القديم والحديث ، فطائفة من علماء إنجلترا قالوا فى مؤلف كتبوه[1] إن الذين قالوا إن كل قول مندرج فى الكتب المقدسة إلهامى لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم بسهولة ، ثم قالوا : إن سألنا أحد على سبيل التحقيق أى جزء تعتبرون من العهد الجديد إلهامياً ، قلنا المسائل ، والأحكام ، والإخبار بالحوادث الآتية التى هى أصل الملة المسيحية ـ لا ينفك الإلهام عنها ، وأما الحالات الأخر فكان حفظ الحواريين كافياً لبيانها » .

وترى من هذا أن بعض العلماء لا يرون أن كل مافى كتب العهد الجديد إلهامى ، بل منه الإلهامى وغير الإلهامى .

نفى بعض المسيحيين الإلهام عنهم من كل الوجوه

ولكن هنالك من يقول : إنه يشك فى أصل الإلهام فيها ، فهذا عالم مسيحى يقال له ريس يقول ناقلا حاكياً بعض أقوال المتقدمين « إن الناس قد تكلموا فى كون الكتب المقدسة إلهامية ، وقالوا إنه يوجد فى أفعال مؤلفى هذه الكتب وأقوالهم أغلاط ، واختلافات ، فمثلا إذا قوبلت الآيات ١٩ ، ٢٠ من الإصحاح العاشر من متى ، و ١١ من الإصحاح الثالث عشر من إنجيل مرقس إذا قوبلت هذه الآيات بالآيات الست التى فى سفر الأعمال فى إصحاحه الثالث والعشرين يظهر ذلك الاختلاف جلياً ، وقيل أيضاً إن الحواريين ما كان يرى بعضهم

---

(١) اليسائى كلوبيديا برتنيكا .

بعضاً صاحب وحى ، كما يظهر هذا من مباحثهم فى محفل أورشليم ، ومن إلزام بولس لبطرس ، وقيل أيضاً إن المسيحيين القدماء ما كانوا يعتقدونهم منزهين عن الخطأ ، لأنهم فى بعض الأوقات تعرضوا له » .

ولقد قطع بعض العلماء بأن بعض هذه الكتب ليس من الإلهام فى شىء . فإنجيل متى على قول القدماء من المسيحيين ، وقول جمهور المتأخرين الذين قالوا إنه كتب باللسان العبرانى كما أسلفنا من القول ، قد قالوا إن أصله فقد ، وترجمته ليست بالإلهام .

ويقول استادلن وغيره إن إنجيل يوحنا ليس بإلهام ، وجميع رسائل يوحنا ليست بإلهام على رأى فرقة ألوجين ، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس ، ورسالة يهوذا ، ورسالة يعقوب ، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ، ورؤياه النبوى — كل ذلك عند الأكثرين ليس بإلهام ، وكان كذلك إلى سنة ٣٦٣ ميلادية » .

دعوى الإلهام باطلة ممن يدعيهم

٥٧ — ومهما يكن اختلافهم بالنسبة لكونها ملهمة كلها أو بعضها ، وطريق الإلهام ، فادعاء الإلهام على فرض اتفاقهم عليه ليس له من البينات ما يثبته ، ولا من الأدلة ما يقيم دعائمه ، ونحن نطالبهم بالدليل .

وكان يصح لنا أن نقف موقف المانع منعاً مجردا ، نطالبهم بالدليل حتى يقيموه ، ولكنا تتميما للبحث وتعريفاً للحقائق نثبت أن دعوى الإلهام باطلة من أساسها ، ليس لعدم إقامة الدليل عليها ، بل لأن البينات قائمة ضدها ، ذلك لأنها لو كانت بإلهام من الله كما يقولون لكانت صادقة فى كل ما أخبرت به ، وما وجد الباطل منفذاً ينفذ منه إليها ، ولم يكن ثمة محل لتكذيبها ، ولكانت متفقة غير مختلفة ، ولم تكن متضاربة بأى نوع من أنواع التضارب ، وذلك لوحدة من صدرت عنه ، لأنها جميعاً صادرة عن واحد ، وإن اختلف الناطقون بها ، ولكنا وجدنا بينها اختلافات من أوجه عدة ، ووجدنا فيها أخباراً تناقض ما علم فى التاريخ وكان مشهوراً فيه ، ولنذكر بعض هذه الأمور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر .

التضارب بين كتب العهد الجديد

(١) أول ما يلقاك من أوجه اختلاف الأناجيل فى الأمر الواحد الذى لا يقبل إلا حقيقة واحدة. اختلاف إنجيل متى عن إنجيل لوقا فى نسب المسيح فإن من يقابل بين نسب يوسف النجار متبنى المسيح فى الأناجيل يجد الاختلاف من ستة أوجه ذكرها الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه إظهار الحق فقال :

(١) فى متى أن يوسف بن يعقوب وفى لوقا أنه ابن هالى .

(٢) يعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود عليهم السلام ، ومن لوقا أنه من أولاد ناثان ابن داود .

(٣) يعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون ، ومن لوقا أنهم ليسوا بسلاطين ولا مشهورين غير داود وناثان .

(٤) يعلم من متى أن سلتائيل بن يكينيا ، ومن لوقا أن سلتائيل بن نيرى .

(٥) يعلم من متى أن اسم ابن زربابل أبيهود ، ومن لوقا أن اسمه ريسا .

والعجب أن أسماء بنى زربابل مكتوبة فى الباب الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام من كتب العهد القديم ، وليس فيها ابيهود ولا ريسا فكل منهما غلط .

(٦) من داود إلى المسيح عليهما السلام ستة وعشرون جيلا على ما بين متى ، وواحد وأربعون جيلا على ما ذكر لوقا » .

هذه أوجه اختلاف ستة فى نسب المسيح عليه السلام وهو نسب يوسف النجار الذى كان رجل مريم كما تذكر الأناجيل ، وهذا الاختلاف الذى يعترف به المسيحيون ، ولا يجدون مناصا من الإقرار به يدل على أمرين .

(أحدهما) أن أحد الإنجيلين لم يكن بإلهام بيقين ، إذا فرضنا أن أحدهما صادق والآخر كاذب ، فالكاذب لاشك لم يكن بإلهام . وإلا كان الإله الذى أوحى به كاذبا ، وذلك لا يليق بحسب بداهة العقل ، ولما كان الصحيح منهما غير متعين فالشك يرد على الاثنين ، حتى يثبت الصحيح ، ويقوم الدليل على صدقه دون الآخر

ومع هذا الشك لا يمكن الاعتقاد بأن ثمة إلهاماً ، لأن الشك إن اعترى الأصل زال الاعتقاد .

(ثانيهما) أن إنجيل متى لم يكن معروفا للوقا ، أى أنه لم يكن متدارساً معروفاً لدى العلماء فى المسيحية . مع أن تدوين إنجيل متى يسبق تدوين إنجيل لوقا بأكثر من عشرين سنة على ماعليه جمهورهم ، ولو كان لوقا يعرفه لراجعه ، ولما وقع فى الخطأ الذى وقع فيه ، أو على الأقل ما خالفه ، وإذا لم يكن معروفاً لدى علماء المسيحية ، وحوارييها ورسلها ، فلابد أنه لم يكن معروفا قط ، أو بعبارة أصرح ، ربما لم يكن موجوداً قط .

ولا مناص من هذا إلا أن نقول إن لوقا كان يعرفه ، واطلع على حديث النسب فيه ، وخالفه على بينة منه ، لأنه لم يصدقه ، وعلى ذلك لا يكون لوقا معترفا برسالة متى ، والإيحاء إليه ، وأن ما كتبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإلا ماخالفه مع علمه .

فخلاصة القول فى ذلك أن تلك المخالفة تنتج إحدى اثنتين إما ألا يكون إنجيل متى معروفا للرسول لوقا ، وذلك يقتضى ألا يكون موجوداً . وإما أن يكون موجوداً يعرفه لوقا ، ولكن لا يعترف به مصدراً صادق الرواية ، وإحدى القضيتين لازمة حتما ، ولكن لا يعترف المسيحيون بكلتيهما .

(ب) ونجد فى الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى أنه بعد مناقشة الفريسيين تقدمت إليه امرأة ، ابنتها مريضة بالجنون تطلب شفاءها ، ونص الخبر كما جاء فى ذلك الإصحاح : « ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف إلى نواحى صور وصيداء . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى ياسيدى ، يا ابن داود ، ابنتى مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا » . وتجىء هذه القصة فى الإصحاح الثامن من إنجيل مرقص بالنص الآتى : « ثم قام من هناك ،

ومضى إلى تخوم صور وصيداء ، ودخل بيتا ، وهو يريد ألا يعلم به أحد ، فلم يقدر أن يختفى لأن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به ، فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة أممية وفى جنسيتها فينيقية سورية » .

فى هذا النص يبين جنس المرأة بأنها فينيقية سورية . وأنها أممية ليست من اليهود ، وفى الأولى توصف بأنها كنعانية أى ليست فينيقية ، فأيهما الأحرى بالقبول ؟ لاشك أنه لا يمكن أن تكون الروايتان صادقتين معا ، بل لابد أن تكون إحداهما كاذبة وليست بإلهام من الله ، لأن الله لا يكذب ، وإذا كانت إحداهما ليست صادقة بيقين ، وكاذبة بيقين ولم يدر أيتهما الكاذبة المفتراة ، فالشك إذن ملازم الاثنتين لاينفصل عنهما ، حتى نتبين الصدق من الكذب ، ولاسبيل إلى ذلك ، ولا يمكن أن نثبت لأيهما إلهاماً مع هذا الشك الملازم الذى لاسبيل إلى إزالته .

(ح) وقد اختلف خبر القبض على المسيح لمحاكمته فى متى عن يوحنا ، ففى متى جاء فى ذلك بالاصحاح السادس والعشرين مانصه : « وفيما هو يتكلم ، وإذا يهوذا واحد من الأثنى عشر قد جاء ، ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا « الذى أقبله هو أمسكوه فللوقت تقدم إلى يسوع ، وقال السلام ياسيدى وقبله ، فقال يسوع ياصاحب لماذا جئت ؟ حينئذ تقدموا ، وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه» هذا مافى متى ، وجاء فى يوحنا فى هذا المقام مانصه : « فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤوساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح فخرج يسوع ، وهو عالم بكل مايأتى ، وقال لهم من تطلبون ؟ أجابوه يسوع الناصرى ، قال لهم أنا هو ، وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفا معهم ؟ فلما قال لهم إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض ، فسألهم أيضاً من تطلبون؟

فقالوا يسوع الناصرى ، أجاب يسوع قد قلت لكم : إنى أنا هو ، فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون ليتم القول الذى قاله : إن الذين أعطيتنى لم أهلك منهم أحداً » .

وترى هنا اختلافاً بيناً بين الروايتين ، فمتى يقول : إن يهوذا هو الذى أعلمهم بالمسيح بالعلامة التى اتفق معهم عليها ، وهى تقبيله ، ويوحنا يقول : إن المسيح هو الذى قدم نفسه وكفى يهوذا مئونة التعريف ، ولا شك أن ذلك الاختلاف البين فى رواية حادثة واحدة يجعل إحدى الروايتين كاذبة والثانية صادقة . والكاذبة ليست بإلهام ، فإحداهما ليست بإلهام ، ولا سبيل إلى معرفتها ، فيثبت الشك فى الروايتين .

وفى الحق أن من يراجع الأناجيل فى خبرها عن القبض على المسيح وحبسه ، ثم محاكمته وصلبه فى زعم النصارى . ثم قيامته من قبره يجد الاختلاف فى أخبارها اختلافا بينا ، ولو كان بعض هذا الاختلاف فى شهادة اثنين يشهدان فى درهم ماثبتت بشهادتهما دعوى ، ولا انتصر بها حق .

ولتراجع الأناجيل فى هذا المقام لتعرف مقدار الصحة فى خبرها ، ولتعرف مقدار مافى دعوى الإلهام لكاتبيها عند كتابتها من حق ، فلا شك أن ذلك الاختلاف الذى لايمكن التوفيق بين متناقضه يؤدى إلى أن تلك الأناجيل يأتيها الشك من كل جانب يأتيها من بين يديها ، ومن خلفها ، فلا يمكن أن تكون إلهاماً من حكيم حميد .

وإن ذلك الاختلاف . فيما أحاط بمسألة الصلب ، فوق أنه يفقد الثقة بالأناجيل هو أيضاً يجعل خبر الصلب عند القارىء الخالى الذهن الذى لم يكن فى ذهنه قبل القراءة ماينفيه أو يثبته موضع الشك الذى يرجح فيه الرد على القبول ، والتكذيب على التصديق .

(د) وفى موت يهوذا الذى خان المسيح على زعمهم اختلفت رواية متى عن رواية لوقا فى سفر أعمال الرسل . فمتى يقول : إنه خنق نفسه ومات ، كما

جاء فى الإصحاح السابع والعشرين .

ولوقا يقول فى سفر الأعمال : إنه خر على وجهه ، وانشق بطنه ، فانسكبت أحشاؤه كلها ومات .

ولا شك أن بين الروايتين اختلافاً ، لأن الموت بالخنق غير الموت بشق البطن ، ولا بد أن تكون إحداهما على الأقل كاذبة . ولكنها غير معلومة ، فيتطرق الشك إلى الأخرى فيردان معاً ، ولا يمكن أن تكونا بإلهام . أو لا يمكن مع ذلك الشك الإيمان بأن كلتيهما بإلهام .

(ﻫ) قد اشتمل بعض هذه الكتب على أخبار لو صحت لكانت معلومة مشهورة فى التاريخ يعرفها الخاص والعام ، ولدونتها كتب التاريخ على أنها حوادث مفردة عجيبة فى الدهر ، ولكن لم يرد لها ذكر فى التاريخ ، ولم يعرف الناس أمرها إلا من تلك الكتب .

هذا متى يقول عند صلب المسيح وقيامته : فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح ، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين . وأما قائد المائة والذين معه يحرسون يسوع فلما رأوا الزلزلة ، وما كان ، خافوا جداً ، وقالوا : حقاً كان هذا ابن الله» .

وهذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ العام الذى لم يشر إلى المسيح بكلمة ، ولو صحت أيضاً لآمن الرومان واليهود ، الصخور تتشقق ، والأرض تزلزل ، والأموات ينشرون ، ويسيرون على الأرض ، ويراهم الكثيرون ، ويبقى بعد ذلك مساغ لإنكار ، ولكن لم ترد أخبار بإيمان أحد من اليهود على أثر تلك البينات الباهرات .

ولقد جزم العلامة المسيحى نورتن بكذب هذه الحكاية ، وقال فى تكذيبها :

« هذه الحكاية كاذبة والغالب أن أمثال هذه الحكاية كانت رائجة فى اليهود بعد خراب أورشليم ، فلعل أحداً كتب هذه الحكاية فى حاشية النسخة العبرانية ، وأدخلها الكتاب فى المتن ، وهذا المتن فى يد المترجم فترجمها كما وجدها » .

ونقول : لعل كثيراً مما فى المتن أصله فى الحاشية ، ثم نقل خطأ فى المتن . وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدراً لاعتقاد جازم ، وإيمان بدين ، وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحوا شيه الدخيلة غير المعلومة من متنه الأصيل ، هو بإلهام من الله العلى القدير؟! ولكن فى العالم عقول تقبل ذلك .

بيد أنه من الإنصاف لهذه العقول أن نقول : إنهم يقيمون غواشى تمنع نورها أن يكشف عن موضع الضعف فيها فهى لاتقبله على نور وبينة ، وسلطان مبين .

التناقض بينها مبطل لادعاء الإلهام وبيان إنكارهم لبعضها ثم اعترافهم به

٥٧ — هذه بعض المتناقضات بين هذه الكتب بعضها مع بعض ، وبعض مناقضتها للعقل والمدون فى التاريخ ، وإنا نحيل القارىء فى هذا المقام إلى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمه الله الهندى ، فقد أتى بأكثر من مائة اختلاف بين هذه الكتب ، وجبه بها مناظريه ، فلم يحيروا جواباً ، ولم يستطيعوا خطاباً ، ولسنا نريد أن ننقلها برمتها منه . فليرجع القارىء إليه ، فسيجد الغريب .

وإذا كانت هذه الكتب متناقضة متضاربة يلحق الكذب كلها فى جملتها وأجزائها عند مناقشتها ، فهى إذن ليست بإلهام ، ويكفى هذا بطلاناً لدعاهم فى الإلهام .

وإن نسبة هذه الكتب إلى من نسبت إليهم على مافيها ، وعلى أنها فى ذاتها ليست حجة ، هى موضع شك كثير ، فإنه ليس لهم سند متصل يصل هذه الكتب فى أقدم العصور التى عرفت فيها ـ بالكاتبين لها ، فهى لم تعرف معرفة كاملة قبل مجمع نيقية الذى كان فى سنة ٣٢٥ ، ولم يجىء ذكر لها قبل ذلك إلا

على لسان أرينيوس سنة ٢٠٠ ، وكليمنس سنة ٢١٦ .

بل إن مجمع نيقية لم يعترف بكثير منها ، فإن ذلك المجمع لم يعترف بما يأتى :

(١) برسالة بولس إلى العبرانيين (٢) ورسالة بطرس الثانية (٣،٤) ورسالة يوحنا الثانية والثالثة (٥) ورسالة يعقوب (٦) ورسالة يهوذا (٧) ورؤيا يوحنا التى تسمى «الكتاب النبوى» ولم يحكم بصحة هذه الكتب إلا فى مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤.

انقطاع السند فى نسبتها لكاتبيها

فقبل سنة ٣٦٤ لم يعترف بصحة هذه الرسائل السبع، وقبل سنة ٣٢٥ لم تكن الكتب كلها معروفة أو مختصة بذلك التقديس. وآخر كتاب من هذه الكتب كتب فى القرن الأول ، فبين آخر كتبهم تدويناً فى زعمهم، ومعرفته والاعتراف به أكثر من خمس وعشرين سنة ومائتين لا راوى يرويها ، وقد وقع بهم من الأحداث فى هذه المدة مايذهب باللب ويضيع الرشد . وينسى المرء معه كل شيء وإن الكتب نفسها لم تسلم من الاضطهاد . فقد أصدر أحد أباطرة الروم سنة ٣٠٣ أمراً بهدم للكنائس ، وإحراق الكتب ، وعدم اجتماع المسيحيين لأداء عباداتهم ، فنفذ الولاة الأمر ، فهدموا الكنائس ، وحرقوا الكتب ، وأتوا على كل ما للمسيحيين من بيوت عبادة وكتب ، هدماً وتحريقاً ، ومن سبق إلى ظنهم أنه أخفى كتاباً عذبوه عذاباً شديدا ، حتى يعلنه فيحرق .

ومن قبل ومن بعد أنزلوا البلاء بعلمائهم ، فما تركوا عالماً منهم بالديانة إلا قتلوه ، وكان الولاة يتفننون فى طرق إبادة المسيحية من الوجود ، أبادوا العلماء حتى لايوجد من يرشد إليها ، ويتوارث العلم بها ، وأبادوا الكتب حتى لاتحفظ تلك الديانة فى الصدور أو السطور .

ولاشك أن ذلك الاضطهاد الذى دام إلى صدر القرن الرابع يجعل الكتب التى رويت قبل ذلك موضع شك فى نسبتها إلى قائليها ، حتى يقوم دليل على صحة تلك النسبة، ولم يقيموا أى دليل، لأن السند منقطع بينها وبين من تنسب إليهم، والحبل بينهم وبينها غير متصل بأوهى أنواع الاتصال ، لأن السند المتصل الذى

يطمئن معه القارىء لكتاب ، فيغلب على ظنه أنه صادق النسبة لمن نسب إليه، هو أن يروى ثقة عن ثقة مثله ، حتى يصل السند إلى من لقى المؤلف فيقول: سمعته منه ، أو تلقيته عنه ، أو قرأته عليه . كما ترى فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويكون كل راو من تلك السلسلة المتصلة حلقاتها عدلا ثقة ، ضابطاً حافظاً ، وإذا كان السند غير متصل بين ذيوع هذه الكتب واشتهارها ، وبين قائليها، فقد ذاعت بعد سنة ٣٦٤، ومن نسبت إليهم كتابتها كانوا فى وسط وآخر القرن الأول ؛ فالعقل يتشكك فى هذه النسبة ، ولا يثبت مع الشك كتاب يكون حجة لديانة .

هذه كتبهم ، اعتقدوا أنها كتبت بإلهام من كتابها ، ولم يقيموا أى دليل على دعوى الإلهام ، وبدراستها يتبين التناقض بينها ، مما يثبت أنها ليست بإلهام من الله ، وبدراسة تاريخها يثبت أنها منقطعة السند عمن نسبت إليهم .

موازنة قس بين أحاديث الرسول وكتبهم من حيث الرواية

٥٨ — ولقد جرؤ قس اسمه إبراهيم سعيد فى شرحه لإنجيل لوقا، فعقد موازنة بين روايته ، ورواية أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن الذى يطالع ديباجة بشارة لوقا يستعيد إلى ذاكرته ديباجة الأحاديث فى الإسلام، غير أنه إذا تشابهت الديباجتان فى بعض الأوجه ، فإن أوجه الخلاف تفوق بكثير أوجه الشبه ، فمن أوجه الشبه :

(أ) أن بشارة لوقا والأحاديث كلاهما ترجمة حياة ، وأقوال مؤسس لدين واسع الانتشار .

(ب) أن الذين كتبوها أخذوها عن أقوال مسلمة إليهم .

إلى هنا فقط تنتهى أوجه الشبه ، وتبتدىء زاوية الانفراج تتسع الى أن تختفى خطوطها مع رسوم الأبد .

(أ) فالأحاديث النبوية كتبها أناس أخذوها عن أناس آخرين ، وهؤلاء الآخرون أخذوها عن التابعين ، وهؤلاء أخذوها عن الصحابة ، والتبر متى تنقل بين الأيدى الكثيرة امتزج بكثير من التراب ، إن لم يتحول تراباً ، ولكن

لوقا أخذها عن شهود عيان ممن رأوا المسيح ، وخدموا إنجيله .

(ب) نقلت الأحاديث النبوية عن رواة ، وما آفة الأخبار إلا رواتها، لكن سيرة المسيح سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

(ج) كانت مهمة كتبة سيرة نبي الإسلام جمع الأحاديث وتكديسها، لكي يظفروا بأكبر عدد ممكن ، وكانت مهمة لوقا التمحيص العلمي ، إذ كان هو طبيباً عملياً ، علمياً دقيقاً .

بيان ما في كلامه من تزيد

٥٩ — هذا نص ما كتبه ذلك القس في الموازنة بين أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإنجيل لوقا ، ونحن نقره في أن أوجه الاختلاف تنفرج زاويتها ، حتى لا يتلاقى المتشابهان بعدها ، وإن شئت الحق الخالص من كل تمويه ، والصدق الخالي من كل تزوير فقل إنه لا تشابه بينهما ، وإنهما كخطين متوازيين لم يتلاقيا ؛ ولن يتلاقيا قط .

ولكن أذلك الاختلاف يعلي الأحاديث أم يعلي البشارة المنسوبة للوقا ؟ هنا نختلف مع القس ، فهو يزعم أن ذلك الاختلاف يعلي بشارة لوقا ، ويفقد الثقة بأحاديث الرسول ، وهو لكي يؤيد هذا الزعم يأتي بالمحاسن فيسميها مساوئ . ويعرض لما يوجب الثقة ، فيزعمه دليل نقيضها . وهو في هذا كمن يزعم قبح الشمس في نورها الرائع ، وضوئها الساطع ، وقبح القمر في صفائه . وانبلاجه في ظلمة الليل البهيم ، ثم يستعين في تقبيح المحاسن إلى التشبيهات والأخيلة والرموز . كشأن الموهين دائماً ، عندما يحاولون طمس المعقول ورد المقبول . ومعارضة ما تنتجه بدائه العقول ، والمنطق المستقيم .

يقول إن الأحاديث كتبها ناس عن ناس حتى يصلوا الى التابعين فالصحابة . وبشارة لوقا أخذها عن شهود عاينوا . ويرى أن رواية بشارة لوقا هي المثلى ، ورواية الأحاديث ليست المثلى . ويستدل على ذلك بأن التبر متى تنقل بين الأيدي امتزج بالتراب أو تحول إلى تراب . فأي دليل هذا ؟ ومن أي أبواب الأقيسة

المنطقية ، ومن أى أشكالها ؟ إن ذلك ليس من المنطق فى شىء ، ولا يمت إليه بنسب ، بل لا نستطيع أن نقول إن ذلك قياس خطابى ، لأن الأقيسة الخطابية ، وإن كانت ظنية لا تناقض العقل ، ولا تكذب على البدائه ، ولكنا مع ذلك نناقش ذلك الاستدلال .

إن أحاديث الرسول رويت بسند متصل ، وذلك عيبها فى زعم هذا الكاتب ، وبشارة لوقا لم ترو بسند متصل ، وذلك حسنها ، وإذا قال لك قائل : أين ما تثبت به أنه روى عن شهود عاينوا ، ومن هم هؤلاء الذين عاينوا وأخبروه؟ ولماذا لم يتولوا هم التدوين ، وهم أولى بذلك ، وكلامهم أحرى بالتصديق ؟ فلا جواب عنده بلا ريب .

فيأيتها العقول المستقيمة ، أى الخبرين أحرى بالقبول ، خبر من ذكر أنه روى عن فلان العدل المعروف بالصدق والتقوى ، وعينه ، وعدالته مشهورة . وصدقه معروف ، أم خبر من ذكر لك أنه روى عن عاين ولم يبين من هو ، ولم يخبر عنه ؟ فلم نعرف أهو ثقة مقبول الرواية أم هو غير ثقة كيهوذا الأسخريوطى؟ إن أقصى ما يقال هو أن لوقا نقل عن بولس ، لأنه كان رفيقاً له فى بعض أسفاره ، ولكن بولس نفسه لم يكن من تلاميذ المسيح الذين عاينوا وشاهدوا بل كان فى صدر حياته حربا عليهم وإلبا ، أذاقهم البلاء أكؤساً . والشر ألوانا ، فهو راو يحتاج إلى من يوثقه ، إن ادعى أن لوقا روى عنه ، وذلك ما لم يقله حضرة القس .

ولننتقل إلى مناقشة تشبيهه الذى ذكره دليلا : إن التبر إذا انتقل إلى أيد تستطيع صيانته وحياطته ـ تحفظه من التراب ، وتصونه من الاختلاط به وتميط عنه كل ما يخالط جوهره ، فيزداد بهذا الحفظ بريقا وصفاء ، إن أحاديث الرسول نقلها ثقات صانوها وحفظوها ، ولكن يظهر أن القس يأبى فى مناقشته

إلا أن يخالف كل معقول ، حتى يكون كل كلامه متفقا مع الباعث عليه والداعى إليه ، فيزعم أن التبر قد يتحول إلى تراب إذا تناقلته الأيدى .

فيأيها الناس ، ويأيها العرب والعجم . ويأيها الشرق ، ويأيها الغرب ، هل علمتم أن الذهب يتحول إلى تراب ، ولكن القس المرشد الرشيد يقول ذلك ، فصدقوه وكذبوا العقل والحس والمشاهدة .

ثم من الذى روى لنا تلك البشارة عن لوقا ؟ إن السند يجب أن يكون معروفا حتى لوقا ، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح ، إن بشارة لوقا كتبت كما يزعم النصارى فى العشرة السابعة بعد المسيح من غير أن يعينوا الزمن تعيينا دقيقا ، ولكن لم يرد فى التاريخ ، ولا على ألسنة الرؤساء والقسيسين ، أى ذكر لها إلى سنة ٢٠٠ ثم ذكرت الأناجيل الأربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٣٢٥ ، لم نعرف أهذه الأناجيل المدونة المسطورة الآن هى التى جاء ذكرها على لسان عالمين من علمائهم فى فترة من التاريخ قدرها خمس وعشرون سنة ومائة ، وهى فترة طويلة .

ولكن مع كل هذا يستحسن القس إبراهيم سعيد تلك الحال ، فقد زينت له فرآها الأمر الحسن الجدير بالثقة . ورأى غيرها الأمر القبيح الجدير بالرد . وهل نطالب ذا رمد أن يفتح عينيه فى ضوء الشمس ، أو نطالب من فقد حاسة الشم أن يدرك أريج الزهر ، وعرف الطيب ، أو نطالب من إيفت منه المشاعر أن يكون صادق الحس دقيق الشعور .

٦٠ — ولننتقل إلى الفرق الثانى الذى ذكره معليا لبشارته ، ومنزلا بأحاديث نبينا عليه السلام يقول : نقلت الأحاديث عن طريق رواة ، وما آفة الأخبار إلا رواتها ، أما سيرة المسيح فقد سجلها مؤرخون محققون للأمور المتيقنة عندهم .

هذا ما ذكره بنصه تقريبا ، وهو يبين أرجحية أخبار أناجيله عن سيرة

المسيح بأنها رواها التاريخ ، أما عن السنة فرواية رواة ، وآفة الأخبار رواتها ، ولا نريد مناقشة تلك الكلمة العامية التافهة « آفة الأخبار رواتها » فإنها لا تصلح مقدمة لدليل علمى ، ولو أن طالباً ممن تلقوا العلم علينا قالها لعركنا أذنه وأسررنا إليه أن رواة الأخبار الذين هم آفاتها إنما هم الكاذبون . أما الصادقون العادلون ، فليسوا آفاتها بل حماتها ، وإلا ما صحت شهادة ، ولا قبل القضاء بينات ، ولا ثبتت حقوق ، ولا أدين متهم ، ولا برىء برىء .

ثم يقول إن أناجيله سجلها مؤرخون محققون ، فكيف نسميهم ؟ أرواة رووا عن غيرهم ؟ إن كانوا كذلك ، فقد سجل على سيرته ما عده قبيحاً عند غيره ، وإن كانوا مؤرخين لم يتعرفوه بطريق الرواية ، بل بالنقش على الأحجار ، أو فيما استبطنته بطون الآثار ، فأى أثر هذا وجدوا تلك الأناجيل منقوشة عليه ، ومدونه فيه ، وأثبت التحقيق العلمى أنها ترجع إلى عصر المسيح ، وأنه هو الذى ألقاها ، أو أن تلاميذه دونوها عنه ؟

إن أخبار التاريخ تثبت بأحد أمرين إما بالرواة يروون ، أو بالآثار ينقبون فيها ، ويتعرفونها منها . لم تثبت الأناجيل بواحد من الأمرين ، فليست ثمة رواية لها ولا رواة ، وهم ينزهونها عن ذلك ، ولا آثار تنطق بها ، وتعلن خبرها فهى إذن يرفضها التاريخ ، ولا يمكن أن يسجلها مؤرخون محققون قط ، وإن التاريخ لا يعرف لها ذكرا إلا من مجمع نيقية أو بعده . فهى مسندة إلى ثمانية عشر وثلاثمائة اجتمعوا فى نيقية ، وليست محققة النسبة لغيرهم بل بعضها ليس محقق النسبة عندهم ، وبين هؤلاء وبين المسيح خمس وعشرون سنة وثلاثمائة ! ! ، وبعد هؤلاء المجتمعين تناقلها الرواة عنهم ، وإن أغضب ذلك حضرة القس . وإن ذلك المجمع لنا فيه كلام ، سنقوله فى موضعه .

٦١ — ولننتقل إلى مناقشة الفرق الثالث الذى ظنه رافعاً مؤرخيه إلى مرتبة

الثقة ، يقول : كانت مهمة كتبة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم الجمع ، ليظفروا بأكبر عدد من الأحاديث . أما مهمة لوقا ، فقد كانت التحقيق والتمحيص ،وهنا ترى القس أخذ يجد بعد الهزل ، ويقول بعد الهذر ، ولكنه إذ ابتدأ يجد قد كذب وأعظم الفرية على أحاديث نبينا ، وادعى على بشارة لوقا ما ليس فيها ، فأى تحقيق علمى فيها ، وأى تمحيص اشتملت عليه ؟ إنها لا تفترق عن غيرها من حيث اشتمالها على أمور غريبة ، وأشياء عجيبة ، ولم يبين لنا رأيه فيها ، بل كان قاصاً كل القصاص ، ولا يرفعها أنه كان طبيباً ، لأن نسبتها إليه موضع شك كبير ، ولم يتفق الكتاب على شخصه كما بينا ، ولم يتفقوا على أنه كان طبيباً ، بل منهم من قال إنه كان مصوراً ، وعلى ذلك تكون دعواه التمحيص فى بشارة لوقا لا يؤيدها ما دون فيها ، ولا تؤيدها نسبتها إلى لوقا .

ولننتقل بعد ذلك إلى رد افترائه ، وكذبه على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن المطلع على أخبار رواتها العدول ، وما كتب فى صحاحهم يتبين له أنهم ما كان همهم الجمع ، بل كان همهم التنقيب والبحث ، فإنهم ما كانوا يروون كل ما يتلقون بل يختارون الصادق مما يتلقون ، وإن الذى يرفضون كان أضعاف ما يقبلون وينقلون ، لأنهم كانوا يتحرون الصدق ليتميز الخبيث من الطيب . وإن الصحابة كانوا يتهمون من يكثر من الرواية خشية أن يخبر عن الرسول بغير ما رأى وشاهد ، فكيف يقول ذلك الرجل على غير علم ، أو محرفاً الكلم عن مواضعه . «إن رواة الأحاديث كان همهم الجمع» ، كلا إنهم كانوا ينقدون ما يروون ، ينقدون السند أولا ، فلا يقبلون إلا من الرواة الذين اشتهر صدقهم وضبطهم وفهمهم لما يحملون ويرون ، وينقدون متن الحديث : فيعرضونه على الكتاب وما اشتهر من السنة واستفاضت به الأخبار ، وما علم من هذا الدين بالضرورة : فإن لم يخالفها بعد أن روى بسند متصل مكون من عدول كان مقبولا ، وإلا كان مردودا .

ونريد أن نهمس فى أذن حضرة القس الرشيد بأن من أسباب ردهم لبعض الأحاديث ورفض نسبتها إلى الرسول عليه السلام — عدم موافقتها للعقل، فهل له أن يطبق ذلك النقد على أناجيله ورسائله ؟ إنا ننصح له أن يفعل، لأنا نريد له الهدى، لا الضلال، والرشد لا الغى، وهى نية نحتسبها عند الله.

نظر فى الوحى فى الإسلام والوحى فى المسيحية

٦٢ — نريد أن نختم مناقشتنا لذلك القسيس بمناقشة كلمة ذكرها : وهى التفرقة بين الوحى فى الإسلام والوحى فى المسيحية، فيقول عن الوحى فى الإسلام: « إن الوحى فى الإسلام هو التجرد عن كل شىء إنسانى، وتلاوة ما يسمونه اللوح المحفوظ، ولكن الوحى فى المسيحية يجمع بين العنصر البشرى والعنصر الإلهى، أى الالهامات الإلهية تتجسد فى لباس لغوى بشرى؛ لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ إليهم، فالكلمة المعلنة المكتوبة فى الأنجيل هى رمز لكلمة الله، الحى المعلن لنا حق الله.

من أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحى بالروح القدس لا يحرم على الموحى إليهم استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم ولا يرفع عن الكاتب مسئولية الاجتهاد، والتحقيق والتدقيق، هذا بخلاف الإعلانات المحتوى عليها كتاب الوحى التى لا تتدخل فيها مواهب الكاتب الطبيعية، بل هى من الله أولا وآخراً، كالنبوات المتفرقة فى كل أجزاء الكتاب المقدس، وسفر الرؤيا »

معنى الوحى

هذه كلمته. ونريد قبل أن نتعرف من تلك الكلمة معنى الوحى فى كتبهم أن نسارع إلى بيان وحى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى الإسلام فنقول: إن وحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قسمان : قسم يوحى به على أنه كلام الله تعالت كلماته، ولهذا يكون المعنى والتعبير لله جلت قدرته، وذلك كما فى القرآن الكريم الذى نزل به الروح الأمين.

القسم الثانى الأمور الشرعية التى كان يوحى الله بها إلى النبى صلى الله

عليه وسلم ليبينها للناس فالمعنى فيها بوحى من الله تعالى والعبارة فيها للنبى صلى الله عليه وسلم .

وإذن فكلامه عن الوحى فى الإسلام لم يكن صحيحا فى عمومه ، وكان عليه أن يتحرى قبل أن يكتب ، ولكنه لم يفعل .

ولننتقل إلى الوحى بالكتب عندهم ، وهذا ما نريد أن نأخذ العلم به منه ، وعساه يهدينا إلى ما نعرف به محض الحق المبين .

هو يقول إن كلمات الإنجيل ليست هى كلمات الروح القدس التى ألهمها رسلهم ، سواء فى ذلك كل كتبهم فالعبارة فيها للكاتب ، وليست للروح القدس الذى يلهم رسلهم بما يكتبون فيما يزعمون ، ثم تنقسم كتبهم بعد ذلك إلى قسمين : قسم هو وحى لا تدخل فيه المواهب الطبيعية بالتصرف فيه بأى نوع من أنواع التصرف ، وهو ما يسمى بالنبوات عندهم . والقسم الثانى تتصرف فيه مواهب الكاتب ، وفى هذا القسم لا يرفع عن الكاتب ما يوجبه عليه التحقيق والتدقيق والاجتهاد .

ونظرة فاحصة إلى هذا القول ترينا أن الإلهام قد أخذ يضؤل أمره ، وتتواضع دعواه ، خصوصاً بالنسبة للأناجيل ، لأنها ليست بكتب نبوة كالرؤيا ، ولم يتخللها كلام الله ، كما يفعل بولس فى رسائله ، إذ كان يزعم أحياناً أنه يتكلم عن الله ، وأحياناً يقول إنه يتكلم من عنده ، فالأناجيل ليست فيها إذن تلك النبوات ، وعلى ذلك يكون للمواهب الطبيعية البشرية دخل فى كتابتها ، ويتحملون تبعة الاجتهاد فيها والتدقيق والتمحيص ، ومن يتحمل تبعة عمل ينسب إليه . وعلى ذلك قد يتوارد الخطأ على اجتهادهم وتدقيقهم وتمحيصهم ، فيكون من أخبارهم ما صادف التحقيق فيه الصواب ، وما عرض له الخطأ ، وكيف تكون بعد ذلك بإلهام أو وحى ؟ وكيف تكون مقدسة لا يأتيها

الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ وإذن فقد أتوا على دعوى الإلهام بالنقض، فلا إلهام فى الأناجيل إذن .

هذه كلمتنا فى كتبهم تحرينا فيها أن نكتبها كما كتبها المسيحيون ، ونوجه من النقد ما وجهوا ، وذلك لكى ننصف القوم .

ولقد ألقينا عليها نظرة فاحصة لنوائم بين أخبارها المختلفة ، ونجمع بين الأقوال المتضاربة ، ونشير إلى حكم العقل المستقيم عليها ، أهى صالحة لأن تكون مصدر دين يتدين به ألوف الألوف من البشر وأهل العلم ، أم غير صالحة ؟

إن كتاب كل دين هو الأصل والدعامة والأساس ، فإذا كان غير صحيح السند ، أو غير مقبول لدى العقول كان ثبوت الدين فيه نظر ، بل إنه انهار ، وفقد أصله ، ولم يعد شيئاً فى الأديان مذكورا .

ولننتقل بعد ذلك إلى عقيدة المسيحين ، وبعض شرائعهم كما جاءت بها تلك الكتب التى علمت أمرها .

النصرانية كما هي عند النصارى وفى كتبهم

العقيدة :

٦٣ — جاء فى كتاب سوسنة سليمان ' لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى أن « عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى هى الإيمان بإله واحد آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل مايرى وما لا يرى ، وبرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ' مساو للأب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء والذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس ، وصلب عنا على عهد بيلاطس ، وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ؛ وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتى بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه والإيمان بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب ، الذى هو مع الابن يسجد له ، ويمجد ، الناطق بالأنبياء » .

هذا هو جوهر العقيدة ولبها الذى لا اختلاف فيه ، وفى هذا الكلام إبهام يحتاج إلى فضل بيان ، وإنا مستعينون فى توضيحه بما كتبوه هم ، حتى لا نتزيد عليهم بقول ، ولا نفرض عليهم فهمنا ، ولكى نكون صادقى الحكاية لكل أقوالهم من غير أى تحريف ، والذى يستفاد من هذا أن أساس العقيدة يقوم على ثلاثة عناصر :

العنصر الأول : التثليث والإيمان بثلاثة أقانيم .

والعنصر الثانى : صلب المسيح فداء عن الخليقة وقيامه من قبره ، ورفعه .
والعنصر الثالث : أنه يدين الأحياء والأموات . ولنتكلم عن كل واحد من هذه العناصر .

عقيدة التثليث :

٦٤ — قال الدكتور بوست فى تاريخ الكتاب المقدس . « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقاليم متساوية . الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن ، وإلى الابن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير » . .

ويفهم من هذا أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة ، ملازمة لذات الخالق .

التوراة والتثليث

وقد فسر هذا المعنى القس بوطر فى رسالة صغيرة ، سماها الأصول والفروع ، وإليك ماجاء فيها : « بعد ماخلق الله العالم ، وتوج خليقته بالانسان لبث حيناً من الدهر لا يعلن له سوى مايختص بوحدانيته ، كما يتبين ذلك من التوراة ، على أنه لا يزال المدقق ، يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية ، لأنك إذا قرأت فيها بإمعان تجد هذه العبارات :

« كلمة الله ، أو حكمة الله ، أو روح القدس » ولم يعلم من نزلت إليهم التوراة ماتكنه هذه الكلمات من المعانى ؛ لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذى قصد الله فيه إيضاحها على وجه الكمال والتفصيل ، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة فى ضوء الإنجيل يقف على المعنى المراد ؛ إذ يجدها تشير إلى أقانيم فى اللاهوت . . ثم لما جاء المسيح إلى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة فى الإنجيل أن له نسبة سرية أزلية إلى الله ، تفوق الإدراك ، ونراه مسمى فى أسفار اليهود « كلمة الله » وهى ذات العبارة المعلنة فى التوراة ، ثم لما صعد إلى السماء أرسل

روحاً ، ليسكن بين المؤمنين ، وقد تبين أن لهذا الروح أيضاً نسبة أزلية إلى الله فائقة ، كما للابن ، ويسمى الروح القدس ، وهو ذات العبارة المعلنة فى التوراة كما ذكرنا، ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله فى نصوص التوراة هما المسيح ، والروح القدس المذكوران فى الإنجيل ، فما لمحت إليه التوراة صرح به الإنجيل كل التصريح ، وإن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم ، وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه فى فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد ، ولا يفسر الروح بالقوة التأثيرية ، بل لابد له أن يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين فى الكمالات الإلهية ، وممتازين فى الاسم والعمل ، والكلمة والروح القدس اثنان منهم ، ويدعى الأقنوم الأول الآب ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها ، وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية ، ويمثل للأفهام محبته الفائقة ، وحكمته الرائعة ، ويدعى الأقنوم الثانى الكلمة ، لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية ، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس ، ويدعى أيضاً الابن ، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة ، والوحدة بينه وبين أبيه ، وطاعته الكاملة لمشيئته ، والتمييز بين نسبته هو إلى أبيه ، ونسبة كل الأشياء إليه ، ويدعى الأقنوم الثالث الروح القدس ، للدلالة على النسبة بينه وبين الآب والابن ، وعلى عمله فى تنوير أرواح البشر ، وحثهم على طاعته » .

الابن لايعنى به الولادة البشرية .

وبناء على ماتقدم يظهر جلياً أن عبارة الابن لا يشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية ، ولكنها تصف سرية فائقة بين أقنوم وآخر فى اللاهوت الواحد ، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة فى الذات ، والأمانة للمشورة الإلهية ، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزه عنها ، لأجل هذه الإيضاحات علم خدام

الدين المسيحى واللاهوتيون حسب ما قررته الكلمة الإلهية أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم ، حسب نص الكلمة الأزلية ، ولكل منهم عمل خاص فى البشر » اه . بنصه تقريباً .

ونجد كاتب هذا الكلام يحاول ثلاث محاولات :

أولاها : إثبات أن التوراة وجد فيها أصل التثليث ، لوحت به ولم تصرح ، وأشارت إليه ، ولم توضح .

وثانيها : أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم ، وهى فى شعبها متغايرة وإن كانت فى جوهرها غير متغايرة .

وثالثها : أن العلاقة بين الآب والابن ليست ولادة بشرية ، بل هى علاقة المحبة والاتحاد فى الجوهر .

ولقد كان بيان ذلك المعنى أوضح من هذا البيان فى قول القس إبراهيم سعيد فى تفسير بشارة لوقا ، فقد جاء فيه فى تفسير معنى كلمة ابن العلى التى جاءت فى إنجيل لوقا مانصه : « يليق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد « بابن العلى » أو « ابن الله » فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله ، وإلا لقيل ولد الله ، ولم يقصد بها مايقال عادة عن المؤمنين جميعاً إنهم أبناء الله ، لأن نسبة المسيح لله هى غير نسبة المؤمنين عامة لله ، ولم يقصد بها تفرقة فى المقام من حيث الكبر والصغر ولا الزمنية ولا فى الجوهر ، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التى بين المسيح والله ، وهى محبة متبادلة ، وما المحبة التى بين الآب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها ، وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذى حاز رضا الله ، وأطاع وصاياه ، فقبل الموت موت الصليب ، لذلك يقول الله فيه « هذا ابنى الحبيب الذى به سررت ، له اسمعوا » وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة

المسيح على الأرض لأنه تمم إرادة الله فى الفداء . ويراد بها إظهار التشابه والتماثل فى الذات ، وفى الصفات وفى الجوهر ، كما يكون بين الآب والابن الطبيعيين ، فقيل عن المسيح إنه بهاء مجد الله ، ورسم جوهره . وقال هو عن نفسه : من رآنى فقد رأى الآب ، أنا والآب واحد ، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شىء الذى منه وبه وله كل الأشياء ، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل » .

الثالوث أشخاص متغايرة ، وإن كان وجودها متلازما

٦٣ — وفى هذا التفسير ، والتفسير الذى سبقه يبدو بجلاء أن شخصية الابن غير الآب . وكذلك روح القدس ، ولكن هل يدخل فى الأقنوم الثانى جسده وروحه ؟ جاء فى كتاب خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر : « كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقوروس ، ومعها الكنائس الحبشية ، والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات وحدة مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح والقدس ، وأن الأقنوم الثانى أى أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، مصيرا هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة » .

وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بأن للأقنوم الثانى طبيعتين ومشيئتين » ومن هذا ترى أن الكنائس كلها تعتقد التثليث ، وهذا هو موضع اتفاق ، ولكن موضع الخلاف بينها هو العنصر الإلهى فى المسيح ، أهو الجسد الذى تكون من روح القدس ومن مريم العذراء الذى باختلاطه بالعنصر الإلهى صارا طبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، أم أن الأقنوم الثانى له طبيعتان ومشيئتان ؟

٦٤ — ومن هذا كله يفهم أنه المسيحيين على اختلافهم يعتقدون أن فى اللاهوت ثلاثة يعبدون وعباراتهم تفيد بمقتضاها أنهم متغايرون وإن اتحدوا فى الجوهر والقدم ، والصفات ، والتشابه بينهم كامل ، ولكن كتابهم يحاولون أن يجعلوهم جميعاً أقانيم لشىء واحد ، وبعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية ، ولكن عند هذه المحاولة تستغلق فكرة التثليث ، وتصير بعيدة عن التصور ، كما هى فى ذاتها مستحيلة التصديق ، وإن كتابهم أنفسهم يعتقدون أنها بعيدة التصور عند هـذه المحاولة ، لأن من أصعب الأشياء الجمع بين الوحدانية والتثليث .

فنرى صاحب رسالة الأصول والفروع بعد بيان عقيدة التثليث ، يقول : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل ، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض . وأما فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية » أى أن عقيدة التثليث لا يمكن أن تنكشف للنفس على وجهها إلا يوم تتجلى كل الأشياء لها يوم القيامة ، وذلك حق ، فإنهم لا يعلمون حقيقتها إلا يوم يحاسبهم الله عليها .

لماذا يحاولون الجمع بين الوحدانية والتثليث

ولماذا شغف النصارى بذكر التوحيد بجوار التثليث ، أو على الأقل يجتهد بعضهم فى بيان أنه لا منافاة بينهما ؟ لعل الذى يدفعهم إلى ذلك هو اعتبارهم التوراة كتابا مقدسا عندهم ؛ وهى تصرح بالتوحيد ، وتدعو إليه ، وتحث عليه ، وتنهى عن الشرك بكل شعبه ، وكل أحواله ، بل تدعو إلى البراءة من المشركين أينما كانوا ، وحيثما ثقفوا .

فهم يجتهدون أولا فى أن يستنبطوا من نصوصها ما يحملونه معى الإشارة إلى التثليث ، كعبارة « كلمة الله » أو عبارة « روح القدس » .

وثانياً : يحاولون أن يرجعوا التثليث إلى الوحدانية ، لتلتقى التوراة مع الإنجيل فيقربوا التوراة إليهم بتحميل عباراتها ما لا تحتمل ، ويقربوا عقائدهم

من التوراة يتضمين ثالوثهم معنى التوحيد ، وإن كان هو أيضاً لايحتمل ذلك ، ولعل ذلك تتميم للفلسفة الرومانية التى كانت تحاول الجميع بين مسيحية المسيح عليه السلام ، ووثنية الرومان ، وتوراة اليهود بما تحمل من وحدانية ظاهرة لاشية فيها ، إلا التجسيد ، أو ما يوهمه فى بعض عباراتها .

٦٧ — ولقد يجتهد كتاب المسيحية فى إثبات أن عقيدة التثليث وألوهية المسيح قد وردت بها كتبهم المقدسة ، ويسندونها إلى آياتها ، سواء أكانت من كتب العهد القديم ، أم من كتب العهد الجديد ، فيقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « أما الآيات الإلهية التى تثبت لاهوت المسيح فهى كثيرة جداً ، ولضيق المقام نكتفى باقتباس شىء يسير ، فمن أقواله تعالى بلسان أشعياء النبى « ها العذراء تحبل ، وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عمانوئيل (أى الله معنا) وقوله « كأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه : ويدعى اسمه عجيبا ، مشيرا إلها قديرا ، أبا أبدية رئيس السلام : أشعيا ٧ : ٩٤ و ٩ : ٦ —

وعند عماده وتجليه على الجبل شهد له الله من السماء بصوت مسموع قائلا « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » متى ٣ : ١٧ و١٧ ا ص ٥ .

ويشهد له يوحنا الرسول قائلا : فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله .. كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء ، والكلمة صار جسدا ، وحل بيننا ، ورأينا مجده مجدا ، كما للوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا ، يوحنا ١ : ١ و٣ و٤ .

وقال المسيح نفسه أنا والآب واحد ، يوحنا ١٠ : ٣٠ وقال له أحد تلاميذه : « ربى وإلهى يوحنا ٢٠ : ٢٨ وقبل منه السجود . ولم يوبخه على دعوته إلها ، ولما سأله رئيس الكهنة ، وقال له استحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ أجابه المسيح على الحلف « أنا هو » قابل متى ٢٦ : ٦٣ بمرقس ١٤ : ٦٢ ،

وحينما ركب بحر الجليل أظهر طبيعتي لاهوته وناسوته الكاملتين ، وذلك بينما كان نائماً هاجت الرياح ، واضطربت الأمواج ، فقام من النوم وأسكتها . فصار هدوء عظيم متى ٨ : ٢٤ — ٢٧ فبنومه أظهر ناسوته ، وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته » .

ويقول صاحب ذلك الكتاب في أقنوم روح القدس: « ومن حيث أقنومية الروح القدس فظاهر من كلمة الله ، لأن أشعياء يقول ولكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه ، فتحول لهم عدوا ، وهو حاربهم » أشعياء ٦ : ١٠ .

ويقول الرسول بولس : لاتحزنوا روح الله القدس . ، ومن المعلوم أنه إن كان الروح قوة ، أو صفة ، أو شيئاً من الأشياء غير العاقلة لا يمكن أن يحزن ، أو يفرح أبداً : فلابد أن يكون أقنوما .

ثم نقرأ في سفر الأعمال أن الروح قال للرسل : افرزوا إلى برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه . . » .

وهكذا يسترسل في أمثال هذا الاستدلال إلى أن يقول. «وقيل عن أعمال الله إنها أعمال الروح ، فالروح هو الذي خلق العالم ، ويجدد النفوس ، والمولود منا مولود من الله ، ويحيي أجسادنا الميتة ، وهو على كل شيء قدير . . » .

وفضلا عما ذكر نجد في الكتاب أن الحقوق والصفات الإلهية تنسب على سواء إلى كل من الآب والابن والروح القدس .

والكل منهم تقدم العبادة وهم متساوون ومتحدون ، كما نرى في دستورية المعمودية « عمدوا باسم الآب والابن وروح القدس متى ٢٨ : ١٩ ، والبركة الرسولية نعمة ربنا يسوع المسيح ، ومحبة وبركة الروح القدس مع جميعكم .

٦٨ — هذه هي استدلالاتهم من كتبهم لإثبات عقيدة التثليث، والإبراه عليها ، وإثبات سندها من تلك الكتب قد أطلنا في نقلها عنهم، واقتطعناها من عباراتهم بنصها ، ولم نتصرف فيها بأي نوع من أنواع التصرف في البيان خشية

التزيد عليهم ، وخشية أن يؤدى التصرف فى التعبير إلى التغيير فى الفكرة ، وترى أنهم لم يعتمدوا فى إثبات تلك العقيدة على أى دليل عقلى ، بل كل اعتمادهم على ماعندهم من نقل يحملونه من أثقال المعانى ما تنوء به العبارات ، ولا تحتمله أبعد الإشارات ، وإنهم إذا حاولوا أن يربطوا قضية التثليث بالعقل حاولوا جهد الطاقة أن يجعلوا العقل يستسيغها فى تصوره ، ويحسون أن العقل لا يكاد يستسيغ ذلك التصور ، وقد نقلنا لك من عباراتهم ما يفيد ذلك ، فارجع إليه .

وإذا كانت محاولاتهم تصوير القضية قد أجهدتهم ، وكلفتهم مالا يطيقون ، فكيف يستطيعون أن يجعلوا من بدائه العقل مايحمله على تصديق مايدعون والاقتناع بما يقولون لذلك لم يحاولوا أن يتجهوا إلى العقل لإثبات قضيتهم من بدهياته ، فإن ذلك ليس فى قدرة أحد ، إذ ليس فى قدرة أحد من البشر جمع النقيضين فى قرن ، والتوفيق بين الأضداد ، وقضيتهم والبدهيات العقلية نقيضان لا يجتمعان .

ونرى أن اعتمادهم على النقل لا يغنى من الحق شيئاً ، لأن شروط الإنتاج فى استدلالهم غير مستوفاة ، إذ ترى أن تلك العبارات التى عثروا عليها فى كتبهم لا تفيد على وجه القطع ما يريدون ، بل قد تفيد بأبعد أنواع الاحتمالات ، أو باحتمال قريب ، ومن المعلوم فى قواعد الاستدلال أن الاحتمال إذا دخل الاستدلال أبطله ، وكل أدلتهم ينفذ الاحتمال إليها من كل جانب . هذا وإن الاستدلال بكتبهم يفيد من يصدقها ، وهى ذاتها يعروها النقد العلمى فى سندها ، وفى متنها من كل ناحية ، فهى فى ذاتها فى حاجة إلى دفاع طويل لإثباتها ، وقد بينا ذلك كله فى موضعه من بحثنا .

صلب المسيح فداء عن الخليقة :

٦٩ — ولنترك الآن الحديث فى عقيدة التثليث ، ولكن يجب قبل تركها مؤقتاً أن نشير إلى أن التثليث لم يرد دفعة واحدة على المسيحية ، بل تورد عليها

شيئاً فشيئاً ، إلى أن أعلن نهائياً عند غالبيتهم فى نهاية القرن الرابع الميلادى . وسنبين ذلك كله فضل بيان فى تاريخ المجامع المسيحية ، وأسباب انعقادها ، وقراراتها ، ومداها فى موضعه من هذا البحث ، ولنتكلم الآن فى العنصر الثانى من عناصر العقيدة المسيحية ، وهى صلب المسيح فداء عن الخليقة ، وقد أشرنا إليها إجمالا من قبل .

يقولون فى هذا : إن الله من صفاته المحبة ، حتى لقد جاء فى الكتب المقدسة عندهم : « الله محبة » ومحبة الله ظهرت فى تدبيره طريق الخلاص للعالم ، لأن العالم من عهد سقوط آدم فى الخطيئة ، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا ، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة ، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد ، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم ، ليخلص العالم . وقد جاء فى إنجيل لوقا : « وإن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ، ويخلص ما قد هلك ، فبمحبته ورحمته قد صنع طريقا للخلاص ، لهذا كان المسيح هو الذى يكفر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى ، وبين عدله ورحمته ، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم ، ولكن باقتران العدل بالرحمة ، وبتوسيط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد ، وقد كان التكفير الذى قام به المسيح هو الصلب ؛ لهذا صلب ، ورضى الله عن صلبه وهو ابنه ، ودفن بعد الصلب ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره ، ويقولون إنه كان قد أنبأ بذلك قبل صلبه .

جاء فى إنجيل متى فى الفقرة التى بعد بيان الصلب « اجتمع رؤسا الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين : يا سيد ، قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حى : إنى بعد ثلاثة أيام أقوم ، فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث ؛ لئلا يأتى

تلاميذه ليلا ، ويسرقوه ، ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات فتكون ، الضلالة الأخيرة أشر من الأولى ، فقال لهم بيلاطس : عندكم حراس ، اذهبوا ، واضبطوه كما تعلمون ، فمضوا وضبطوا القبر بالحراس ، وختموا الحجر » .

وقد قام من القبر بعد ثلاثة أيام كما ذكرت أناجيلهم ، ولكنها اختلفت فى تفصيل القيام ، فمتى ذكر أنه ظهر فى الجليل ، ولوقا ذكر أنه ظهر فى أورشليم ، ويوحنا ذكر أنه ظهر فى اليهودية والجليل معا ، ومرقس بين أن ظهوره بين تلاميذه .

وقد ذكر القس إبراهيم سعيد توفيقا بين هذا الاختلاف فقال : « أجمع البشيرون الأربعة على تقدير هذه الحقيقة . ليس المسيح فى القبر ، لأنه قام كما قال ، لكن كلا منهم كتب عن القيامة وظهور المسيح للتلاميذ من وجهة نظره الخاصة ، متى كتب عن ظهور المسيح فى الجليل ، لأنه كتب عن المسيح الملك ، ولوقا كتب عن ظهوره فى أورشليم ، لأنه كتب عن المسيح مخلص جميع الأمم مبتدئا من أورشليم ، ويوحنا كتب عن ظهوره فى اليهودية والجليل ، لأنه كتب عن المسيح ابن الله الأبدى صخر الدهر ، ومرقس كتب عن ظهور المسيح للتلاميذ فى فترات متقطعة ، ليشدد عزائمهم للقيام بالخدمة التى تنتظرهم ، لأنه كتب عن المسيح الذى جاء ليخدم البشرية ، ويرفعها إلى مستوى الكمال . كل هذا لكى يوقع البشيرون الأربعة نغمة مشعبة متنوعة العناصر لأنشودة القيامة المجيدة ، فلئن تنوعت رواياتهم ، إلا أنها لا تتناقض » .

وهذا أشبه بالتعلات التى لا تناقش ، ولا تقوى أمام النظر المنطقى المستقيم ، ولكنها تقبل فى الخطابيات ، فهى كالزهرة ترى وتشم ، ولكن لا تعرك ؛ وذلك لأن هذا التوفيق يقوم على قضيتين :

إحداهما : أن كل إنجيل كتب لغرض معين لا يشمل فى عمومه ما كتب له الإنجيل الآخر .

وثانيهما : أن كلا ذكر المكان الذى يتفق مع غرضه ، وإذن فلا اختلاف فى الخبر .

وهذا الكلام فيه نظر فى مقدمته ونتيجته ، وذلك لأنه لو كان متى كتب يخبر عن المسيح الملك ، ولوقا عن المسيح المخلص ، وهكذا لكان كل إنجيل مغايراً للأناجيل الأخرى تمام المغايرة ، مبايناً له تمام المباينة ، لأنه يكتب فى موضوع يخالف ما يكتب فيه الآخر ، وإن كان الشخص واحداً ؛ كأن يكتب كاتب عن شخص بارز فى السياسة والقانون . فكاتب يكتب عنه سياسيا ، وآخر يكتب قانونيا . فالموضوع مختلف . وإن كان الشخص متحداً ، ولكننا لا نجد فى الأناجيل فى مجموعها ذلك التغاير ، وعلى فرض تسليم تلك القضية لا نستطيع أن نسلم القضية الثانية ، وهى أن الجليل يناسب المسيح الملك ، وأورشليم تناسب المسيح المخلص ، وهكذا . فلماذا اختصت هذه بالملك ، وتلك بالخلاص؟ إن ذلك التخصيص تحكم لا يعتمد على منطق ، وعلى فرض صحة المقدمتين ، فإن النتيجة لا تنبنى عليهما ، لأن النتيجة اختلاف ذكر الأمكنة فى حادثة معينة والشهادة بها ، فأحد الشهود يقول : إنه رآه فى الجليل ، وآخر يشهد بوجوده بين التلاميذ فى فترات متقطعة ، وثالث يشهد بوجوده فى أورشليم ، وإذا اختلف الشهود فى مكان حادثة معينة كان اختلافهم سبباً للظنة فى الشهادة واتهام الشهود فيها ، ولئن قيل : إن المسيح ظهر فى كل الأمكنة التى ذكرت ، بيد أن كلا ذكر ما رأى . ولم يكن رآه فيها جميعاً كان الكلام مستقيما ، ولكن يكون معناه أن كل إنجيل لم يذكر حال المسيح كاملة ، ويحتمل أن يكون الجميع لم يذكروها كاملة على هذا الأساس ، ويكونوا قد نسوا حظاً مما ذكروا به .

المسيح يدين ويحاسب :

٧٠ — لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التي يعتقدها المسيحيون إلا أربعين يوماً ، ثم ارتفع بعدها إلى السماء وجلس بجوار الآب فى زعمهم ، وسيأتى ليدين الناس يوم القيامة ، يحاسب كل إنسان على ما فعل وقال ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وله بهذا الملك الأيدى ، فلا فناء لملكه ، فهم يقولون : إن الله قد أقام يوماً سيدين فيه سكان هذه الأرض بيسوع المسيح ، لأن الآب فى زعمهم لا يدين أحدا ، بل قد أعطى ذلك للابن ، فأعطاه سلطان أن يدين الإنسان ؛ لأنه ابن الإنسان أيضاً ، ولا بد أن يظهر الناس جميعاً أمام كرسى المسيح ، لينال كل واحد جزاء ما كان قد صنع ، خيراً أو شراً ، هذه عقيدتهم .

فقد جاء فى إنجيل يوحنا : « الحق أقول لكم ، إنه تأتى ساعة ، وهى الآن ، حين يسمع الأموات صوت ابن الله ، والسامعون يحيون ، لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته ، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة فى ذاته ، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً ، لأنه ابن الإنسان ، لا تعجبوا من هذا ، فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة ، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً ، كما أسمع أدين ، ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى » راجع الإصحاح الخامس .

وجاء فى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس : « لا بد أننا جميعاً نظهر أمام كرسى المسيح ، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد ، بحسب ما صنع ، خيراً كان أم شراً » ، (راجع الإصحاح الخامس من هذه الرسالة) .

وجاء فى رسالة بولس إلى أهل تسالونيكى « إن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً ، وإياكم الذين تتضايقون ـ راحة معنا ، عند استعلان الرب يسوع مع ملائكة قوته ، فى نار لهيب معطياً نقمته للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون

إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدى من وجه الرب ، ومن مجد قوته . متى جاء ليتمجد فى قديسيه ، ويتعجب منه فى جميع المؤمنين » .

فهذه النصوص جميعها تبين بجلاء أن الذى سيحاسب الناس ، ويجازيهم بما فعلوا ، الخير بمثله والشر كذلك إنما هو المسيح فى نظرهم .

تقديس الصليب :

مقام الصليب فى المسيحية

٧١ — لا يرتفع تقديس الصليب إلى مرتبة العقائد السابقة ، لأن تلك العقائد أساس المسيحية ، أما الصليب فليس له ذلك الحظ ، وإن كان شعارهم ، وموضع تقديس الأكثرين ، ولذا كان حمله علامة على اتباع المسيح .

جاء فى إنجيل لوقا : « وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى » .

وحمل الصليب كما يقول كتابهم إشعار بإنكار النفس ، واقتفاء أثر المسيح فى هذا الإنكار ، والسير وراء مخلصهم ، وفاديهم .

جاء فى شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد : « إن آثار قدمى المعلم تعين طريق خطوات التلاميذ لأنه وإن كان المسيح قد صلب عنا فقال فى صلبه : « قد أكمل » لكننا قد أصبحنا بحكم صلبه عنا تحت التزام شرعى لأن نكون شركاء المسيح المتألم ، إن شركتنا الشرعية مع المسيح المصلوب ينبغى أن ترافقها وتدعمها شركة اختيارية فعلية معه ، إن صلب المسيح معناه مات عنا ، ولكن صليب كل مؤمن معناه : « موت النفس عن الأنانية وحب الذات . وخلاصة هذه الذات هى النفس الأمارة بالسوء ، هى تلك الإرادة المتمردة التى ينبغى أن نخضعها ، ونستأسرها لطاعة المسيح ، فنقول كل واحد ليس ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت يارب » إنه من أوجب واجبات كل مسيحى أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً ، لأن التعبير بحمل صليبه مستعار من العادة التى قضت بها الانظمة

الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم ، وهذه العبارة انفرد لوقا بذكرها ، فهو صليب يتجدد كل يوم ، كلما تجددت الآمال والآلام فى الحياة اليومية العملية ، فلا بد إذن لحمل الصليب من خطوة تسبقه ، وخطوة تعقبه ، أما الخطوة السابقة له فهى إنكار النفس ، بمعنى أن يقول تلميذ المسيح لنفسه الأمارة بالسوء « لا لأن حمل الصليب هو حمل العار مضافا إلى ألم الموت » وهذا عمل يستلزم إنكار النفس ، لأن الرومان لم ينفروا من الصليب فقط ، بل فزعوا من ظله . كذلك كان شعور اليهود بأن حمل الصليب هو حمل اللعنة ، لأنه مكتوب فى ناموسهم « ملعون كل من علق خشبة » والخطوة اللاحقة لحمل الصليب بل الخطوات هى اقتفاء آثار المسيح كقوله « ويتبعنى » إذن ليس حمل صليبنا غاية ، لكنه وسيلة لهذه الغاية ، وهى اتباع المسيح حيث « يمضى » اهـ .

فحمل الصليب إذن عندهم ليس غاية . وليس مقصودا لذاته . ولكنه مقصود لغاية أخرى أسمى عندهم ، وهى اقتفاء خطوات المسيح فى إنكار الذات ، والرضا بالفداء فى زعمهم واتباع تعاليمه .

عبادتهم :

٧٢ — عند النصارى عبادتان : هما الصلاة ، والصوم ، أما الصوم فإنهم يقولون إن شرعه عليهم اختيارى لا إجبارى ، وميقاته قد تتخالف فيه الفرق ، فلنتركه إلى الكلام فى الفرق والكنائس إن كان للقول متسع ، ولنتكلم الآن فى صلاتهم .

والصلاة عندهم ركن من أركان الدين . وهى فى زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح .

ولقد جاء فى كتاب الأصول والفروع : « إن الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق والحافظ والفادى ، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب ، يعبر بها عما يخالجه من الأشواق والعواطف ، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة

كلمات التعظيم والتسبيح له ، وبالنسبة لاقتناعه بجهوده وإحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد ، وبالنسبة لوقوعنا فى الخطية — تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار ، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى تكون الصلاة طلبا ودعاء » .

والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما ، هما منها بمنزلة الدعامة :

الشرط الأول : أن تقدم باسم المسيح ، فقد جاء فى الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا : « الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمى يعطيكم ، إلى الآن لم تطلبوا شيئا باسمى ، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا » .

ويعللون ذلك بأن الإنسان بسبب خطاياه أبعد عن رضا الله ، ولكن بدم المسيح زال هذا البعد ، وأصبح قريبا إليه .

فقد جاء فى رسالة بولس إلى أهل إفسس فى الإصحاح الثانى منها : « لكن الآن فى المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلا بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح ، لأنه هو سلامنا الذى جعل الاثنين واحداً . ونقض حائط السياج المتوسط » .

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع : « للصلاة باسم المسيح معنى أدق من ذلك ، وهو أن الاسم يمثل دائما المسمى ، فتكون صلاتنا باسم المسيح تمثل وحدته معنا ، بحيث تكون طلباتنا طلباته ، وصلاحنا صلاحه ، وحياتنا حياته ، وبالجملة كأنه يحيا فينا ولأجلنا » .

الشرط الثانى : أن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم ، فقد جاء فى الإصحاح الحادى عشر من إنجيل مرقس ما نصه : « لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه ، فيكون لكم » .

وجاء فى رسالة يعقوب « وليكن الطلب بإيمان غير مرتاب ألبتة ، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر تخبطه الريح وتدفعه ، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئا من الرب » .

وليست للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها ، بل تركهم أن يتلوا العبارات التى يختارونها بشرط ألا تخرج عن قاعدة الصلاة التى علمهم إياها المسيح ، لكى يصلوا على منوالها ، وهى المسماة بالصلاة الربانية ، وهى التى جاءت فى صدر الإصحاح الحادى عشر من إنجيل يوحنا ، ففيه عن المسيح « وإذ كان يصلى فى موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه : يارب علمنا أن نصلى ، كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه ، فقال لهم متى صليتم ، فقولوا أبانا الذى فى السماوات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم ، واغفر لنا خطايانا ، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشر » ولديهم أمثلة كثيرة للصلوات يختارون منها ما يسهل عليهم . وأشهر الأسفار المشتملة على نماذج للأدعية والصلوات سفر المزامير .

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع ، « إنه خزانة ذهبية لصلوات داود النبى وغيره من الأنبياء صلوا بها فى أحوالهم الخاصة ، مسوقين من الروح القدس ، وكثيرا ما يعرض علينا ذات أحوالهم ، فنقتبس من أقوالهم ما يطابق حالنا واحتياجنا للاستعانة على التعبير عما بنا من ملمات الأمور ، كما إذا كنا فى حال الحزن والأسى على خطايانا نقتبس فى صلاتنا من مزمار ـ ٥١ ـ لأنه يشتمل على أشد العبارات تأثيراً بصدد التوبة والاعتراف ، والاستغفار من الله . وكما إذا كنا فى حال الشعور برحمة الله علينا ، ونعمته نقتبس من مزمار — ١٠٣ — للتعبير عن شكر قلوبنا ، وشعورها بالمنة والنعمة » انتهى بتصرف .

وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم ، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة ، بل كل ذلك قد وكل إلى نشاط المصلين ، ورغبتهم فى العبادة . ولكن

لأن اليهود كانوا يعبدون الله فى هيا كلهم فى صباح كل يوم ومسائه استنبطوا أنه تلزم الصلاة مرتين ، إحداهما فى الصباح ، والأخرى فى المساء .

ويقولون فى حكمة ذلك فى الصباح : « نطالب بركة الرب علينا سحابة اليوم ، وأن يهدينا إلى عمل مافيه رضاؤه ، وأن يحفظنا من السوء ، وفى المساء نشكره على إحسانه علينا كما أننا نعترف بما فرط منا فى اليوم من الزلات ، ونطلب منه المغفرة ودوام نعمته علينا وفوق ذلك لا نفتأ نذكر فضله ونشعر بجميله دائماً » .

وإذا لم يكن للصلاة عدد محدود عندهم ، فالمستحسن الإكثار ، ويخالفون اليهود فى زعمهم أن الإكثار من الصلاة يجعل الله يمل .

جاء فى إنجيل لوقا فى صدر الإصحاح الثامن عشر مانصه : « قال لهم مثلا فى أنه ينبغى أن يصلى كل حين ، ولا يمل قائلا : كان فى مدينة قاض لا يخاف الله ، ولا يهاب إنسانا ، وكان فى تلك المدينة أرملة ، وكانت تأتى قائلة أنصفنى من خصمى وكان لايشاء إلى زمان ، ولكن بعد ذلك قال فى نفسه : وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنساناً ، فإنى لأجل أن هذه الأرملة تزعجنى أنصفها لئلا تأتى دائماً فتقمعنى . وقال الرب اسمعوا ما يقول قاضى الظلم ، أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلا وهو متمهل عليهم ، أقول لكم إنه ينصفهم » .

ويقول القس إبراهيم سعيد فى شرح الجمل فى إنجيل لوقا : « ينبغى أن يصلى كل حين ولا يمل » من هنا ترى أن صلاة المثابرة واللجاجة ليست من الأمور الممكنة فقط ، ولكنها من الأمور الواجبة ، فهى فرض عين لا فرض كفاية ، وهذا عن خلاف ما علم به التلمود ، محظور على الإنسان أن يصلى أكثر من ثلاث مرات فى النهار ، لأن الله يمل الصلاة كل ساعة ، ولقد أوصى المسيح بالصلاة من غير ملل لعلمه أن صلاة الروح تعب على الجسد ، سيما إذا تأخرت الإجابة ، فالروح نشيط والجسد ضعيف » .

وجاء فى آخر رسالة بولس إلى أهل تسالونيكى « صلوا بلا انقطاع » .

ويبين معنى ذلك صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول ، « معنى هذا أن نستحضر فى أذهاننا روح الصلاة على الدوام ، وكلما خطر على البال ذكر الله ومحبته نرفع قلوبنا إليه، سواء أكان بالقول أو بالتوجيهات القلبية بدون كلام ، والله يعلم ما فى القلوب » .

من شعائر المسيحية :

٧٣ — المسيحية شعائر يجب القيام بها ، ولا يصح التخلى عنها ، ويقولون فيها إنها فرائض مقدسة وضعها المسيح ، وهى أعمال حسية تشير إلى بركات روحية غير منظورة عندهم ، ومن هذه الشعائر الواجب اعتقادها والعمل بها التعميد والعشاء الربانى .

التعميد والعشاء الربانى :

وقد جاء فى إنجيل متى عن التعميد « تقدم يسوع وكلمهم قائلا دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس ، وعلموهم جميع ما أوصيكم به » .

وجاء بالنسبة للعشاء الربانى فى رسالة بولس لأهل كورنثوس ما نصه : « إن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزاً ، وشكر ، فكسر وقال ، خذوا وكلوا ، هذا هو جسدى المكسور لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكرى » .

كذلك ذكر الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلا ، هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى ، أصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى ، فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز ، وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجىء » .

بهذه النصوص ثبت التعميد ، والعشاء الربانى ، والتعميد يقول فيه صاحب

كتاب الأصول والفروع . « فريضة مقدسة يشار فيها الغسل بالماء باسم الآب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس من أدران الخطية بدم يسوع المسيح، وهى ختم عهد النعمة كما كان الختان فى الشريعة الموسوية ، والمعمودية تدل على اعترافهم العلنى بإيمانهم وطاعتهم للآب والابن والروح القدس كإلهم ومعبودهم الوحيد ، ولا يجوز أن يعمدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله » ويقول فى العشاء الربانى . « وهو فريضة رسمها المسيح فى الليلة التى أسلم فيها الجسد ، ويستعمل فى هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر ، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز ، وقليلا من الخمر على المثال الذى رسمه المسيح تذكاراً لموته ،فالخبز يشير إلى جسده المكسور ، والخمر إلى دمه المسفوك ، فالمؤمنون الذين يشتركون فى هذا العشاء يقبلون المسيح بالإيمان كالخبزالذى نزل من السماء وكل من يأكل منه لا يجوع . ولكنهم لا يقبلونه طعاماً جسديا بل طعاما روحيا لحياة روحيه لأجل النمو فى النعمة والإيمان، ويقول أيضاً ، « ويشير العشاء الربانى إلى مجىء المسيح الثانى ، كما يشير إلى موته فيكون تذكاراً للماضى والمستقبل .

من تنظيم الأسرة :

٧٢ — فى الأناجيل ورسائل من يعتقدون أنهم الرسل فى المسيحية ذكر للزواج والطلاق ، ففيها بيان لبعض شريعة الأسرة مختصرة ، وخلاصة ماجاء فى كتبهم المعتبرة أن الزواج قد سن للإنسان وشرع له ، بل إن الزواج شرعه الله للإنسان وهو فى جنة عدن ، فخلق لآدم من ضلعه حواء ، لأنه كما فى سفر التكوين « ليس جيداً أن يكون آدم وحده ، فأصنع له معينا نظيره » .

على أن المسيح فى إنجيل متى قد أجاز العزوبة فى حال عدم القدرة التناسلية ،وذلك بدهى .

وجاء فى رسالة بولس لأهل كورنثوس أنه تجوز العزوبة إذا استطاع الرجل أو المرأة أن يضبط نفسه ، ويتوقى الزنى . فقد جاء فى الإصحاح السابع

من هذه الرسالة « ولكنى أقول لغير المتزوجين ، وللأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فيتزوجوا . لأن التزوج أصلح من الحرق » .

وشريعة الزواج عندهم لاتحل للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة وإن لم يوجد نص فى ذلك ولا يطلق ، وقد فهموا تحريم الطلاق من إنجيل متى ، ففى الإصحاح التاسع عشر منه ، « قال له تلاميذه إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج ؟ فقال ليس الجميع يقبلون هذا الكلام . بل الذى أعطى لهم ، ولا يفترق الزوجان إلا بالموت ، وبعد موت أحدهما يحل للحى أن يتزوج غيره » .

وهذا نص ما جاء فى رسالة بولس لأهل رومية . « إن الناموس يسود على الإنسان مادام حيا . فإن المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى ، ولكن إن مات الرجل ، فقد تحررت من ناموس الرجل ، فإذا ما دام الرجل تدعى زانية إن صارت لرجل آخر وقبل موت أحدهما لا يحل لهما الطلاق » .

وهذا نص ماجاء فى متى فى الإصحاح التاسع عشر منه . « جاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب ؟ فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى ؟ وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسداً واحدا ، إذن ليس بعد اثنين ، بل جسد واحد . فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان . قالوا فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق ، فنطلق . قال لهم : إن موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هذا ، وأقول لكم إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنى ، وتزوج بأخرى يزنى ، والذى يتزوج بمطلقة يزنى » .

الطلاق إذن لا يجوز ولا يقع ، ولكن استثنيت حالان يجوز فيهما الافتراق :

الحال الأولى: حال زنى أحد الزوجين، فللآخر أن يطلب التفريق. ويجاب في هذه الحال إن ثبت الزنى.

الثانية: إذا كان أحد الزوجين غير مسيحي فيصح التفريق عند تهاجرهما وعدم وجود الألفة بينهما، ولذا جاء في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس «والمرأة التي لها رجل غير مؤمن، وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه، لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل، وإلا فأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدسون، ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق».

ولقد أمرت المسيحية في وصايا رسلهم بأن يحب الرجال نساءهم، فقد جاء في إحدى رسائل بولس «أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة، وأسلم نفسه لأجلها» وفيها أيضا «وأما أنتم أيها الأفراد فليحب كل واحد امرأته، هكذا كنفسه، وأما المرأة فلتهب رجلها».

شرائع التوراة والمسيحية:

منزلة شرائع التوراة في المسيحية

٧٥ — ولقد كان المفهوم من أن المسيحية تعتبر التوراة وأسفار النبيين السابقين كتبا مقدسة تسميها كتب العهد القديم، أن تأخذ بكل الشرائع التي نصت عليها التوراة إلا ما خالفه المسيح بنص قد أثر عنه، ويظهر أن المسيحيين استمروا على ذلك نحوا من اثنتين وعشرين سنة من بعد المسيح، وهم في هذا كانوا يسيرون على المنهاج الذي سنه، والطريق الذي بينه، ولكن التلاميذ اجتمعوا بعد مضى اثنتين وعشرين سنة من تركه لهم، وخطب يعقوب فيهم، مقترحا عليهم أن يحصروا المحرم على الأمم في أربعة، وهي الزنى، وأكل المخنوق والدم، وما ذبح للأوثان، وكان ذلك لأنهم وجدوا أن الختان يشق على بعض من يدعونهم إلى النصرانية، فيفرون منها بسببه.

وهذا نص ما جاء في الإصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال بعد بيان

خلاف التلاميذ بشأن الختان ، واجتماعهم لأجل الفصل فى شأنه « حينئذ رأى الرسل والمشايخ أن يختاروا رجلين منهم ، فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا، وهما يهوذا الملقب برسابا، وسيلا، رجلين متقدمين فى الأخوة، وكتبوا بأيديهم هكذا . الرسل والمشايخ يهدون سلاما إلى الإخوة الذين هم من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية ، إذ قد سمعنا أن أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم ، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس ، من الذين نحن لم نأمرهم . وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ، ونرسلهما إليكم مع حبيبينا برنابا ، وبولس ، رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح ، فقد أرسلنا يهوذا وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها ، لأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن — ألا نضع عليكم ثقلا أكثر ، غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، والمخنوق ، والزنى التى إن حفظتم أنفسكم منها ، فنعما تفعلون. كونوا معافين » .

فى هذا الخطاب يتبين أن المشايخ والتلاميذ يحللون للناس كل ما حرمه الناموس ، أى التوراة وكتب التبيين السابقين ، ولا يجعلون محرما عليهم إلا أربعة أمور ، والامتناع عنها هو الأمر الواجب فقط ؛ وبذلك حل لهم كل شىء حرمته التوراة ، حل لهم الخمر والخنزير ، وكل ما كانت التوراة وشرائع النبيين قد حرمته ، وبأى شىء أعطى هؤلاء القدرة على التحليل والتحريم ؟ قد قالوا إن ذلك بإلهام من روح القدس وتجليه .

وقد ذكر صاحب سفر الأعمال على لسان بطرس أنه قال فى افتتاح ذلك الاجتماع الذى أصدر ذلك القرار ما نصه ، « أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بَيْنَنَا أنه بفمى يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون . والله العارف للقلوب شهد لهم معطيا لهم روح القدس ، كما لنا أيضاً ، ولم يميز بيننا وبينهم بشىء ، إذ طهر بالإيمان قلوبهم ، فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير

على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله ، ولكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص ، كما أولئك أيضا » ،

فمن هذا النص يستفاد أن الذى سوغ لهؤلاء أن ينصرفوا جهرا عما كانوا عليه ، وعما تركهم المسيح عليه ، هو أنهم ينزل عليهم الروح القدس ، كما كان ينزل على النبيين الصديقين ، وذلك فى اعتقاد كتاب المسيحية ، وقد بينا حقيقة ذلك فى موضعه من كلامنا عن الكتب .

تحليل لحم الخنزير مع تحريمه فى التوراة

واقد أحلوا فيما أحلوا من محرمات التوراة لحم الخنزير وكان المعروف أنه حرام فى النصرانية التى تأخذ بكتيب العهد القديم ، وعلى رأسها التوراة .

ويروى ابن البطريق فى هذا المقام أن اليهود لما دخلوا فى النصرانية بسبب اضطهاد قسطنطين لهم بعد تنصره تشكك النصارى فى إيمانهم ، فأشار بطريرك القسطنطينية على قسطنطين أن يختبرهم بحملهم على أكل لحم الخنزير وقال له : « إن الخنزير فى التوراة حرام ، واليهود لا يأكلونه ، فتأمر أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها ، ويطعمون منها هذه الطائفة ، فمن لم يأكل علمت أنه مقيم على اليهودية » عندئذ آمن قسطنطين بتحريم الخنزير ، إذ نصت على التحريم التوراة المقدسة فى نظر النصارى ، كما هى مقدسة فى نظر اليهود ، وقال « إن كان الخنزير فى التوراة محرما فكيف يجوز لنا أن نأكل لحمه ، ونطعمه للناس » ولكن البطريرك ما زال به حتى حمله على الاعتقاد بأنه حلال فقد قال له : « إن سيدنا المسيح قد أبطل سائر ما فى التوراة ، وجاء بتوراة جديدة هى الإنجيل . وقال فى إنجيله المقدس إن كل ما يدخل الفم ليس ينجس الإنسان ، إنما ينجس الإنسان كل ما يخرجه من فيه يعنى السفه والكفر ، وغير ذلك مما يجرى مجراه ، ويقص قصة عن بولس رسولهم بأن بطرس رأى رؤيا تفيد التحليل ، وبذلك يحللون الخنزير .

المجامع المسيحية

تاريخها . وأسبابها . وقراراتها

---

٧٦ — قد شرحنا فيما أسلفنا من القول العقائد المسيحية ، كما هى فى كتبهم ولم نتجه إلى الآن لدراستها دراسة نقدية ، لأنا نجدهم يجتهدون فى تصويرها ويشعرون بعظم المشقة فى ذلك ، حتى إذا يئسوا قالوا إنها فوق العقل ، وأن العقل لا يستطيع تصويرها تصويرا كاملا ، وأنها ستنجلى يوم القيامة ، ولذلك نجد من الظلم لأنفسنا أن نناقشها ، لأن العقل لا يستسيغها باعترافهم فكيف نناقشها ؟ وهم يلقنون الصبية بأن يجتهدوا فى تصورها وتصديقها ، لا فى البرهنة لها وإثباتها ، ولذلك نترك الآن مناقشتها بالعقل ، ونحيل القارىء الكريم على ما كتب الذين ناقشوها من فطاحل العلماء ، ونخص بالإشارة كتاب إظهار الحق للشيخ رحمه الله الهندى ، وكتاب الفارق فيما بين المخلوق والخالق ، والقول الصحيح لابن تيمية ، بال الله ثراهم ، فإن هؤلاء لم يتركوا مقالا لقائل .

ويهمنا الآن فى بحثنا التاريخى أن نبين الأدوار التى مرت عليها هذه العقيدة ، فإنه من المقرر فى تاريخ المسيحية بالبداهة أن التثليث بالشكل الذى يعتقده جماهير المسيحيين ، أو الكثرة الغالبة فيهم ، لم يعلن للناس دفعة واحدة ، بل فى أزمان متفاوتة مختلفة ، وكان بإعلان المجامع التى كانت تعقد من الأساقفة ، وفيها يقرر المجمع رأيا معينا ، ولا يهمنا مما كانت تقرره تلك المجامع إلا ما يتعلق بالعقيدة ، وإن كنا سنعرض أحيانا لما كان يجىء فى ثنايا قراراتها من بعض النظم .

والمجامع فى المسيحية هى كما يقول علماؤهم جماعات شورية فى المسيحية ، قد رسم

كيف وجدت فكرة جمع مجامع

رسلهم نظاما في حياتهم ، حيث عقدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة ، وقرر ذلك المجمع ، كما علمت قريبا ، عدم التمسك بمسألة الختان ؛ بل زاد فقرر عدم التمسك بشرائع التوراة ، وما وليها من سائر أسفار العهد القديم المقدس عندهم فيما يتعلق بالتحريم إلا تحريم الزنى ، وأكل المخنوق ، وأكل ، الدم وأكل ذبائح الأوثان ، فقد قالوا إن التلاميذ والمشايخ بهذا المجمع الذي بينه سفر الأعمال في إصحاحه الخامس عشر قد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع ؛ لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة .

المجامع العامة والمجامع الخاصة

والمجامع عندهم قسمان : مجامع عامة أو على حد تعبيرهم مجامع مسكونية ، أي تجمع رجال الكنائس المسيحية في كل أنحاء المعمورة ، والمجامع المكانية وهي التي تعقدها كنائس مذهب أو أمة في دوائرها الخاصة من أساقفتها وقسوسها ، إما لإقرار عقيدة ، أو لرفض عقائد أخرى .

ويقسم المجامع صاحب كتاب سوسنة سليمان إلى ثلاثة أقسام فيقول : « وهذه المجامع تنقسم بالنظر إلى عدد أربابها ودرجاتهم وشوكتهم إلى ثلاثة أقسام وهي : مجامع عامة ، ويقال لها مسكونية ، ومجامع ملية ، أي خاصة بطائفة دون غيرها ، ومجامع إقليمية أي خاصة بإقليم مخصوص ، لكن مقاصد كلامنا لا تحتاج إلا إلى ذكر المجامع التي تعتبر عامة ، سواء صادق عليها الجميع أو أنكرها بعضهم على بعض ، لما في ذلك من معرفة النتائج التي تولدت عنها » .

هذا كلام صاحب ذلك الكتاب المسيحي ، وإذا كان هو لا يعني في تاريخ ديانته إلا بالمجامع العامة ، فنحن كذلك لا نعنى إلا بها ، وقد أحصى المجامع العامة من القرون الأولى المسيحية إلى سنة ١٨٦٩ فكانت عدتها عشرين مجمعا ، وقد ذكرها جميعا بالأجمال ، وذكر قراراتها بالإشارة ، وسنحذو حذوه في بعضها ، وسنترك الإجمالي إلى بعض التفصيل في بعضها الآخر ،

وخصوصا فى المجامع التى كانت فى القرون الأولى للمسيحية ، لأنها هى التى حدت للأخلاف حدود العقيدة المسيحية فى نظر مقربها ، وهى التى رسمت المسوح و التقاليد الكنسية القائمة فى الكنائس ، أو بعضها الكثير إلى الآن ، وهى التى فلحت الأرض لتبذر بذور هذه المسيحية التى سادت أفكار المسيحيين فى الأجيال من بعد .

ونبدأ بأعظم هذه المجامع ، وأبعدها أثراً ، وأكبرها شأناً ، وأولها وجوداً وأعظمها ذكراً وهو مجمع نيقية .

١ — مجمع نيقية ٣٢٥

سبب المباداه العام الإختلاف بينهم في شخص المسيح

٧٧ — اشتد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى ، وتباعدت مسافات الخلف تباعداً شديداً ، لا يمكن أن يكون معه وفاق ، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح ، أهو رسول من عند الله فقط ، من غير أن تكون له منزلة أكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه ، أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول ، فهو من الله بمنزلة الابن ، لأنه خلق من غير أب ؟ ولكن ذلك لا يمنع أنه مخلوق لله ، لأنه هو كلمته ، ومن قائل إنه ابن الله ، له صفة القدم ، كما لله تلك الصفة ، وهكذا تباينت نحلهم ، واختلفت ، وكل يزعم أن نحلته هي المسيحية الصحيحة التي جاء بها المسيح عليه السلام ، ودعا إليها تلاميذه من بعده ، ويظهر أن ذلك الاختلاف ، وتلك النحل المتباينة المتضاربة المتنازعة ، قد ظهرت بعد أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين من الرومان ، واليونان ، والمصريين . فتكون في المسيحية مزيج غير تام التكوين ، غير تام الاتحاد والامتزاج ، وكل قد بقي عنده من عقائده الأولى ما أثر في تفكيره في دينه الجديد ، وجعله يسير على مقتضى ما اعتنق من القديم من غير أن يشعر أو يريد .

ومن دخل في ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية أرادوا أن يفهموا ما اعتنقوه جديداً على ضوئها ، وعلى مقتضى منطقها وتفكيرها .

ولقد كانت تلك الاختلافات كامنة لا تظهر مدة الاضطهادات الرومانية ، لأنهم شغلوا بدفع الأذى ، ورد البلاء ، واستقبال المحن والكوارث ، وكانوا يستسرون بدينهم ولا يظهرونه ، ويخفون عقائدهم ، ولا يعلنونها ، حتى إذا رزقوا الأمان ، ونزلت عليهم سحائب الاطمئنان ظهرت الخلافات الكامنة ،

وإذا هم لم يكونوا متفقين إلا فى التعلق باسم المسيح ، والاستمساك بالانتساب إليه ، من غير أن يتفقوا على شىء فى حقيقته ، ولذا لما منحهم قسطنطين عطفه ، واعتزم الدخول فى النصرانية ، ووجد هذا الاختلاف الشديد ، أمر بعقد مجمع نيقية .

الاختلاف الخاص الذى انعقد المجمع بعده

٧٨ — هذا هو السبب فى عقد مجمع نيقية بشكل عام ، لكن له سبباً خاصاً يتعلق بنوع من هذه الخلافات ، وهو مايسمونه فى تاريخهم بدعة أريوس ، كان هذا الرجل فى مصر داعية قوى الدعاية ، جريئاً فيها ، واسع الحيلة ، بالغ الأرب ، قد أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الاسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح وتدعو إليه ، فقام هو محارباً ذلك ، مقراً بوحدانية المعبود ، منكراً ماجاء فى الأناجيل مما يوهم تلك الألوهية ، وقد قال فى بيان مقالته ابن البطريق : « كان يقول إن الآب وحده الله والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الآب إذ لم يكن الابن » .

كلام أريوس

ولم يكن بدعا فى القول بهذه الفكرة بين المسيحيين ، بل إنها كانت معروفة مذكورة مشهورة من قبله ، كما يقول المسيحيون أنفسهم .

ولقد جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية مانصه : « الذنب ليس على أريوس بل على فئات أخرى سبقته فى إيجاد هذه البدع ، فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير أريوس الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية ، حتى انتشر هذا التعليم وعم » .

ولقد كان لرأى أريوس فى اعتبار المسيح مخلوقاً لله مشايعون كثيرون ، فقد كانت الكنيسة فى أسيوط على هذا الرأى ، وعلى رأسها ميليتوس ، وكان أنصاره فى الاسكندرية نفسها كثيرين من حيث العدد ، أقوياء من حيث المجاهرة بما يعتقدون ، كما كان لهذا الرأى مشايعون فى فلسطين ومقدونية ، والقسطنطينية .

انتشار رأى أريوس وطرق محاربته

وقد أراد بطريرك الاسكندرية أن يقضى على هذه الفكرة ، فلم يعمد إلى المناقشة والجدل ، حتى لايتسع الخرق على الراقع ، وحتى لايلحن بالحجة عليه أريوس ولكنه عمد إلى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة .

ويبنى ذلك على أنه رأى المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه ، نفى من الكنيسة مرتين لهذا الرأى ، وبحجة تلك الرؤى المنامية ، ومن أمثلتها قول البطريرك بطرس الذى أمر بنفيه : « إن السيد المسيح لعن أريوس هذا فاحذروه . فإنى رأيت المسيح فى النوم مشقوق الثوب ، فقلت له ياسيدى من شق ثوبك ؟ فقال لى أريوس ، فاحذروا أن تدخلوه معكم » .

ولم يجد النفى وإعلان الرؤى والأحلام فى القضاء على رأى أريوس وجمع الناس حول قوة الكنيسة ، حتى إذا ولى أمر الكنيسة البطريرك اسكندر أخذ يعالج المسألة بنوع من الحيلة والصبر ، فكتب إلى أريوس وزعماء هذا الرأى يدعوهم إلى رأى كنيسة الأسكندرية ، ولكن محاولته لم تجد أيضاً ، فعقد مجمعاً فى كنيسته بالأسكندرية وحكم على أريوس بالحرمان !! فلم يخضع لهذا . ولم يخنع ، وغادر الأسكندرية إلى فلسطين .

وقد كان مذهب عدم ألوهية المسيح ذائعاً منتشراً ، وكان أسقف نيقومدية على مذهب أريوس أيضاً ، ويعظ على أساسه ، وفى الحق إننا نجد أن أسقف مقدونية وأسقف فلسطين ، وكنيسة أسيوط ، كل أولئك على رأى أريوس ، وكنيسة الأسكندرية وحدها هى التى تحاربه ، فالخلاف محصور إذن بين أريوس ، ومعه أسيوط وفلسطين ، ومقدونية ، وبين بطريرك الأسكندرية .

يدخل قسطنطين وجمع مجمع نيقية

٧٩ — وقد تدخل قسطنطين أمبراطور الرومان فى الأمر ، فأرسل كتابا إلى أريوس والأسكندر يدعوهما إلى الوفاق ، ثم جمع بينهما ، ولكنهما لم يتفقا ، فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ .

ويقول ابن البطريق المسيحى فى وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : « بعث

للملك قسطنطين إلى جميع البلدان، لجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان ، فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله ، وهم البربرانية ، ويسمون الريميتين ، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها ، وهي مقالة سابليوس وشيعته ، ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب ، لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهي مقالة البيان وأشياعه » .

ومنهم من كان يقول إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم ، وإنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الأنسي صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمي ابن الله ، ويقولون إن الله جوهر قديم واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية وأشياعه ، وهم البوليقانيون .

ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل، صالح وطالح ، وعدل بينهما ، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه . وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً » اه المراد منه .

موقف قسطنطين من المتناظرين

اجتمع أولئك المختلفون ، وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع ، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من وأخلى داراً للمناظرة ، ولكنه جنح أخيراً إلى رأي بولس ، وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأي، وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة .

انحيازه لرأى موطى المسيح مع أنهم ليسوا الكثرة

ويقول فى ذلك ابن البطريق « وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيما ، وجلس فى وسطهم وأخذ خاتمه ، وسيفه وقضيبه ، فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتى ، لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين ، وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك ، وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية . وذب عنه ، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع ، منها ما يصلح للملك أن يعمله ويعمل به ، ومنها مايصلح للأساقفة أن يعملوا به » .

العقيدة التى فرضها المجمع

وضع هذا الجمع المحدود من الأساقفة قرارات فى العقيدة والشرائع ليقيدوا بها المسيحيين ، ولا يهمنا إلا بيان العقيدة التى قررها المجمع وفرضها على المسيحيين.

وقد ذكرها صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية ، فقال عنها مانصه : « إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لاشىء ، أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران » .

قراراته تؤيد برهبة السلطان

٨٠ — إذن قرر المجمع ألوهية المسيح ، وأنه من جوهر الله ، وأنه قديم بقدمه ، وأنه لا يعتريه تغيير ولا تحول ، وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين ، لاعنة كل من يقول غير ذلك ، والذين فرضوا هذا القول ٣١٨ أسقفاً ، ويخالفهم فى ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف . وإن لم يكونوا متفقين فيما بينهم على نحلة واحدة ، فهل ذلك المجمع لم يخل من نقد ؟ إن باب النقد فيه متسع :

النقد الموجه إلى المجمع

١ — وأول مايلاحظه الناقد أن الذين دعوا إليه ، وجابوا الأمصار . ووصلوا إلى نيقية بدعوة من قسطنطين ، وبتفاهم البطارقة فيما بينهم بلغوا ثمانية

وأربعين وألفين من الأساقفة ، ولكننا نجد العدد ينزل إلى ثمانية عشر وثلاثمائة أسقف فما هى آراء الباقين ؟ ولماذا أهملت كل هذا الاهمال ؟ أكانوا جميعا مختلفين فى النحل والآراء ، حتى إن نحلة لم يصل عددها إلى ٣١٨ ، فلما تعذر الأخذ بالكثرة المطلقة التى يزيد عددها على النصف ، ولو واحداً ، اتجهوا إلى الأخذ بالكثرة النسبية ، وهو اعتناق الرأى الذى يأخذ به أكبر عدد فى الأصوات وإن لم يصل النصف أو يقاربه ؟ إن المروى غير ذلك ، لأن ابن البطريق يقول : إن قسطنطين هو الذى اختار أن يعقد أولئك الإساقفة الذين يبلغون فقط ٣١٨ مجلساً خاصاً بهم ، وحضر هو المجلس ، وأعطاهم شارة الملك والسلطان لأنهم أفلجوا على إخوانهم فى زعم ابن البطريق المسيحى التثليثى ، ولأن الرواة يقولون إن أريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم انضم إلى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف ، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة ، فلو كانت النصرة بالكثرة النسبية ، لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لأريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من أناجيل ، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح قرر تحريفها .

الرغبة والرهبة من السلطان لهما دخل فى القرارات

ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل فى تكوين رأى الذين رأوا ألوهية المسيح ، فلقد يروى أن أولئك ٣١٨ لم يكونوا مجمعين على القول بألوهية المسيح ، ولكن تحت سلطان الإغراء بالسلطة الذى قام به قسطنطين بدفعه إليهم شارة ملكه ليتحكموا فى المملكة أجمعوا . فقد دفعهم حب السلطان إلى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذى ظهر فى عقده مجلساً خاصاً بهم دون الباقين ، لاعتقاده إمكان إغرائهم . فأمضى أولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب ، أو هما معا ، وبذلك قرروا ألوهية المسيح ، وقسروا الناس عليه بقوة السيف ، ورهبة الحكام .

ب — أن المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأسا . بل لا بد من تلقيها من أفواه أولئك العلماء ورجال الـكهنوت ، وأن أقوالهم فى ذاتها حجة ، سواء أخالفت النصوص أم وافقت ، وسواء أكانت الصواب ، أم جافت الحق ، وإن ذلك كان له ما بعده فى المسيحية ، وهو مخالف كل المخالفة لما جاء فى تعاليم المسيح المنصوص عليها حتى فى كتبهم التى يقرءونها ويعترفون بها ، فقد جاء فى الإصحاح العشرين من إنجيل متى ما نصه : رؤساء الأمم يسودونهم ، والعظماء يتسلطون عليهم ، فلا يكن فيكم هذا » ولـكن العلماء تسلطوا على إخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمه وسيفه وقضيبه ، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين .

المجمع فرض لنفسه سلطانا كهنوتيا على الناس

ج — أن المجمع أمر بتحريق الـكتب التى تخالف رأيه ، وتتبعها فى كل مكان ، وحث الناس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا يمنع أن يصل إلى النـاس علم بأى أمر من الأمور التى تخالف رأيه ، وهو بهذا يحاول التحكم فى القلوب ، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ما وافق رأيه ، ومنعها منعا باتا جازما من أن تقرأ غيره ، ويسد عليها منافذ النور للاهتداء إلى ما يخالفه ، ولعل المجمع مخطىء فى ذلك التحريم ، وآثم فى ذلك التحريق ، بل إن المجامع العامة من بعد قد خطأته ، فأعادت إلى حظيرة التقديس كتبا حرمها ، أخرجت من البلى كتبا حرقها ، قد حرم كتبا من كتب العهد القديم ، ولم يعترف بها فاعترفت بهـا المجامع المسيحية من بعده ، وحرم من كتب النصارى المعتبرة الآن : رسالة بولس إلى العبرانيين ، والرسالة الثانية لبطرس . والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا ورسالة يعقوب ورسالة يهوذا . ومشاهدات يوحنا ، ولـكن المجامع من بعده أقرتها . وأجمعت عليها .

أمره بتحريق ما يخالفه

إذن لم يكن المجمع مصيبا من كل الوجوه ، وإن أخطأ في معرفة الصحيح من الكتب ، فآراؤه الأخرى أكثر عرضة للخطأ وأكثر استهدافا للنقد ، ولعل أشدها صلة بالباطل ، وأقربها به رحما ، وأدناها إليه هو ما يتعلق بالعقيدة .

قسطنطين يتدخل ذلك التدخل وهو لم يتنصر.

(د) بقى أمر نشير إليه إشارة خفيفة ، وهو مقام قسطنطين فى المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع ، أكان مسيحياً عالماً بالمسيحية فى ذلك الإبان ، حتى ساغ له أن يحكم لبعض المجتمعين ، وإن لم يكونوا الكثرة على أى اعتبار كانت الكثرة ، أكثرة مطلقة أم كثرة نسبية ؟

يقول المؤرخ أبو سيبوس الذى تقدس كلامه الكنيسة ، وتسميه سلطان المؤرخين : « إن قسطنطين عمد حين كان أسير الفراش ، وأن الذى عمده هو ذلك المؤرخ نفسه ، وقد كان له صديقا » .

والتعميد إعلان دخول المسيحية ، إذن فقسطنطين ما كان مسيحيا فى إبان انعقاد ذلك المجمع ، وما كان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء ، ويسوغ لنا أن نقول إنه كان له فى هذا أرب خاص ، وهو تقريبها من وثنيته ، أو على الأقل عندما رجح رأى فريق على فريق كان يرجح ما هو أقرب إلى وثنيته ، وأدنى إلى ما يعرفه من عقيدة ، فلم تكن الحجة القوية فى جانب ترجيحه على هذا الاعتبار ، أو كان متهما فى ترجيحه بناء على الاعتبار الأول ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فهو قد رجح ما هو أقرب إلى الوثنية لوثنيته .

تلقى المسيحيين لقرارات المجمع

٨١ — ولكن هل أمات ذلك الرأى الوحدانية التى كان يجاهر بها أريوس وهل قضى ذلك المجمع القضاء المبرم عليها ؟ إنه لو فرض أبعد الفروض عن الحق ، وكانت كثرة المجمع العام على غير رأى أريوس ما انتصروا عليه ولا قضوا على ما يدعو إليه ، لأن الآراء لا تنتصر بكثرة العدد ، بل بقوة الدليل وقوة تصور العقيدة ، وقوة الاقتناع بها ، وسهولة دخولها إلى العقل ، واستساغته لها ، ولذلك لم يقض المجمع على فكرة الوحدانية ، بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سببا

فى شدة الاستمساك بها ، والمبالغة فى المحافظة عليها مما يراد بها .

ولذلك أخذ البطارقة الذين لعنوا لاعتناقها يعملون الحيلة للاحتفاظ بها وحياطتها ، واتخذوا الخديعة سبيلا لذلك ، فتقربوا من قسطنطين ، وأظهروا له الإقلاع عما كانوا عليه ليعودوا إلى ما كان لهم من مناصب، ويستطيعوا مناصرة فكرتهم ، ولينالوا ثقة قسطنطين ، ومن طريق هذه الثقة ينفذون إلى نفسه ، ويقنعونه هو بالتوحيد ، ليستطيع أن يخدمه بسلطانه وقوته ، كما خدم ألوهية المسيح ، أو على الأقل ليقف موقف الحياد ، ويترك الآراء تسير فى مجراها الطبيعى ، ولنقص عليك محاولة من محاولات الموحدين .

مجمع صور يرفض بالإجماع قرار مجمع نيقية

يذكر ابن البطريق أن أوسابيوس أسقف نيقو مدية كان موحدا من مناصرى أريوس فى المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرته ، ولعن من أجل هذا ، وأراد أن يتقرب من قسطنطين « فأظهر أنه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة فأزال عنه اللعنة قسطنطين ، وجعله بطريرك القسطنطينية » فما إن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية فى الخفاء ، فلما اجتمع المجمع الإقليمى فى صور وحضره هو وبطريرك الإسكندرية الذى كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو إليها ، وينفرد من بين البطاركة فى المبالغة فى الدعوة إليها ، والحث عليها ، ولعن كل من يقاومها .

انتهز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس ، ورأيه فى المسيح وإنكار ألوهيته ، وكان فى ذلك المجمع كثيرون من الموحدين المستمسكين به ؛ إذ لم يحتاطوا بإبعادهم ، كما فعلوا فى المجمع العام بنيقية ، واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية ، وبين المجتمعين ، ولم يكتفوا بالنقاش القولى بل امتدت الأيدى إلى بطريرك الإسكندرية وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها ؛ فضربوه حتى أدموه ، وكادوا أن يقتلوه ، ولم يخلصه من أيديهم

إلا ابن أخت الملك الذى كان حاضرا ذلك الاجتماع ، ولكن لما بلغ ذلك قسطنطين كرمه .

ما يستنبط من هذا

وما سقنا ذلك القصص لرضانا عن تأييد الرأى بالعصا وجمع اليد ، ولكن سقناه ليتبين منه القارىء مقدار حماسة الموحدين من أهل المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد ، وأنهم فى تلك الحماسة لا يأبهون لشىء ، ولا يهمهم إغضاب ذوى السلطان أو إرضاؤهم ، وسقناه لتعلم أن الموحدين كما يظهر من رواية الكتب المسيحية ، وكما يستنبط كانوا الكثرة الغالبة فى المسيحيين ، ففى مجمع نيقية كانوا الكثرة ، وفى مجمع صور الخاص كانوا الجميع ماعدا رئيس كنيسة الاسكندرية ، وإذا كانوا الكثرة فى المؤتمرات خاصة وعامة ، فلابد أن يكونوا الكثرة فى جمهور المسيحيين .

وإذن تكون فكرة ألوهية المسيح هى العارضة ، والأصل هو التوحيد ، كما يستنبط القارىء من المصادر المسيحية نفسها ، وسقناه لتعلم أن قسطنطين كان يشجع دائما المخالفين للتوحيد ، وإن كان لايظهر السخط على غيرهم أحياناً ، وسقناه لتعلم أن مجمع صور كان يخالف كل المخالفة مجمع الثمانية عشر والثلاثمائة ، وأخيراً سقناه لتعلم أن موطن الدعاية لألوهية المسيح كان كنيسة الاسكندرية وحدها ، فهى التى حاربت أريوس . وهى التى لعنته مرتين ، ورئيسها هو الذى خالف فى صور ، ونال عقاب المخالفة جزاءاً وفاقا .

فهل لنا أن نقول إن التثليث الذى اشتملت عليه فلسفة الاسكندرية كان يعلن على ألسنة بطاركتها ، وأنهم كانوا يمثلون تلك الفلسفة بآرائهم أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح عليه السلام ؟ إن ذلك هو مفتاح التاريخ الصحيح ، فمن أراد أن يعرف كيف حالت المسيحية من توحيد إلى تأليه المسيح ، فليستعن به .

نشاط الموحدين

٨٢ — ولم ين الموحدون عن إعلان الاستمساك بعقيدتهم ، وتخطئة

الذين أعلنوا ألوهية المسيح ، ومعهم فى ذلك الكثرة العظمى من المسيحيين ، كما يدل على ذلك ما سننقله من تاريخ ابن البطريق ، فلقد حاولوا أن يجذبوا قسطنطين بن قسطنطين إلى رأيهم بعد أن مات أبوه ، فاجتمعوا به ، وحسنوا رأى الموحدين له ، وبينوا له أنه صميم المسيحية ، وأن الأساقفة الذين ناقضوه خالفوا وجه الحق ، ولم يكونوا آخذين بتعاليم السيد المسيح التى بشر بها بين الأنام ، ولكنه لم يعمل على نصرتهم ، ولم يعاونهم فى دعايتهم ، مع أن أكثر المسيحيين فى ذلك العصر كانوا موحدين .

يقول ابن البطريق : « فى ذلك العصر غابت مقالة أريوس على القسطنطينية ، وأنطاكية وبابل ، والاسكندرية » . وأسيوط قد علمت أن كنيستها كانت موحدة .

ويقول فى بيان حال الاسكندرية ومصر بعد الإجمال السابق « فأما أهل مصر والاسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ، فغلبوا على كنائس مصر والاسكندرية وأخذوها ، ووثبوا على أثناسيوس بطريرك الاسكندرية ليقتلوه ، فهرب منهم واختفى » .

وقد كان على كثير من الكنائس رؤساء موحدون يستمسكون بالتوحيد ، ويحثون على الاستمساك به ، وكلما ولى أسقف غير موحد ثاروا به ، وهموا بقتله ، وهذا ابن البطريق يقص علينا أن بطريق بيت المقدس لم يكن موحداً ، فيثور عليه الموحدون ، ويهمون بقتله فيهرب منهم ، فيقول فى ذلك « وثب أهل بيت المقدس ، من كان منهم أريوسياً على كورلس أسقف بيت المقدس ليقتلوه ، فهرب منهم ، فصيروا أراقايوس أسقفاً على بيت المقدس ، وكان أريوسياً » .

وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد وألوهية المسيح ، الأولى تغالب بالكثرة وقوة الإيمان ، وسعة الحيلة ، والثانية بقوة السلطان ، وبقايا الوثنية ،

والذين كانوا متأثرين بها ، ووجدوا مواءمة بينها وبين ما يألفون ، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا ، وأمكنته التقاليد من نفوسهم ، ولكن قوة السلطان طمست نور المذهب الأول ، إذ أنها احتاطت فجعلت كل الأساقفة ممن لم يكونوا موحدين ، واحتاطت أشد الاحتياط فى ذلك ، وأخذ أولئك يسيطروا على قلوب العامة بالرؤى والأحلام وإلهامات يزعمونها ، حتى اختفى المذهب الحق فى لجة التاريخ ، ولم يبد على السطح إلا ألوهية المسيح .

٣ — المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١

سبب انعقاده

٨١ — تقرر فى مجمع نيقية أن المسيح إله، وأنه ابن الآب وأنه جوهر قديم من جوهر الآب، ولم يتعرض للروح القدس أهو إله أم روح مخلوق، وليس بإله. ولم يكن مجمع نيقية قد أصدر قراراً فى هذا الأمر، لذلك ظهرت أفكار بين المسيحيين لا تعترف له بألوهيته، ويظهر أن الاسكندرية التى كانت مهداً للأفلاطونية الحديثة التى تقول بالتثليث، وأن المسيطر على العالم ثلاث قوى مؤثرة فيه، قوة المكون الأول، والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس) — تريد أن تفرض ذلك فرضاً على المسيحيين، كما كانت العامل القوى فى إعلان ألوهية المسيح.

أخذ يجاهر رجل أسمه مقدونيوس بأن الروح القدس ليس بإله، ولكنه مخلوق مصنوع، وشاعت مقالته بين الناس، ولم يجدوا فيها نكراً، ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية. فاجتمع إلى الملك ذوو الأمر من وزرائه وقواده، وبلغوه أن العامة قد فسدوا، فهم مازالوا متأثرين بواحدانية أريوس، واعتنقوا مذهب مقدونيوس فى أن الروح القدس ليس بإله قديم. بل هو مخلوق مصنوع. وحرضوه على أن يجمع جمعاً من الأساقفة يثبتون عقيدة المجمع النيقوى ويدحضون قول مقدنيوس. فاجتمع فى القسطنطينية خمسون ومائة أسقف وكان المقدم فيها بطريرك الاسكندرية ويظهر أن ذلك العدد لم يكن ممثلا لكل الكنائس. ولكل الأقاليم؛ ولذلك كان اعتباره مجمعاً عاماً من الأمور التى ثارت حولها الأقوال.

عدد المجمع والطعن فى كونه عاماً

فيقول فى ذلك صاحب كتاب سوسنة سليمان «قال الرهبان البندكيتيون إن المجمع الذى لم يكن أربابه إلا مائة وخمسين أسقفاً لا ينظم فى سلك

المجامع المسكونية إلا بعد أن يقره جميع الكنائس » .

بطريرك الاسكندرية هو الذى يقرر ألوهية روح القدس

اجتمع هذا المجمع فى القسطنطينية ، وتذاكر المجتمعون فيمن هو أولى بالرياسة فقر رأيهم على أن تكون الرياسة لأسقف القسطنطينية ، وبذلك نحى عنها رئيس كنيسة الإسكندرية ، وكان لذلك أثره فى نفوس تابعى تلك الكنيسة كما جاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية. ولكن مع إبعاد ممثل كنيسة الأسكندرية عن مكان الرياسة ، وموضع الزعامة الذى كان لسلفه فى مجمع نيقية كان هو المقدم فى المناقشة ، وتقرير الرأى الذى أجمع عليه المؤتمر بعد ذلك ، وهذا مانقله ابن البطريق عنه بنصه . « قال تيموثاوس بطريك الاسكندرية ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئاً غير حياته ، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة ؛ فقد زعمنا أنه غير حى ، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به ، ومن كفر به وجب عليه اللعن » .

قرار المجمع يوافق رأى بطريرك الاسكندرية

واتفقوا على لعن مقدونيوس . فلعنوه هو وأشياعه . ولعنوا البطاركة الذين يكونون بعده ، ويقولون بمقالته » إذن كان للاسكندرية فضل الصدارة فى القول . والقيادة فى الرأى العام . وإن لم تكن لها الرياسة .

نظرة فاحصة

ونريد أن نستطرد استطراد صغيرة عاجلة . وهى أن ننظر فى تلك السلسلة الفكرية التى ساقها فى شكل دليل شرطى كثرت مقدماته . وكثرت تالياته ، وإن نظرة سريعة فاحصة إلى الأساس الذى قامت عليه السلسلة ترينا أنه جعل روح القدس هى روح الله . وهذا لايسلمه له مخالفه . ولا يستطيع هو أن يقيم عليه دليلا .

إن روح القدس خلقه الله . واتخذه ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحيا من خلقه أو أمراً كونياً ، فهى ليست روح الله المتعلقة بذاته . وليس

عنده من دليل على ما قال، ولكن هكذا ساق السلسلة، وهكذا اقتنع سامعوه.
و بذلك تم له الثالوث الذى يتشابه تماما مع فلسفة الاسكندرية، وقد أعلنها بطريرك الاسكندرية، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الأقنوم الثالث.

ويقول ابن البطريق فى بيان قرارهم: « زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر اسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية الإيمان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن مسجود له، وممجد، وثبتوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص، وحدية فى تثليث، وتثليث فى وحديه، كيان واحد فى ثلاثة أقانيم. إله واحد. جوهر واحدة. طبيعة واحدة ».

إذن تقرر التثليث، وتمت أقانيمه، ولكن مازال للمؤتمرات العامة والمجامع العامة موضع، فإن طبيعة المسيح الإنسانية والإلهية، وكيف تجتمعان؟ هذا موضع الخلاف. ولهذا تجتمع المؤتمرات.

٣ ـ مجمع افسس الأول سنة ٤٣١

سبب انعقاده

٨٣ — أول خلاف بينهم بعد تقرير الثالوث أن بطريرك القسطنطينية نسطور رأى أن هناك أقنوماً وطبيعة ، فأقوم الألوهية من الآب ، وتنسب إليه ، وطبيعة الإنسان ، وقد ولدت من مريم ، فمريم أم الإنسان ، وليست أم الإله .

ويقول فى المسيح الذى ظهر بين الناس وخاطبهم ، كما نقله عنه ابن البطريق : « إن هذا الإنسان الذى يقول إنه المسيح ، بالمحبة متحد مع الآب ، ويقال إنه الله وابن الله ليس بالحقيقة ، ولكن بالموهبة » .

ويظهر من هذا أن المسيح الذى ظهر بين الناس لم يكن إلهاً بحال من الأحوال ، ولكنه مبارك بما وهبه الله من آيات وتقديس .

ولذا جاء فى تاريخ الأمة القبطية عن نحلته مانصه .

النسطوريون ينكرون ألوهية المسيح

« أما هرطقة نسطور هذه فلم تكن كغيرها نشأت عن اختلاف فى عقائد وضعها الآباء والأحبار ، بل هى جوهرية تختص بأعظم موضوعات الإيمان والأركان فى الدين المسيحى ، ذلك أن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلها فى حد ذاته ، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة ، أو هو ملهم من الله ، فلم يرتكب خطيئة ، وما أتى أمراً إدا » .

على هذا التخريج يكون نسطور لا يعتقد بألوهية المسيح ، وإن كان يعتقد أنه فوق الناس ، وليس مثلهم ، ولقد جهر بهذا الرأى ، ونادى به ، وهو رئيس لكنيسة القسطنطينية ، ولها مكانتها ، ولكن خالفه غيره من الأساقفة ، فكان أسقف رومة يعلنه برأيه المخالف له ، مع ما عند نسطور مارآه من بينات وأدلة ..

ولقد بلغت مقالة نسطور بطريرك الاسكندرية ، وجرت المراسلات بين أسقف الاسكندرية وأساقفة أنطاكية ورومة وبيت المقدس ، فاتفقوا على عقد مجمع أقسس للنظر فى هذا الرأى ، وإعلان صاحبه بالتبرؤ منه ، ولعنه إن أصر على رأيه ، ودعوه ليسمع حكمهم فى رأيه ، ويظهر أنه عرفه قبل أن يجتمع المجمع ، وأنهم مصرون على ما أعلنوه ، كما أنه مصر على رأيه ، فلم يجد كبير فائدة فى حضور المجمع فلم يحضر لا هو ولا بطريرك أنطاكيه .

وانعقد المجمع وعدده نحو مائتين من الأساقفة ، وقرروا مانصه كما جاء فى تاريخ ابن البطريق :

« أن مريم العذراء والدة الله ، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين ، متوحد فى الأقنوم » ولقد لعنوا نسطور .

قرار المجمع والاحتجاج عليه

فلما بلغ ذلك القرار يوحنا بطريرك أنطاكية غضب ، واحتج على المجمع ، فاختلف المجتمعون على رأيين ، وأصر المشرقيون على الرأى الذى أعلنه المجلس أولا ، وكتبوا صحيفة فيها «إن مريم القديسة العذراء ولدت إلهنا وربنا يسوع المسيح الذى مع أبيه فى الطبيعة ، ومع الناس فى الناسوت والطبيعة ، وأقروا بطبعتين ، ووجه واحد وأقنوم واحد » خالفهم بطريرك الاسكندرية أولا . ولكن يقول ابن البطريق إنه وافق بعد ذلك وكتب إليهم : « إن أمانتى التى فى صحيفتكم » .

إنتشار النسطورية فى الشرق

ولكن لم يخضع نسطور لذلك القرار ، فنفى إلى مصر ، ولم يندرس مذهبه بذلك النفى ، ولقد وجد أرضا صالحة لها فى الشرق ، فلقد نهضت النسطورية فى نصيبين ، ويقول ابن البطريق : « تكاثرت النسطورية فى المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة » .

٤ - مجمع خليكدونية سنة ٤٥١

---

٨٣ — ولم يحسم ذلك المجمع الخلاف فى مسألة اجتماع العنصر الإنسانى والعنصر الإلهى فى المسيح ، فلم يقض على نحلة نسطورس قضاء مبرما ، وإن كان قد نفاه وآذاه . بل نمت نحلته بعد ذلك فى المشرق ، وذاعت فى البلاد التى ذكرها ابن البطريق ، ولم يقف الخلاف فى ذلك عند نسطور وأتباعه ، بل إن كنيسة الاسكندرية قد خرجت هى الأخرى برأى جديد عرضته على الملأ من الأساقفة وجمعوا له مجمعا قرروه فيه ، وذلك الرأى أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت ، وانعقد لأجل هذا مجمع إفسس الثانى الذى تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص ، وفى هذا المجمع أعلن ذلك الرأى .

كنيسة الاسكندرية تعلن أن المسيح إله قد اتحد فيه اللاهوت والناسوت وصارا طبيعة واحدة .

فلما عارضه بطريرك القسطنطينية ، وأعلن انسحابه من المجلس ، وعدم احترامه، أمرهم رئيس المجلس بإعلان حرمانه، وحدث خارج المجلس صخب شديد ، وضجة كاد أن يقتل فيها رئيس كنيسة القسطنطينية ، وقد اشتد الاختلاف بعد ذلك حول هذا المجمع ، أهو صحيح محترم السلطان ، أم هو مجتمع غير عام لا تلزم بآرائه الكنائس كلها ؟ واشتد الاختلاف فى قرارات الحرمان التى أصدرها ، أهى محترمة واجبة التنفيذ ، أم هى باطلة ؛ لأنها صادرة عن غير سلطة ؟ حتى جاءت ملكة على الرومان تخالف ذلك الرأى ، وتميل لغيره . فلتنفيذ رأيها فى هذا الخلاف الشديد حول مجمع إفسس الثانى وقراراته — أمرت هى وزوجها . بعقد مؤتمر عام ، فاجتمع فى مدينة خلكدونية عشرون وخمسمائة أسقف ، وكان الاجتماع تحت إشراف زوج الملكة ، واجتمع فى شهر أكتوبر سنة ٤٥١ .

طلب انسحاب بطريرك الإسكندرية ورفض الطلب

وتقول مؤلفة تاريخ كتاب الأمة القبطية : «وكان أول اقتراح طلبة مندوبو الحكومية انسحاب ديسقورس بطريرك الإسكندرية من المجلس . فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الأسباب التى تلجىء المجمع إلى إخراج هذا البطريرك من قاعته ؟ فكان اعتراض هؤلاء أن ديسقورس شكل مجمعا دون أن يستأذن الكرسى الرسولى ، ويقصدون بالكرسى الرسولى بابا القسطنطينية . . فلم يصادق مندوبو الحكومة على هذا الرأى السقيم ، وقرر المجمع بقاء ديسقورس ، ولكن على غير كرسى الرياسة ، كما كان فى المجمع السابق لأنها أصبحت فى يد رجال الإمبراطورة ، وقد حدث ضجيج وصخب ومنازعات فى أثناء الاجتماع

الشغب فى المجمع

مما جعل مندوبى الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان أحدهم : « إنه لا يجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا بمثل هذه الأعمال الشائنة من صياح ، وصراخ وسب وقذف ، وضرب ولكم ، بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب فى الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد ، ولذلك نرجوكم أن تستعملوا البرهان بدل المهاترة ، والدليل عوضاً عن القول الهراء ، وأميلوا آذانكم إلى سماع ماسيتلى عليكم » .

وسارت المناقشة بعد ذلك فى جو عنيف متعصب وانتهى المجمع إلى أن قرر أن المسيح فيه طبيعتان لا طبيعة واحدة . وأن الألوهية طبيعة وحدها . والناسوت طبيعة وحده . التقتا فى المسيح .

قرار المجمع أن المسيح له طبيعتان

وقد قال ابن البطريق فى بيان قرار المجمع : « قالوا إن مريم العذراء ولدت إلهنا ؛ ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ، ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية ، وشهدوا أن المسيح له طبيعتان ، وأقنوم واحد ، ووجه واحد ، ولعنوا نسطور ، ولعنوا ديسقورس ، ومن يقول بمقالته ، ونفوه . ولعنوا المجمع الثانى الذى كان بأفسس ، وقد نفى ديسقورس إلى فلسطين » .

الانشقاق ومداه

٨٤ — هنا نرى انشقاقا بين المسيحية المثلثة . واختلافا يكون بعيد المدى

فى الأجيال المقبلة ، وهو أساس اختلاف الكنائس إلى يومنا الحاضر ، فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان إحداهما إنسانية يشارك فيها الناس ، والأخرى لاهوتية ، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين ، وهو بذلك يخالف النسطوريين. لأنهم يقولون : إن أقنوم الابن لم يكن من العنصرين ، بل من العنصر الإنسانى وحده ، ويخالف قرار إفسس الثانى الذى يقول إن المسيح طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى من الروح القدس ، ومن مريم العذراء مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة ، بريئة من الانفصال. وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة . وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة .

فإن المصريين عندما بلغهم ما نزل برئيس كنيستهم غضبوا ، وأجمعوا أمرهم على عدم الاعتراف بقرارات ذلك المجمع .

عدم اعتراف المصريين بقرار المجمع

وتقول مؤلفة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « ولما طرق مسامع المصريين ما لحق ببطريركهم من الحرمان والعزل هاجوا وغضبوا ، واتفقوا على عدم الاعتراف بقرار المجمع الذى أصدر هذا الحكم ، وأعلنوا رضاهم ببقاء بطريركهم رئيساً عليهم ، ولو أنه محروم مشجوب ، وأن إيمانه ومعتقده هو عين إيمانهم ومعتقدهم ، ولو خالفه فيهما جميع أمبراطرة القسطنطينية ، وبطاركة رومية ، ولقد اعتبر المصريون أن الحكم الذى صدر ضد بطريركهم ماس بحريتهم الوطنية . مجحف بحقوقهم السياسية ، ولو أنه حكم دينى صرف » .

ولقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان فثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطريركا يعين على غير مذهبهم ، وعلى غير رغبتهم ، واستمروا على غضبهم ، فصاروا ينتقضون الحين بعد الحين ، كلما لاحت لهم الفرصة . وديسقورس لم يمنعه النفى من أن يدعو المسيحيين إلى اعتقاده فى منفاه .

ويقول ابن البطريق : « لما نفى سار إلى فلسطين ، وبيت المقدس ، فأفسد

دين كل من بفلسطين وبيت المقدس . حتى قالوا بمقالته » .

المصريون يرفضون تعيين بطريرك على غير مذهبهم

٨٥ — ولقد كان الاختلاف يشتد كلما عين الرومان بطريركا، فإن المصريين يرفضونه محتجين بأنه على غير مذهبهم ومن غير جماعتهم ، ويجب أن يكون بطريركهم بعد هذا الاختلاف من المذهب الذى ارتضوه دينا ، وباختيارهم، فكان بعض الامبراطرة يأخذهم بالعنف ، وأولئك هم الأكثرون ، وبعضهم يأخذهم بحسن السياسة ولطف الكياسة ، فيترك لهم الحرية فى اختيار بطريركهم، والاطمئنان إلى مذهبهم . وكانت الأيام والسنون هكذا تسير أحيانا على نهج من الهوادة والرفق ، وأحيانا كثيرة على شطط وعنف .

يعقوب البراذعى ونسبة المذهب المصرى إليه

وفى هذه الأثناء يتغلغل فى ربوع الدولة الرومانية الدعاة إلى المذهب المصرى والدعاة إلى المذهب الرومانى أو مذهب رومية مقر الامبراطرة أو المذهب الملكى كما سماه العرب من بعد .

ولقد ظهر المذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى العارضة ، بليغ الأثر ، اسمه يعقوب البراذعى ، قد أخذ يجول فى وسط القرن السادس الميلادى فى البلادى الرومانية إلى مصر ، يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية ، ويبث ذلك المذهب فى نفوسهم ، ويدخله فى قلوبهم، وسلك فى سبيل ذلك المخاطرة والجرأة ، لا يأبه لقوة مهما تكن ، ولا لذى خطر مهما يكن شأنه .

وتقول صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية : « قيل إنه رسم ٨٩ أسقفا . وألوفا من الكهنة والقسوس ، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون إلى أن المسيح طبيعة واحدة اشتقاقا من اسم يعقوب البراذعى زعيم هذا الحزب .

ولكن من الخلط الكبير ، والخبط الذى يدل على الجهل إطلاق لفظ يعقوبيين على الكنيسة القبطية المصرية ؛ لأن مذهبها نشأ قبله ، وهو تبعه ، إذ

لاعلاقة لها بيعقوب ، أما إذا سميت الكنيسة الرومانية بالكنيسة الملكية . فأنت مصيب غير مخطىء . لأن هذا الاسم صار علماً للكنيسة المذكورة من بعد الفتح الإسلامى ، وهو اسم عربى الأصل مشتق من كلمة ملك ، ومعناها الذين ينحازون إلى الملك ، أو الامبراطور الرومانى مذهباً وسياسة » .

انفصال الكنيسة المصرية نهائيا

٨٦ — ولقد كان قرار مجمع خليكدونية هو السبب فى إنقسام الكنائس ، أو بعبارة أدق هو السبب فى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية ولقد لخص صاحب كتاب تاريخ المسيحية فى مصر عقيدة الكنيسة المصرية فقال: « كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس ، وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية ، والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة ، مثلثة الأقانيم ، أقنوم الآب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس ، وأن الأقنوم الثانى أى أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . فصير هذا الجسد معه واحداً ، وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط ، والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال . وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ، ومشيئة واحدة » .

هذه هى قرارات تلك الكنيسة ، وهى تخالف ما تقرر فى مجمع خليكدونية كما علمنا .

المجامع الباقية

المجامع السابقة تقرر المسيحية الحاضرة

٨٧ — عنينا ببيان المجامع الأربعة السابقة ببعض التفصيل ، ولم نضن على القرطاس فيها ببعض الإطناب ، لأنها المجامع التى قررت بها العقيدة للسيحية الحاضرة .

فأولها قرر ألوهية المسيح ، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس ، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله ، لا الإنسان فقط ، وأن مريم ولدت الاثنين ، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين ، لا طبيعة واحدة متحدة ، والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة تلزم بأحكامها المسيحيين أجمعين ، أما المجمع الرابع فهو ليس مجمعاً عاما فى نظر المصريين ، والكنائس التى تنهج نهج كنيستهم .

والمجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه المسيحيون قاطبه بأنه مجمع عام مسكونى كما يعبرون ، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها على كنيسة رومة ، أو انشقاق كنيسة روما عليها .

وإنا نشير إلى هذه المجامع إشارة ، ولا نعرج عليها بتفصيل لذلك ، ولأن قراراتها كانت فى فروع جزئية لا تتصل بلب التثليث إلا فى بعض المجامع ، وبقدر يسير ، لا يمس الجوهر ، ولا يتغلغل فى صميمه ، وقد نعرض لهذا بقليل من التفصيل .

ولقد كان المجمع الخامس بالقسطنطينية سنة ٥٥٣ ، ويسمى المجمع القسطنطيني الثانى .

المجمع القسطنطينى الثانى وسبب انعقاده

ويذكر ابن البطريق أن ذلك المجمع انعقد بسبب أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح ، وسار فيها إلى أقصى مداها ، حتى لقد

قال إنه ليس هناك قيامة ، وبسبب أن بعض الأساقفة قد زعموا أن شخص المسيح لم يكن حقيقة ، بل كان خيالا ، فاجتمع لذلك هذا المجمع ، وكانت عدة الحاضرين فيه أربعين ومائة ، فقرروا حرمان هؤلاء الأساقفة ، ولعنهم وطردهم من زمرة المسيحيين ، ولم يكتفوا فى اجتماعهم بإصدار قرارهم فى هذه الأمور ، بل ثبتوا قرارات المجامع السابقة ، ومنها قرار مجمع خليكدونية ، وبذلك ثبتوا عقيدة كون المسيح ذا طبيعتين ، وأكدوا إنكار الطبيعة الواحدة التى اعتنقتها كنيسة مصر . ومن والاها من المسيحيين .

المارونية

٨٨ — وقد ظهر رجل اسمه يوحنا مارون فى القرن السابع الميلادى سنة ٦٦٧ كان يقول إن المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد ، ولكن يظهر أن هذه المقالة لم ترق فى نظر البطارقة ، لذلك أوعزوا إلى الامبراطور أن يجمع مجمعاً عاما فى زعمهم ، ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين ، وذو مشيئتين ، بعد أن استوثقوا من أن الامبراطور ، واسمه يوغا ناقوس على رأيهم ، بمكاتبات تبادلوها معه .

فقد جاء فى أحد كتبه « نحن نقر ، ونؤمن بطبيعتين ، ومشيئتين ، وفعلين لسيدنا المسيح ، وأقنوم واحد ونلعن من خالف هذا » .

مجمع القسطنطينية الثالث

اجتمع لذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ م . وقد كان من عمله لعن وطرد كل من يقول بالمشيئة الواحدة ، كما لعن وحرم وكفر من قال بالطبيعة الواحدة ، وكان مؤلفا من نحو تسعة وثمانين ومائتى أسقف . وبعد أن قرروا لعن وطرد من يخالفهم كشأنهم دائماً .

قالوا : « إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذى هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله فى أقنوم واحد . ووجه واحد ، يعرف

تاما بناسوته ، تاما بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى أقنوم واحد ، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدونى أن الإله الابن فى آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسدا إنسانيا بنفس ناطقة عاقلة ، وذلك برحمة الله محب البشر ، ولم يلحقه فى ذلك اختلاط ولا فساد ، ولا فرقة ولا فصل ، ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته ، وما يشبه الإله أن يعمله فى طبيعته، الذى هو الابن الوحيد ، الكلمة الأزلية المتجسدة التى صارت بالحقيقة لحما ، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن تنتقل من مجدها الأزلى وليست بمتغيرة ، ولكنها بفعلين ، ومشيئتين وطبيعتين إله وإنسان ، وبهما يكمل قول الحق ، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها ، فتعملان بمشيئتين غير متضادتين » .

هذا بعض قرار ذلك المجمع كما جاء فى تاريخ ابن البطريق ، وقد أطلنا فى النقل ، ليكون كلام القوم مبينا لفكرهم كما يريدون ، فنقلناه خشية أن نحرف كلامهم عن معناه ، أو نحيد به عن مرماه .

ولقد كان من آثار هذا القرار أن خرج من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية طائفة المارونيين ، كما خرج من قبل الأقباط وكنيستهم ، ومعهم الأحباش والأرمن والسريان » .

مجمع تحريم اتخاذ الصور

٨٩ — وقد جاء مجمع غير عام بإقرار الجميع انعقد بأمر قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ وفيه جمهور من الأساقفة . وفدوا إليه من جهات مختلفة ، وقد قرر تحريم اتخاذ الصور[1] والتماثيل فى العبادة . وحرم طلب الشفاعة من العذراء

---

(١) يقرر الأستاذ المرحوم أمين الخولى فى رسالته (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) أن فكرة تحريم اتخاذ الصور والتماثيل فى أماكن العبادة الإسلامية وأن أشد من ظهر بعداوتها ليون الثالث مكسر الأصنام الذى أقلق الكنيسة ، واتخذ العنف سبيلا لتنفيذ رأيه له صلة وثيقة بالمسلمين =

ولأجل هذا انعقد المجمع السابع بأمر الملكة إيرينى بمدينة نيقية ، ويسمى المجمع النيقاوى الثانى سنة ٧٨٧ وكان أعضاؤه ٣٧٧ أسقف وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسيين ، لا بعبادتها ، وجاء فى هذا القرار : « إنا نحكم بأن توضع الصور ليس فى الكنائس والأبنية المقدسة ، والملابس الكهنوتية فقط ، بل فى البيوت ، وعلى الجدران فى الطرقات ، لأننا إن أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل ، وسائر القديسين فى صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكر فيهم ، والتكريم لهم ، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور ، لا العبادة التى لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية » .

هذا هو المجمع السابع قد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبرته عاما ، وخالفته أخرى ، فلم تعتبره كذلك .

انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية وسببه

٩٠ — ولننتقل بعد ذلك إلى المجمع الثامن ، وهو أساس انفصال الكنائس الشرقية التى ترأسها كنيسة القسطنطينية عن الكنائس الغربية التى ترأسها كنيسة روما .

قد علمت أن المجامع الماضية التى انفصلت بسببها فرق مسيحية كان أساس الخلاف فيها طبيعة المسيح ، ولم يتعرض أحد للروح القدس ، ومن أى شىء انبثق ، حتى أثار بطريرك القسطنطينية كيف كان انبثاقه ، فحكم بأن انبثاق الروح القدس كان من الآب وحده ، فعارضه فى ذلك بطريرك رومة قائلا : « إن انبثاق الروح القدس كان من الآب والابن معا ، ولم يكن من أحدهما . وكل

= وينقل عن صاحب كتاب الطرق النقية قوله : « إن ليون فعل ذلك لأسباب سياسية إذ رغب فى التقرب إلى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليداً لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العصر المسلمون فى ديارهم » ويقول الأستاذ أمين الخولى « والحركة الإسلامية التى سمعت خبرها فى تحطيم التماثيل هى التى قام بها الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م (وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦) إذ كتب يزيد إلى حنظلة بن صفوان والى مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها فى أيامه » .

فريق عاضد رأيه بمجمع قد جمعه ، وكلاهما قد اعتبر هو ومشايعوه مجمعه عاماً ملزماً للآخر ، ومجمع الآخر خاصاً غير ملزم ، وكل لعن الآخر وطرده . واعتبره محروماً مطروداً من حظيرة المسيحية ، كشأنهم عند كل اختلاف .

أعلن بطريرك القسطنطينية رأيه ، وهو أن الروح القدس انبثق من الآب فقط ، وفوق ذلك قد تولى هذا البطريرك كرسيه من غير إرادة رئيس الكنيسة بروما ، وبعد أن دس لسلفه ما أبعده عن كرسيه ، فاجتمع فى القسطنطينية مجمع بعد عزل هذا البطريرك الذى ناوأ روما . سنة ٨٦٩ ، وأصدر قراراً يتضمن البت فى ثلاثة أمور :

أولها : كون انبثاق الروح القدس من الآب والابن .

ثانيها : أن كل من يريد المحاكمة فى أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى إلى الكنيسة بروما .

ثالثها : أن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التى يقوم بها رئيس كنيسة روما .

وتلك القرارات كانت مع قرار آخر يعتبر عندهم سنة متبعة ، وهو لعن ذلك البطريرك المعزول واسمه فوسيوس ، وحرمانه هو وأتباعه .

استطاع فوسيوس هذا أن يعود إلى منصبه ، فلما عاد إليه كان أول ماصنعه أن عقد مجمعاً آخر فى القسطنطينية سنة ٨٧٩ ، ويسمى هذا المجمع الشرقى اليونانى كما يسمى الأول الغربى اللاتينى ، وقد قرر فيه رفض كل ماقرره المجمع الأول ، وقرر أن انبثاق الروح القدس من الآب فقط ، وقد صار كل مجمع يعتبر عاما عند مشايعيه ، كما يعتبرون الآخر خاصا ، بل باطلا غير ملزم ، وكل يكفر الآخر أو يفسقه « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

٩٣ — كان هذان المجمعان هما السبب فى انقسام الكنيسة إلى شرقية يونانية ، وغربية لاتينية. ورئيس هذه الكنيسة الغربية هو البابا ، وهو مستقل بسياستها

وله السلطان على كل الطوائف المنقادة إلى تعاليمها .

وتسمى الكنيسة البطرسية لكون مشايعيها يعتقدون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول فى زعمهم ، ويزعمون أنه كبير الحواريين ورئيسهم ، ويقولون إنه رأس هذه الكنيسة ، والبابوات خلفاؤه من بعده ، وتسمى الغربية لكون سلطانها فى بلاد الغرب ويقول صاحب كتاب سوسنة سليمان « وهى تدعى أنها أم الكنائس ، ومعلمتهن وربما حق لها ذلك ، لجهة التفاسير التى تبنى عليها أصول التعاليم التقليدية ، ونظامات المجامع ، وترتيبها ، وهى أيضاً التى تأمر بها ، وتمتد شوكتها على الخصوص فى بلاد إيطاليا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال . وشعوبها منتشرة فى أقطار الأرض » .

الكنيسة الغربية أم الكنائس

وأما الكنيسة اليونانية ، ويقال لها أيضاً كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية ، فأكثر مشايعيها فى الشرق وسلطانها فيه ، وهى تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية فى كثير من التقاليد المسيحية ، ولكنها تخالفها فى انبثاق الروح القدس ، فتقول إنه من الآب فقط ، كما بينا ، ولا تعترف إلا بالمجامع السابقة على المجمع الذى أوجد الانفصال ، كما لا تعترف لبابا رومة بالسيادة أو الرياسة .

ولكن لمرور الزمن ، وما أحيط به من تقديس بين مشايعيه ، وعند الملوك ، ولكثرة معتنقى مذهبه ، تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم لا بالسلطان ، ويليه فى الرتبه بطريرك القسطنطينية . والمشايعون لها فى بلاد روسيا واليونان والصرب ، وكثير من جزر البحر الأبيض وغير هؤلاء .

المجامع اللاحقة كلها غير مسكونية إلا فى نظر الكنيسة الغربية

٩ ـ قد انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية كما علمت ، والمجامع الآتية كلها مجامع غير عامة فى نظر الكنيسة الشرقية ، لأن الأساقفة الذين كانوا يجيبون الدعوة فيها من أتباع الكنيسة الغربية فقط . ولذلك لا تعتبر تلك المجامع عامة إلا فى نظر الغربية .

محاولة التقريب بين الكنيستين

فالمجمع التاسع انعقد فى رومة سنة ١١٢٣ ، وأعظم قراراته شأنا الحكم

بأن تعيين الأساقفة ، ليس من شأن الحكام ، بل من عمل البابا وحده ،

والمجمع العاشر انعقد فى رومة أيضاً سنة ١١٣٩ . وكان أعضاؤه ١٠٠٠ عضو ، وقد حاول هذا المجمع إزالة الفرقة بين الكنيستين ، فلم ينجح .

والمجمع الحادى عشر الذى انعقد فى رومة سنة ١١٧٩ كان لوضع نظام التأديب الكنسى ، وفيه تقرر انتخاب البابوات بثلثى عدد الكرادلة .

وكان فى هذا العصر قد شاع القول باستحالة الخبز والخمر فى العشاء الربانى إلى جسد المسيح ودمه ، ولكن لم يقرر ذلك المبدأ .

حتى جاء المجمع الثانى عشر سنة ١٢١٥ وفيه تقرر ذلك المبدأ نهائياً ومبدأ آخر سيكون له خطر مع سابقه ، وهو مبدأ أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء .

وتتوالى بعد ذلك المجامع الكاثوليكية لأغراض عامة أو أقليمية ، وفى بعضها تتجدد محاولة توحيد الكنيستين المتصلتين ، وفى بعضها يتقرر التنقيب عن القلوب ، ومحاربة الخارجين عن التعاليم المسيحية .

وأهم هذه المجامع وأعظمها أثراً ، وأقواها عملا المجمع التاسع عشر الذى انعقد فى تريدنتوا والذى دام انعقاده من سنة ١٥٤٢ إلى سنه ١٥٦٣ ، وفيه الرد على البروتستانتية .

وختام هذه المجامع هو المجمع المتمم العشرين المنعقد فى رومة سنة ١٨٦٩ وفيه أثبتوا فيه العصمة للبابا .

وقد قال فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : (قد نشأ فى ذلك انقسام فى الطوائف الكاثوليكية ببلاد أوروبا والشرق ، والذين خالفوا هذه العقيدة من أهالى أوروبا سموا أنفسهم الكاثوليكيين القدماء ، ونهاية ذلك لم تزل مجهولة » .

الفرق المسيحية

٩٥ — من البيان الذى سقناه فى المجامع ، وما انعقدت بسببه من خلافات، يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتنقيها ، والغالب على كل نحلة سواه من نحلها ، وإنك لترى ذلك واضحا فيما بيناه من أن أريوس عندما ظهر مقاوما فكرة ألوهية المسيح ، ومنازعا كنيسة الأسكندرية فى ذلك المبدأ الذى كانت تبثه فى النفوس وهو ألوهية ، وتنادى به على رؤوس الأشهاد ، بينما كان أتباعه فى مصر وفلسطين والقسطنطينية ، (وهذه مواطن المسيحية فى ذلك الإبان) أكثر عدداً وأقوى مكانة ، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس ، وكل ذلك مع أن قسطنطين الامبراطور الحاكم بأمره الذى لامعقب لحكمه كان يشايع فكرة ألوهية المسيح ويناصرها ، ويحميها ويؤيدها ، كما بينا عند الكلام فى مجمع نيقية إذ أحمى القائلين إن المسيح فيه ألوهية بحمايته ، ووضعهم تحت ظله ، وأمدهم بالجاه والسلطان .

وإذا كان قد أتى حين كان فيه التوحيد هو السائد ، فيصح لنا أن نقسم عصور المسيحية إلى قسمين :

عصر التوحيد ، ونجعل نهايته الزمن الذى انعقد فيه مجمع نيقية ، أو ما ولى ذلك الزمن بقليل ، إذ غالب التوحيد فكرة ألوهية المسيح ردحا غير قصير من الزمن بعد مجمع نيقية .

والعصر الثانى عصر تأليه المسيح ، وذلك العصر يبتدىء بعد مجمع نيقية ، وبعد أن استطاع أمبراطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيد فى وسط المسيحيين ، ويمنعوا الموحدين من نشر دعاياتهم .

وإذن فمن الحق علينا أن نراعى هذا التقسيم عند الكلام فى الفرق القديمة

عند المسيحية ، فنقسم تلك الفرق إلى قسمين :

فرق ظهرت فى عصر التوحيد ، وربما كان وجود بعضها قبل مجمع نيقية إرهاصاً لعهد التثليث .

وفرق ظهرت فى عصر تأليه المسيح وعصر التثليث .

ونقصد بالفرق القديمة الفرق التى ظهرت قبل عصر النهضة فى أوروبا أى قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، ونقصد بالفرق الحديثة الفرق التى ظهرت بعد عصر النهضة ، وهى التى ظهرت فى عهد الإصلاح الدينى ، وما والاه .

الفرق التى ظهرت فى عصر التوحيد

٩٦ — والفرق التى ظهرت فى عهد التوحيد كثيرة ، وبعضها كان مستمسكا بالتوحيد ، ومعه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنا من السياق التاريخى وكما يستفاد من ثنايا التاريخ ، وبعضها كان قد انحرف عن التوحيد ، حتى كان وجوده تمهيداً للتثليث أو سيرا ببعض الخطوات فى سبيله .

وأظهر الموحدين أريوس وأتباعه ، وقد كانوا كثيرين ، فقد شرحنا أنه قد كان يأخذ بمذهبه بطريرك القسطنطينية وغيره من البطارقة ، وكان رأيه منتشراً فى مصر والشام ومقدونية ، وهى مواطن المسيحية كما علمت .

فرقة أريوس

ويقول ابن حزم فى بيان فرقة أريوس « والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالأسكندرية ، ومن قوله التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السماوات والأرض ، وكان فى زمن قسطنطين الأول بانى القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس » .

وهذا الكلام يحتاج جزؤه الأخير إلى نظر ، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب أريوس . وقد بينا عند الكلام فى مجمع نيقية ، أنه هو الذى تدخل بنفوذه وسلطانه ، فعزل أنصار لاهوت المسيح ، واعتبر المجمع مكونا منهم دون

سواهم ، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من ألفين فرفض رأى الكثرة ، وعقد مجمعا مؤلفا من ثمانية عشر وثلاثمائة ، بينما يذكر الثقات من المؤرخين أنه قد صرح بنصرة أريوس من المجتمعين أكثر من سبعمائة .

نعم إن الأريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبه إلى رأيهم ، وضمه إلى مذهبهم ليستفيدوا منه قوة وسلطانا ، فمال إليهم أخيراً ، أو أظهر الميل ، وإن كان لم يعمل على نصرة مذهبهم ، ولم يعقد مجمعاً ليقرر رأيهم ، كما فعل بالنسبة لغيره . وأقصى ما عمله أنه رد المحرومين إلى حظيرة المسيحية ، وأعاد المنفيين من منفاهم ، ومكنهم من الاستمتاع بنعمة الحرية ، ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة ، إذ رآهم كثرة المسيحيين الغالبة . وأقوالهم هى الشائعة الرائجة ، فأظهر الميل إليهم ، حتى لا ينتقضوا عليه .

أصحاب بولس الشمشاطى

٩٧ — ومن الموحدين الذين ظهروا أصحاب بولس الشمشاطى ، ويقول فيه ابن حزم : « كان بطريركا بأنطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه . وكان يقول لا أدرى ما الكلمة ، ولا روح القدس » .

ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيدا خالصا ، وأن عيسى ليس إلا رسولا من رب العالمين ، وأنه كان إذا عرض له البحث فى كلمة الله ، وروح القدس أمسك عن ذلك ، ولم يخض فيه ، وتوقف واعتصم بذلك .

ويظهر من هذا أن هاتين الكلمتين كانتا المثار الذى يثيرمنه أنصار ألوهية المسيح الشبهات حول التوحيد ، ليلقوا الريب فى نفوس معتنقيه ، فإذا استولى الريب عليهم ألقوا أمانيهم ، ووجدوا من الحيرة والاضطراب ما يتخذونه ذريعة إلى ما يريدون .

ويقول ابن البطريق في بيان مذهب بولس هذا : « إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الأنسى صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله ، ويقولون إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد ، ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية ، وهم البوليقانيون » .

هذا ماقاله ابن البطريق فى معتقد بولس الشمشاطى ، وهو لايختلف فى جوهره عن كلام ابن حزم الأندلسى فيه ، وإن اختلفت العبارات ، فالاصطفاء لتخليص الجوهر الأنسى هو ماعبر عنه ابن حزم بالرسالة ، والنعمة الإلهية التى حلت فيه هى الوحى واختياره ليكون رسول الله إلى الناس يهديهم ، والنبوة التى جاءت فى عبارة ابن البطريق حكاية لقول بولس هذا كناية عن المحبة ، ولعل بولس لم يجرها على لسانه ، أو لم تجىء فى بيانه ، ولكن ابن البطريق المسيحى المثلث تكلم عن الموحدين بمنطقه وتعبيره ، وإن كان المراد غير موافق للمثلثين .

دخول الوثنية على التوحيد

٩٨ — وكان بجوار الموحدين الذين كانت أقوالهم السائدة المنتشرة فى ربوع المسيحيين ، وجدت آراء كثيرين ممن دخلوا فى المسيحيين وفيهم بقايا الوثنية ، ولا تزال رؤوسهم مملوءة بما درسوه ، ففهموا المسيحية على ضوء ماعرفوه أولا . واحتضنوا المسيحية متمثلة فى نفوسهم بما استكن فى تلك النفوس من آراء ومعتقدات سابقة ، وإن ذلك ليشبه من بعض الوجوه تلك النحل المختلفة التى ظهرت فى المسلمين فى إبان الفرقة التى تلت مقتل الخليفة الثالث والرابع . وما أدخل من آراء ونحل فى عصر يزيد ومن وليه .

ولكن الإسلام بنور القرآن الكريم وحفظه . وهدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وما استحفظه عليه المسلمون من كتاب وسنة ، وما كلأ الله به هذا الدين

المتين — قد نفي عنه الدخل وذهب الزبد جفاء ، وبقي الدين ، كما بعث به نبيه عليه السلام صافياً من غير رنق ، ولا تكدير .

أما في المسيحية فلأن الكتب قد عراها ما بيناه في الكلام عليها ، واختلط فيها الغث والسمين والطيب بالخبيث ، وضلت العقول ، فلم تستطع أن تميز بين الصحيح وغير الصحيح ، وذهب الكوكب السارى الذى يضيء وسط الدجنة الحالكة ، وهو كتاب مبين لا يأتيه الباطل ، ولا يتطرق إليه الريب ، يكون فيصل التفرقة بين المسيحية الحق ، والأساطير الباطلة التى أفسدتها .

اتباع مرقيون

دخلت تلك الأوهام على المسيحيين الموحدين وبرزت بينهم ، كما تبرز رءوس الشياطين ، وسط أرض قد كسيت بالسندس الأخضر من الزرع ، وجاءت على نحل مختلفة ، وأهواء متباينة ، ونزعات متضاربة ، وبأسماء كثيرة .

فمنهم من كان يقول إن هناك آلهة ثلاثة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهم ، وهم أتباع مرقيون .

ولعل هذه النحلة من آثار المجوس ، لأنهم هم الذين يقولون بإله الخير وإله الشر .

ولقد قال ابن البطريق في هذه النحلة وأصحابها « زعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين ، وأنكروا بطرس » فالمنتحلون لهذه النحلة يزعمون أن مرقيون داعيتها والمنادى بها حوارى من حواريي عيسى عليه السلام ، بل كبير الحواريين وشيخهم ، والمقدم فيهم ورئيسهم .

البربرانية

ومنهم فرقة تسمى البربرانية كانت تقول إن المسيح وأمه إلهان ، ولعل هؤلاء هم الذين ذكرهم الله تعالت كلماته في قوله تعالى مبينا ما يكون بينه سبحانه وتعالى ، وعيسى عليه السلام من قول يوم القيامة : « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » . ولعل فريقا منهم كان موجوداً عند نزول القرآن الكريم .

نحل أخر

ويقول ابن البطريق في بيان بعض فرق كانت موجودة قبل مجمع نيقية :

« ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية ، وهى مقالة بابليدوس وشعبته ، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر ، وإنما مر فى بطنها ، كما يمر الماء فى الميزاب لأن الكلمة دخلت فى أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعته وهى مقالة إليان وأشياعه » .

ضياع التوحيد بسبب تحريق الكتب

٩٩ — هذه هى بعض المقالات والأهواء والنحل التى جاءت فى عصر التوحيد ورنقت صفاءه ، وكانت نكتا سوداء فى وسط المسيحية الحق النضرة ، ولقد كان من الممكن أن تزول تلك الأمور العارضة ، ويبقى الأصل سليما نقياً ، لم يتأشبه شىء من المفاسد ، ولكن شرط ذلك أن يكون ثمة كتاب محفوظ لا يعتريه الشك من أى جانب ، ولا يتطرق إليه الظن والاحتمال ، ليكون ميزاناً للحق والباطل ، وليكون مقياساً تقاس به الآراء ، وليكون مرجعاً يرجع إليه المختلفون .

ولكن الاضطهادات التى نزلت بالمسيحيين ، ومصادرة الكتب وتحريقها بأمر الرومان ، والأيدى العابثة المفسدة ، كل هذا جعل مصادر المسيحية يعتريها الشك والريب ، ومن وراء ذلك نفذت الأهواء والأساطير إلى القلوب ، وأخذت تنال من المسيحية وصميمها من غير أن يعقب معقب بنص قاطع معتمد ، وكتاب ثابت السند .

فكل نحلة تدعى لا تجد رداً لها من نص ، وهى تروج لدى العامة لا بقوة الدليل أو النص ، بل بقوة الداعى ومقدار لحنه بالحجة الباطلة ، والصحيحة ومقدار نشاطه وبيانه وسعة حيلته ودهائه ، ودربته على جذب الجماهير .

ولقد كان جمهور المسيحيين يقدس المسيح أبلغ تقديس ، فكانت مهارة الدعاة وقوتهم البيانية متجهة إلى هذه الناحية ، يزيدون فى تقديس المسيح فيزيدون كلامهم قبولا لدى العامة ، ثم انتقلوا من التقديس المعقول إلى الغلو المرذول ، فغالوا حتى عدوه إلها .

وهكذا أخذت العقيدة تفسد ، وكان العامة بين حبلين قويين ، وكل حبل فى يد عصبة من أولى القوة ، فحبل التوحيد ، ومعه العقل ، ومعه الأصل ، ومعه السيادة للتوحيد ، وحبل آخر قد أخذ يجتذب العامة إليه بقوة ، وعمل على أخذهم بعاملين : عامل الاستهواء جاء من الناحية التى يحبونها ، وأرضى شهوتهم فيها. وهى ناحية تقديس المسيح عليه السلام ، وأخذ يلقى تعاليمه فى النفوس ، وقد وضعها فى ذلك اللون الشهى ، وذلك الطعم المستساغ .

العامل الثانى : عامل السلطان والجاه بتقريب من يقول مقالة تأليه المسيح ، وإدنائه من ذوى السلطان ، وتمكينه من الرقاب ، وتغريب من لا يقول هذه المقالة ، واضطهاده ، وإبعاده عن حظيرة المسيحية ، ولعنه وطرده ، وتصويره للناس بصورة من لا يقدس المسيح ، ولا يرجو له وقارا وإجلالا .

كان العامة بين هذين العاملين مع فقد الكتب المسيحية القاطعة فى الاستدلال والتى تقف المغالين عند حد الاعتدال ، وقد كانت كفة التوحيد هى الراجحة ، حتى بعد مجمع نيقية ، ولكن جاءوا بعد ذلك ، وأخفتوا صوت المنادين بالتوحيد وحيل بينهم وبين ما يدعون إليه ، ولم يمكنوهم من أن تصل دعوتهم إلى العامة فصار العامة بعد ذلك لا يسمعون إلا جانباً واحداً ، وخاضعين لعامل واحد ، وهو الخروج عن نطاق التوحيد ، فتم للحكام ، والقسيسين ما أرادوا ، واختفى دين المسيح عليه السلام ، وقام دين البطارقة والقسيسين .

الفرق القديمة فى عهد فى التثليث

١٠٠ — بعد مجمع نيقية أبعد التوحيد رسمياً عن الديانة المسيحية ، وإن كان اتباعه أكثر عددا ، وأعز نفرا ، ولم تستطع الحكومة الرومانية أن تقضى على التوحيد بذلك المجمع ، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة فى الكنائس ، ولا تجعل صوتهم يصل إلى الشعب بالنفى والتشريد ، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد ، حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد ، وفعل الزمن فعله ، وتغلبت الظلمة على النور ، وأخفى ظلام الليل نور النهار الساطع — وعندئذ كانت الفرق التى تظهر بعد ذلك فى ظل ألوهية المسيح فى الجملة إن استثنينا مقدونيوس وفرقته .

فرقة مقدونيوس :

وأول فرقة ظهرت فى ذلك العصر فرقة مقدونيوس هذا ، فقد أنكرت أن يكون روح القدس إلها . وقاومت ماترمى إليه الكنيسة العامة من فرض تلك الألوهية ، ودعوة الناس إليها ، وحثهم على اعتناقها ، ولعل مقدونيوس هذا كان من الموحدين الذين لا يزالون يعتنقون التوحيد ، ويشايعون فى ذلك أريوس وسائر الموحدين ، وإن كانت الغلبة لغيرهم ، فهاله أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح ، ويثنون بتأليه الروح القدس ، فجاهر بإنكار الثانى ، لأنه لم يعد فى قوس الصبر منزع .

يقول ابن البطريق : «وفى عشر سنين من ملكه (قسطنطين بن قسطنطين الثانى) صير مقدونيوس بطريركا على القسطنطينية ، وكان يقول : إن روح القدس مخلوقة ، وأقام عشر سنين ومات » .

ولكن مقالته لم تمت بموته بل كان له أشياع واتباع خصوصاً من بين الموحدين الذين لم يزولوا من المملكة الرومانية ، وإن أصبحوا فى الجملة لا سلطان لهم .

لأجل ذلك انعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ . وقد ذكرنا بعضا من قراراته وكان المقرر والمناظر والمجادل فى هذا المقام بطريرك الاسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة ، كما نوهنا آنفا ، ويسمى المقدونيون الأبولنياريين ، فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان فى بيان المجمع القسطنطينى : « المجمع القسطنطينى المنعقد سنة ٣٨١ بأمر ثيودوس الملك ضد الأبولنياريين ، وهم المقدونيون تثبيتا للاهوت الروح القدس » .

ويعتقد الكنسيون أن إنكار ألوهية الروح القدس وليد من مذهب الموحدين ، فيقول صاحب كتاب تاريخ الكنيسة : وقد انبعث من جوف هذه الأرطقة (رأى أريوس) أرطقة أخرى لم تكن أقل مناقضه للثالوث الأقدس فكانت تنكر ألوهية الروح القدس ، وكان منشئها مقدونيوس ، وهو نصف أريوسى قد أختلس كرسى القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الأريوسى ، ولم تكن له شهرة خصوصية فى بهوة الأسجاسى التى أحدثها الأريوسيون » .

وهذا زعم له نصيب من الواقع ، لأن الذين ينكرون ألوهية المسيح ، ويعتقدون التوحيد الصحيح لا يقرون بألوهية الروح القدس .

ولكن يجب أن يلاحظ أنه فى الوقت الذى أنكر فيه مقدونيوس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت فى مجمع عام ، وقد يكون موضع حديث البطاركة وتعاليم بعضهم كون الروح القدس إلها ، فتصدى مقدونيوس لإنكار ذلك ، وتلقى الناس كلامه بالقبول ، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنين .

النسطوريون :

١٠١ — هذه النحلة تنسب إلى نسطور ، وقد كان بطريرك القسطنطينية ومكث فى هذا المنصب أربع سنين وشهرين ، وقد رأى أن مريم العذراء لم تلد الإله ، بل ولدت فقط الإنسان ، وهو بذلك يرى أن الأقنوم الثانى ، وهو الابن لم يتجسد وتلده مريم كما يرى غيره من المثلثين ، بل كان يرى أن مريم ولدت الإنسان فقط ، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثانى ، وليس ذلك الاتحاد بالمزج وجعلهما شيئاً واحدا ، أو ذلك الاتحاد ليس اتحاداً حقيقيا ، بل كان اتحاداً مجازيا . لأن الإله منحه المحبة ، ووهبه النعمة ، فصار بمنزلة الابن ، وهذا التخريج لاشك يؤدى إلى أن المسيح الذى خاطبهم وكلمهم ، وحوكم وعوقب فى زعمهم ، لم يكن فيه عنصر إلهى قط ، فلم يكن إلها ولا ابن الإله .

وقد نقلنا فيما مضى عند الكلام على المجمع الثالث أن صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية تقرر أن كلام نسطور معناه ، أو يلزمه منه حتما إنكار ألوهية المسيح .

ولما قال نسطور ذلك القول كاتبه كيرلس بطريرك الاسكندرية ، ويوحنا بطريرك أنطاكية فى ذلك الإبان ، ليعدل عن رأيه ، فلم يصغ إليهما ، ولم يجب طلبهما ، فانعقد مجمع إفسس سنة ٤٣١ ، وقرر لعنه وطرده ، وإثبات أن مريم العذراء قد ولدت الإنسان والإله .

وقد بينا ذلك القرار ببعض التفصيل عند الكلام على ذلك المجمع .

ولقد أبعد ذلك نسطور عن منصبه ، ونفى ، فسار إلى مصر وأقام فى أخميم إلى أن مات .

ويقول ابن البطريق : « كانت مقالة نسطور قد اندثرت ، فأحياها من بعده بزمان برصوما مطران نصيبين فى عهد قباذ بن فيروز ملك فارس ، وثبتها

في الشرق ، وخاصة أهل فارس ، ولذلك تكاثرت النسطورية في الشرق ، في العراق والموصل والجزيرة » .

ولا يزال إلى الآن فى الأماكن التى ذكرها ابن البطريق نسطوريون ينتحلون هذه النحلة ويأخذون بهذا المذهب .

ويقول صاحب سوسنة سليمان : « إن النسطوريين فى هذا العصر يسمون الكلدان يسكنون خاصة فيما بين النهرين ، والبلاد المجاورة لها ، ولهم تعاليم كثيرة مختصة بهم ، غير أنهم يمتازون عن باقى المذاهب باعتقادهم أن نسطوريوس حرمه مجمع إفس ظلماً . أضف إلى ذلك اعتقادهم بأنه لم يكن فى المسيح طبيعتان فقط بل أقنومان أيضا ، وكان يحسب هذا المعتقد فى الزمن القديم ضلالا مبيناً ، وأما فى هذا الزمان فيحسبه العلماء ، حتى الكاثوليك الرومانيون ، غلطاً لفظياً لا معنويا ، لأن هؤلاء الكلدانيين يعتقدون أن فى المسيح أقنومين ، كما أن فيه طبيعتين ، ويقولون أيضاً بأن هذين الأقنومين ، وهاتين الطبيعتين قد التصقتا حتى صار منهما رؤية واحدة » .

وهذا الكلام يدل على أمرين : أحدهما أن الكنيسة الرومانية التى كانت تشدد فى القرون الخالية فى طرد كل من يخالف معتقدها ، وتعده كافرا لا يلج الإيمان قلبه قد تساهلت فى هذه الأعصر ، فوسعت صدرها للمخالفين لها ، وتأولت لهم ، لتدخلهم فى حظيرتها بعد سابق الحرمان والطرد واللعن ، والتكفير .

ثانيهما : أن النسطوريين قد انحرفوا عن مبادىء نسطور ، لأن نسطور كما قررت صاحبة كتاب تاريخ الأمة القبطية ، وكما قرر ابن البطريق ، لا يرى أن الأقنوم الثانى مازج المسيح قط ، بل هو يرى أن بنوة المسيح بالموهبة والمحبة لا بالحقيقة ، واستنبطنا ، كما استنبط غيرنا أنه يرى أن المسيح خال من العنصر الإلهى خلواً تاماً ، وهو يصرح بأن مريم ولدت الإنسان فقط ، بينما غيره يقرر

أنها ولدت الإله والإنسان ، وهذا إختلاف جوهرى فى الحقيقة والمعنى لا فى الشكل واللفظ ، وإذا كان النسطوريون فى هذا الزمان قد قالوا بامتزاج اللاهوت فى الناسوت ، كما يقول غيرهم ، فقد انحرفوا عن مقالة نسطور .

والنسطوريون يقيمون كما ذكرنا فى بلاد العراق والموصل . ومنهم طائفة تقيم فى الهند ، وأخرى تقيم فى بلاد العجم . وهم جميعاً لا يلتزمون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به غيرهم من الكنسيين ، وليس عندهم من تقليد إلا أن أساقفتهم يلتزمون التبتل ، والامتناع عن الزواج ، وذلك من منذ سنة ١٨٣٠ م وهذا كما جاء فى كتاب سوسنة سليمان .

اليعقوبيون :

١٠٢ — هم أتباع يعقوب البراذعى ، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان ، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت ، ونسبة ذلك المذهب إلى يعقوب البراذعى لأنه من أنشط الدعاة إليه ، لا لأنه مبتدعه ومنشئه ، فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا. فإن أول من أعلنه بطريرك الإسكندرية فى منتصف القرن الخامس الميلادى .

وبسبب ذلك الإعلان انعقد مجمع خليكدونية ، وقرر أن المسيح ذو طبيعتين لا طبيعة واحدة ، وبسبب ذلك القرار انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية ، أما يعقوب فقد وجد فى القرن السادس الميلادى ، ويقرر صاحب سوسنة سليمان فى إطلاق اسم اليعقوبيين على أصحاب هذا الرأى « يطلق عليهم اسم يعقوبيين نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى أعاد هذه الشيعة ، ورتبها فى القرن السادس للتاريخ المسيحى ، بعد أن كادت تتلاشى » .

وقد فصلنا الكلام فى هذه النحلة والأدوار التى مرت عليها عند الكلام فى

مجمع إفسس الثانى الذى تسميه الكنيسة الكاثوليكية مجمع اللصوص . وفى مجمع خلميكدونية .

فلا نعيد ما ذكرناه ، حتى لا نقع فى التكرار الممل .

والذين يقولون إن المسيح ذو طبيعة واحدة ، ينقسمون إلى أسيويين وأفريقيين ، ولكل قسم رياسة دينية خاصة به .

فرئيس الأسيويين هو بطريرك السريان ، ومن هؤلاء الاسيويين من اعترفوا برياسة الكنيسة الكاثوليكية ، فقبلتهم وإن استمروا على رأيهم .

ورئيس الأفريقيين هو بطريرك القبط المقيم بالقاهرة ، ويتبعه فى هذه الرياسة سكان الحبشة المسيحيون ، فهم خاضعون لبطريرك الكنيسة القبطية ، وهو يعين لهم أسقفا يسوسهم .

ومن الذين يعتقدون أن المسيح ذو طبيعة واحـــدة ـ ويتحدون مع الكنيسة القبطية فى ذلك الاعتقاد ، ولكنهم لهم تقاليد دينية وطقوس ـ ولهم بطاركة يرأسونهم . ولا يندمجون فى كنيسة القبط . ولا كنيسة السريان بآسيا ـ الأرمن .

المارونية :

١٠٣ ــ هم أتباع يوحنا مارون . وقد اشتهر يوحنا هذا برايه سنة ٦٦٧ ـ ودعا إليه وشايعه بعض القسيسين فيه ، ومعهم بعض من مسيحيي آسيا ، وهو أن المسيح ذو طبيعتين ، ولكنه ذو إرادة أو مشيئة واحدة ، ومن أجل هذه النحلة الجديدة اجتمع المجمع العام السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠ من بعد الميلاد ، وقرر حرمان مارون ، ولعنه وتكفيره . وكل من يذهب مذهبه ، وينتحل نحلته . وقد أشرنا إلى ذلك المجمع ، ونقلنا لك قراره فى هذا المذهب ، فلا نعيد نقله .

ويظهر أن المنتحلين لهذا الرأى لم يكونوا ذوى شوكة وقوة حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد ، فقد نزلت بهم اضطهادات شديدة لم يكن لهم من يدفعها عنهم إلا الفرار ، فلم يجدوا لهم مأمنا يعتصمون به إلا بعض البلاد فى جبل لبنان ، فاعتصموا بها ، وقد استمروا على اعتصامهم وبعدهم ، حتى أدنتهم إليها الكنيسة الرومانية ، وقربتهم منها ، وأعملت الحيلة والسياسة ، حتى أعلنوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها على أن يبقوا على رأيهم ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد ، وما زالت هذه الطائفة متوطنة بجبل لبنان ، ولها بطريرك خاص . وإن كان تقر بالرياسة لبطريرك روما .

الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

أساس انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية

١٠٢ — كان فيما ذكرنا أعظم الانقسام القديمة شأنا ، وأبعدها أثراً ، إن استثنينا الكنيسة القبطية انقسام الكنيسة إلى يونانية ولاتينية وما يتبع ذلك الانقسام من انشقاق فى المسيحية كلها ، وما انفرع من الأولى من فروع وفرق ، وإنا نكتفى بهذا القدر من القول فى الفرق القديمة التى مازال منها بقايا إلى أيامنا الحاضرة ، ونختم القول فيها بانقسام الكنيسة إلى يونانية شرقية ولاتينية غربية ، وقد نوهنا إلى هذا الانقسام عند الكلام فى المجامع ، وأشرنا إلى أسبابه بالإجمال .

وقد تبين من هذا أن أساس الخلاف بين كنيسة القسطنطينية التى آلت إليها رياسة الكنيسة الشرقية اليونانية قاطبة ، وكنيسة رومة التى آلت إليها رياسة الكنيسة الغربية اللاتينية أمران :

أحدهما ـ يتعلق بالاعتقاد ـ وهو أن كنيسة القسطنطينية ومن والاها من بعد اعتقدوا أن الروح القدس من الآب وحده ، لامن الآب والابن ، وكنيسة رومة ومن والاها قد اعتقدوا أن الروح القدس منبثق من الآب والابن معاً ، وعقد كل مجمعا شايع اعتقاده وتابعه فيما اقتنع به ، وكان المجمع المشايع لرومة سنة ٨٦٩ ، والمشايع للأخرى بعده بعشر سنوات سنة ٨٧٩ .

ثانيهما : لايتعلق بالاعتقاد ، ولكن يتعلق بالرياسة الكهنوتية ، أهى الكنيسة القسطنطينية أم لكنيسة رومة ؟ لقد قرر المجمع الذى شايع رومة أن تكون لرومة ، فرئيس كنيستها هو الحبر الأعظم ، والرئيس الروحى للجميع . وقرر المجمع الذى شايع القسطنطينية رفض تلك الرياسة وعدم الاعتراف بها ، ويعتبرون رئيس القسطنطينية رئيساً عاما للكنائس .

ولقد تبع هذا الاختلاف فى تلك المسألتين الرئيسيتين خلاف فى مسائل أخرى أوجدها تتابع السنون واستمرار الشقاق ، فقد كثرت أوجه الاختلاف فى مسائل فرعية منها :

١ — استعمال الفطير فى العشاء الربانى بدل الخبز ، فإن ذلك أقرته الكنيسة الغربية ، ولم تعترف به الكنيسة الشرقية .

٢ — أكل الدم والمخنوق ، فإن الكنيسة الغربية أباحته وهو مخالف لمجمع الرسل فى أورشليم الذى انعقد بعد مفارقة المسيح بنحو اثنتين وعشرين سنة .

٣ — أكل الرهبان دهن الخنزير ، فهو مباح عند الكاثوليك دون الكنيسة الشرقية .

٤ — لبس الأساقفة الخواتم فى أصابعهم وحلق الكهنة لحاهم .

وجاء فى حاشية لكتاب سوسنة سليمان مانصه: « يوجد اختلافات غير هذه بين الروم واللاتين لم يصرح بها هؤلاء البطاركة ، وربما كان ذلك لكونها ما كانت تحددت وقتئذ كقاعدة دينية فى كنيسة رومة ، كالمطهر الذى لم يثبت إلا فى مجمع فلورنسا المنعقد فى سنة ١٤١٩ ، ثم أوجب قبوله على كل الكنائس الغربية المجمع التريدنتينى فى القرن السادس عشر .

أما الفرق بينه وبين عقالات جهنم التى يقررها الروم ، فهو أن المطهر نار مطهرة يتخلص منها الخاطىء بعد أن يقاص فيها بمقدار جرم ذنوبه . أما عقالات الجحيم ، وهى نظير حبس يقيم فيه الخطاة إلى يوم الدينونة الذى به ينالون القصاص الأبدى فى جهنم ، والصلوات التى يقدمونها لأجل الموتى ، يعتقدون أنها تلطف نوعا أحوال هذا الحبس عليهم تلطيفا وقتيا فقط » .

وكذلك منع الشعب من الاشتراك فى الكأس إذ لم تثبته كنيسة رومية إلا فى مجمع كونستانس سنة ١٤١٥ » .

تقادم الزمن يوسع الخلاف

١٠٣ — كان كلما تقادم الزمن على النقطة التى ابتدأ منها الخلاف اتسعت فرجاته ، وكبرت زاوية الانفراج ، وكلتا الكنيستين ذات بأس وقوة ، وكانت فى القديم لها دولة تحميها ، إذ كانت دولة الرومان منقسمة إلى شرقية وغربية ، فكان استقلال كل واحدة من الدولتين وانفصالها عن الأخرى مما أكد الفرقة ، وقوى الانقسام .

ولقد كان يأتى الفينة بعد الأخرى صوت يدعو إلى الوحدة والالتئام بدل الاستمرار على الفرقة والانقسام ، فتعقد لأجل هذا مجامع ، وترسل الوفود ، ولكن ما إن يتلاقى المتخاصمان ، حتى تعاد أسباب النزاع جذعا ، إذ كل واحدة ترغب فى أن تنزل الأخرى عن رأيها ، فتلاحى كل واحدة عما تعتقد ، فيشتد الجدل ، ويحمى وطيس القول ، فيفترقان ، وقد زادت القطيعة قوة واحتداما .

محاولة لإزالة الخلاف

حاول أحد بطارقة روما فى منتصف القرن الحادى عشر أن يجمع الشتات ، ويلم الشمل ، وعرض مبادىء تكون أساسا للمصالحة ، فرفضها بطريرك القسطنطينية ، وأصدر الأول قراراً بحرمان الثانى ، فأصدر هذا قراراً بحرمان الوفد الذى عرض عليه الشروط .

وهكذا ازدادت الفرقة بسبب ذلك التلاقى . وأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ويظهر أن السبب فى ذلك ماتعتقده كل واحدة منهما من أن الأخرى خارجة على الدين ، ورغبة كل واحدة فى أن تجتذب الأخرى إليها ، كما بينا .

انتقاد مسيحى للكنيسة الغربية

ويقول فى ذلك صاحب سوسنة سليمان : « إن الكنيسة الرومانية تدعى أن كل المذاهب المسيحية على وجه الإطلاق هى شيع هرطوقية خارجة منها ، ومنفصلة عن شركتها ، وهذه الدعوى تصح لأية كنيسة أمكنها أن تثبت لذاتها الأقدمية

في الثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية . أما كنيسة رومة ، فليس لها في هذه الدعوى إلا الاستيلاء على أمانة صندوق التقليدات .

غير أن سلامة الذوق تقتضي بأنه كلما قلت التقاليد في كنيسة من الكنائس دل على أقدميتها بالنسبة التي تزيد عليها فيما هو من هذا القبيل ، لأن التقاليد على ما يستبين من مجريات رومة قابلة للزيادة ، والزيادة إحداث ، والإحداث في الدين لا ريب في أنه بدعة ، والإبداع هو عين ما يسميه المسيحيون هرطقة » .

وترى من هذا أن صاحب هذا الكتاب ينتقد الكنيسة الغربية بكثرة ما أحدثته من تقاليد ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة هرطقة كما يعبرون، ولعل السبب في ذلك النقد ليس مجرد الحق ، بل كونه ليس من مذهبها ، وإلا كان كل ما تقوله مقدساً لا بدعة فيه .

بطاركة الكنيسة الشرقية

١٠٤ — قد بينا البلاد التي تتبع الكنيسة الغربية ، وكانت فيما مضى كل أوروبا تقريبا ، وبعض طوائف في آسيا .

أما البلاد التي تتبع الكنيسة الشرقية ، فأكثرها في الشرق ، كما أسلفنا من القول ، ولها بطاركة .

أولهم بطريرك القسطنطينية ، وهو كبيرهم ، ويضيفون إلى لقبه وصف أنه البطريرك المسكوني ، ويقول صاحب سوسنة سليمان : « إنه ليس إلا لقبا تشريفيا فقط ، فليس له تسلط على غيره من البطاركة أو الأساقفة المستقلة بوجه قانوني أصلا » .

ويليه في الرتبة والمكانة الدينية بطريرك الإسكندرية للأروام الأرثوذكس ، ثم بطريرك أنطاكية ، ثم بطريرك أورشليم ، ثم المجمع الروسي ، ثم عدة مجامع لأسقفيات مستقلة أخرى كأسقفية أثينا ، وأسقفية قبرص وغيرهما .

وشوكة تلك الكنيسة تمتد في بلاد روسيا واليونان والصرب وكثير من جزائر بحر الروم .

وقد ظهرت فى روسيا التى كانت تسودها هذه الكنيسة شيع وفرق كثيرة بلغ عددها نحو مائتى نحلة ، وتعداد أصحاب هذه الفرق الجديدة مجتمعة لا يزيد عن خمسة عشر مليونا .

فمنهم فرقة لا ترى تعميد الأطفال ، ومنهم شيعة تحسن للنصرانى أن يقتل نفسه فى حب المسيح ، ومنهم شيعة يحرقون أنفسهم لتعمدهم النار ، فيتطهروا بها . ومنهم شيعة تلتزم الختان باعتباره كان فى المسيحية الأولى ، وفى التوراة التى تعتبر النصرانية مجددة لها ، وهكذا تختلف النحل وتتباين ، وكل واحدة تعتقد أن رأيها هو محض الحق المبين .

الإسلام يظل الكنائس الشرقية بحريته

١٠٥ — ذكرنا أن العلاقة بين الكنيستين على أشد ما يكون الخلاف ، كل تعد الأخرى قد خرجت عن نطاق الدين ، وقد كانت الحال من قبل كذلك بين كنيسة القبط بمصر ، والكنائس الأوروبية ، وقد نزل بمصر أشد البلاء ، ولم ينقذهم إلا الفتح الإسلامى ، فمن وقت حكم المسلمين لمصر والشام إلى الآن شعر المصريون بحريتهم الدينية التى لم يستمتعوا بها من قبل ، حتى أهداها إليهم الإسلام السمح الكريم .

ولما اختلفت الكنيسة الغربية مع الكنيسة الشرقية كان من المنتظر أن تنزل إحداها بالأخرى أشد البلاء ، ولكن ذلك لم يتم أول الأمر لانقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية ، واعتصام كل واحدة منهما بدولة ، لذلك لم تتمكن واحدة منهما من رقبة الأخرى ، فلم تقبض على ناصيتها .

ولكن لما أخذت الدولة الشرقية فى الانحلال ، وغلبها المسلمون على بعض أملاكها ، وأخذوا ينقصونها من أطرافها ، أخذت ترجح إحدى الكفتين على الأخرى فقويت الغربية ، وصارت لها السيادة ، واعترف بطريرك القسطنطينية له بالتقدم عليه فى الجلسة . وإن لم يعترف بأنها على حق فيما يختلفان فيه ، وما اختلفا فيه من قبل ، والبلاد التى اقتطعها المسلمون كانت تنعم بالحرية الدينية كشأن المسلمين فى معاملتهم لغيرهم .

ولما جاءت الحروب الصليبية ، استولى الصليبيون على أورشليم التابعة كنيستها للكنيسة الشرقية وغيرها من المدن الإسلامية التى يعيش فى ربوعها المسيحيون آمنين مطمئنين ، لا يزعجهم اضطهاد ، ولا يرنق صفاءهم ضغط ، ثم ثنى أولئك الصليبيون أتباع الكنيسة الغربية ، فاستولوا على دولة الرومان الشرقية نفسها ، فأنزلوا بأخوانهم من البلاء مالم يكونوا يعرفون .

ولنترك الكلمة المسيحى صاحب سوسنة سليمان ، فهو يقول : « حرك البابا أنوسنت الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة الشرقية من يد اليونان ، فافتتحوا القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، وداموا متسلطين عليها إلى سنة ١٢٦١ م فاستعملوا ما أمكنهم من البربرية فى الأراضى التى امتلكوها من بلاد سورية وفلسطين ، ليخضعوا بطاركة أورشليم ، وجميع الأكليرس اليونانى بواسطة الحبس ، وإقفال الكنائس إلى أن أحوجوهم أن يفضلوا مودة العرب حكام البلاد الأصليين على موادتهم ويختاروا تسلط شعب يرتضى بجزية على أن يتسلط عليهم ملك روحى طمعه وطمع قصاده لا يشبعان » .

حينئذ أحس أولئك المسيحيون بنعمة الإسلام عليهم ، ونعمة حكم المسلمين لهم ، فقد سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها الخسف والهوان ، ونقبوا عن قلوبهم ، وبحثوا عما تكنه الصدور ، ولكن نعمة الإسلام كانت تلاحقهم ، فلم ينقض زمن طويل ، حتى جاءهم الإسلام فى القسطنطينية وأعطاهم الأمن والدعة والقرار والاطمئنان ، حتى لقد قالوا كما حكى صاحب السوسنة : «عمامة السلطان محمد القائم ، ولا تاج البابا المثلث » .

وهكذا كان الإسلام رحيما تسع رحمته المخالفين .

الفرقة الحديثة «البروتستانت»[1]

أو الإصلاح الديني

حال الكنيسة قبل الإصلاح :

شدة الكنيسة على الناس والعلماء

١٠٦ — اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين ، وبالغت في فرض آرائها عليهم مبالغة تجاوزت حد الغلو ، ولم تسلك في ذلك سبيل الموعظة الحسنة ، والدعوة الصالحة ، والارشاد القويم ، ومخاطبة الأرواح والنفوس ، وتمكينها من أن تتبعها ، وهي حرة مريدة مختارة ، بل سلكت سبيل العنف وركبت متن الشدة ، فجعلت كل رأى في العلوم الكونية يخالف رأيها كفراً ، ولا تدعو معتنقه إلى الهداية ، وترشده إلى الرشاد ، كما يليق برجل الدين مع من يراه ضالا ، بل تكفر لأوهى الأسباب ، وتحرق أو تعذب من تراه كافراً بلا رفق ولا هوادة .

فهذا المجمع الثاني عشر من مجامع تلك الكنيسة وهو المجمع المسمى باللاتيراني الرابع المنعقد سنة ١٢١٥ يقرر استئصال الهراطقة ، ويعنون بذلك كل من يرى رأياً مخالفاً للكنيسة ، ولو كان رأياً في الكون أو طبائع الأشياء ، ولم تكتف الكنيسة بقتل من يجهرون بآراء تخالف آراءها ، بل أخذت تنقب على القلوب وتستكنه خبايا النفوس . وتكشف عن سرائر الناس بما أسماه التاريخ محاكم التفتيش ، التي دنست تاريخ الأديان بما ارتكبت من آثام ، وما أزهقت من

---

(١) سمى الذين اعتنقوا مبدأ الإصلاح الكنسي ، وخرجوا على الكنيسة الكاثوليكية بروتستنت ، لأنهم عندما أريد تنفيذ قرار الحرمان عليهم أعلنوا احتجاجاً يسمى بالإنجليزية برتست ، فسمي الذين أمضوا القرار بروتستنت أي المحتجين .

الأرواح ، وما سفكت من دماء وما عذبت من أحياء .

وإن جهر رجل من رجال الدين بالدعوة إلى الإصلاح ، داعياً رجال الكنيسة إلى أخذ الناس برفق ، وحاثاً رجال الدين على الأخذ بهديه كان عقابه الحرمان والقتل .

حدث فى أوائل القرن الخامس عشر أن أحس أساقفة فرنسا بوجوب إصلاح حال البابوات ، فانعقد لذلك مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفاً ، و١٨٠٠ من رجال الدين ، ولكن هذا المجمع انتهى فى قراراته بالأمر بإحراق يوحنا هوس مصلح كنيسة بوهيميا ورفيقة جيروم .

ولقد حرق وعذب فى هذا السبيل علماء استشهدوا فى سبيل العلم بسبب مظالم تلك الكنيسة ، وضيق صدر القوامين عليها .

ومما يذكر فى هذا أن أحد العلماء واسمه ابيلارد كان له رأى فى تكفير المسيح عن خطيئة آدم خالف به رأى الكنيسة فقال : ليست حياة المسيح وصلبه وما لاقى فى ذلك من تعذيب سبيلا لإرضاء الله وإنزال عفوه عن خطيئة الإنسان ، فعفو الله أيسر من ذلك وأقرب ، إنما لاقى المسيح ما لاقى إعلاناً لما يكنه قلبه من حب الله ، وعسى أن يثير فى الناس عاطفة الشكر وعرفان الجميل ، فيعيدهم إلى طاعة الله ، ولكنه ما إن قال ذلك القول حتى انعقد مجلس لمحاكمته ، فكان نصيب كتبه التحريق ، ونصيبه السجن الدائم ، حتى وافته منيته .

وجليلو يرى رأياً فى الكون فيسجن لذلك الرأى ، مع أن رأيه ليس من أمور الدين فى شىء .

فرض سلطانها على الملوك

١٠٧ — بالغت الكنيسة فى شدتها ، كما رأيت ، ولم ينج حتى الملوك من طغيانها ، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة ، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لا تتصل بالأخرى إلا اتصال محبة وسلام ، أو حرب وخصام ــ كان ذلك سبباً فى أن صار البابا لا سلطان لأحد من ولاة الأمر عليه ، وقد تقرر هذا من بعد كما صار تعيين البابوات باختيار المجامع ، لا بتعيين ملك

أو أمير ، مهما تكن قوته وسطوته ، وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأى نوع من أنواع الخضوع لأى ملك من الملوك ، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذى لا يرد على كل مسيحى ، مهما تكن مكانته ، يستوى فى ذلك الأمير والخفير ، والراعى والرعية ، فليس لأى ملك سلطان على البابا ، والبابا له سلطان على كل ملك ، لأنه مسيحى ، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين ولأن البابا خليفة ابطرس الرسول ، وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيساً على الحواريين من بعده ، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيح ينطق باسمه، ويتكلم بخلافته ، وينفذ بسلطانه ، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح ، وحارب دينه .

قرارات الحرمان تنال الملوك

وبهذا المنطق فرضوا أوامرهم على الملوك ، كما فرضوها على سائر الناس ، ولذا لم ينج بعض الملوك من قرارات المجامع بحرماتهم ، وطردهم من حظيرة المسيحية ، ولعنهم ، فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان : «المجمع الثالث عشر انعقد فى ليون من أعمال فرنسا سنة ١٢٤٥ بأمر البابا اينوسنت الرابع لأجل عزل فردريك ملك فرنسا وحرمانه ، وهذا المجمع لم تسلم كنيسة فرنسا حتى الآن بصحته أو بسلطانه مطلقا » .

لم ينج إذن الملوك من قرارات الحرمان والطرد ، وإن لذلك أثره فى نفوس شعوبهم ، كما أنه يحفز الملوك على العمل من جانبهم على حماية أنفسهم ، وهم فى ذلك لا يتمدمون عن أن يثيروا القالة فى رجال الكهنوت ، ويكبروا صغائرهم ، ويروجوا عنهم ما يحط من قداستهم ، حتى ينفردوا بالاحترام ، ولا يكون سلطان لأحد غيرهم .

١٠٨ — هذه هى الكنيسة فى معاملتها للناس ، عنف وزجر وقسوة ، لا إرشاد وهداية وإصلاح ، وهى تضرب كل من يتعرض طريقها ، لا تفرق بين

سائس ومسوس ، وحاكم ومحكوم ، وراع ورعية .

وقد احتكت لهذا بذوى السلطان ، فكان لا بد من مغالبة بينهما .

ولم يكن الأمر مقصوراً على الأذى البدنى تنزله بمن يخالفها ، ولو فيما ليس بينه و بين الدين نسب ، ولا يتصل به بسبب ، بل تجاوز ذلك إلى إرهاق المسيحيين بإتاوات مالية يفرضونها ، وضرائب كبيرة يأخذونها ، وعلى ذلك صار المسيحيون قاطبة يئنون تحت نير ثقيل ، سواء فى ذلك من خالف ومن وافق ، فالمخالف بالعذاب يهرأ به جسمه ، والموافق بالمال يثقل به ، وتفرض عليه ضرائب لأسباب غير معقولة وغير مقبولة أحيانا وما يجمع من أموال الفقراء والمحدودين التى حصلوا عليها بالكد واللغوب يتوزعه رجال الدين بينهم ، وينفقونه إسرافًا وبدارا فى سبيل تحقيق رغباتهم ، وبذلك كانوا يجمعون المال من غير حله ، وينفقونه فى غير حله أيضاً ، وبذلك انغمسوا فى شر ما فى هذه الدنيا ، وتركوا لب الدين .

استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة

١٠٩ — ولقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق فى فهم الكتب المقدسة عندهم ، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس ، ولا معقب لما تقول فى هذا التفسير ، أو فى أى رأى تبديه ، أو أمر تعلنه ، وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول ، وافق العقل أو خالفه ، وعلى المسيحى إذا لم يستسغ عقله قولا قالته أو مبدأ دينيا أعلنته أن يروض عقله على قبوله ، فإن لم يستطع ، فعليه أن يشك فى العقل ، ولا يشك فى قول البابا ، لأن البابا خليفة المسيح لسلسلة الخلافة التى بيناها .

ولقد كانت تعلن أموراً ماجاء بها الكتاب المقدس عندهم ، وماتعرض له المسيحيون الأولون ، ولا المجامع الأولى ، وهى أمور غريبة جد غريبة ، بعيدة عن القبول فى أحكام العقل جد البعد ، وتلزم المسيحيين بها ، وتفرضها عليهم فرضا ، ومن قال كلمة فيها فالويل له ، ينزلونه به فى الدنيا ، ولا ينتظرون حساب الديان فى الآخرة .

ونذكر للقارىء على سبيل المثال مسألتين كان لهما أثر فى الفكر المسيحى ، وبسببهما هما وغيرهما تقدم المصلحون فى جرأة ، داعين إلى إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغير الحسنى ، هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة ، ومسألة الغفران .

مسألة الاستحالة والغفران

١١٠ — أما مسألة الاستحالة فالأساس فيها ماعلمت فى شرح الشعائر النصرانية ، من أن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزاً ويشربون خمراً ، ويسمون ذلك العشاء الربانى ، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح ، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك ، فمن أكلها وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح فى جسده بلحمه ودمه ، وذلك أمر غريب فى العقل ، لايستطيع أن يستسيغه بيسر وسهولة ، بل لايستطيع أن يستسيغه قط ، إذ كيف يتحول الخبز لحماً ، وكيف يصير لحم شخص معين معروف ، وكيف تتحول الخمر دماً ، وتصير دم شخص معين معروف ؟ ذلك غريب ، بل مستحيل التصور والقبول فى العقل ، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته ، وإلا عرضوا للطرد والحرمان ، وهل ورد هذا الأمر فى الكتب المقدسة ، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل ، إنه أمر استقلت به الكنيسة ، وأعلنته وأيدته فى أحد مجامعها ، غير معتمدة فى ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم .

ولقد خالفت فى بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية ـ غيرها من الكنائس ، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الربانى لايكون بالفطير ، بينما تراه الكنيسة اللاتينية ، ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة ، ويعتقدون أنها غير ممكنة فى العقل ، ولا سائغة فى الفكر .

١١١ — أما المسألة الثانية فهى مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسىء

فى الدنيا ، فقد قررته الكنيسة حقاً لنفسها فى المجمع الثانى عشر أيضاً .

وقد جاء فى كتاب تاريخ الكنيسة فى بيان قرار المجمع فى هذا الشأن » « أنهى المجمع تعاليمه فيما يتعلق بأمر الغفران فقال: « إن يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الأيام الأولى قد أعلم المجمع المقدس ، وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى . والمثبتة بسلطان المجامع » .

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة ، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها ، غير أنه قد رغب فى أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديما ، والمثبتة فى الكنيسة ، لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل » .

هـــذا قرار المجمع ، وفيه تمكين للكنيسة من سلطان قوى جبار ، وهو سلطان مسح الذنوب ، وغفرانها مهما يكن مقدارها ، ومهما تكن قد دنست النفس، وأركست القلب ، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس، حتى لا يؤدى الإفراط فى منح الغفران إلى ترك التهذيب الدينى ، وهجر تعاليم الكنيسة ، والعبث بهدى الدين ، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع ، وراعت حق الرعاية ما أوصاها به من عدم الإفراط فى الإعطاء والمنح ؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق ، أن أفرطوا فى إعطائه إفراطاً شديداً ، وأنشئوا له صكوكا تباع وتشترى، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا ، ومتعة من متعتها، وبذل العصاة فى سبيلها المال، وما كان عليهم من حرج فى أن يرتكبوا ماشاءوا من الموبقات ، وينالوا ماتهوى الأنفس من معاص ، مادام ذلك يفتدى بمال قل أو جل ، وهـــذا نص صك الغفران الذى كان يباع بيع السلعة :

إفراط الكنيسة فى استعمال حق الغفران

صورة من صك الغفران

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يافلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة . وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات . والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها . وأيضاً من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر وأردك حديثا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة وأقرنك فى شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة . باسم الآب والابن والروح القدس » .

هذه صورة من صور صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام ، وتغفر ذنوب العاصى ماتقدم منها وما تأخر ، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهراً ، ثم لايصير قابلا لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا ، ومهما ينغمس فى المعاصى ، كأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم ، لايعوق حامله عائق ، ولا يرده عن الوصول خازن أو حارس .

هذا مايدل عليك الصك ، وهذا ما كانت تحاول الكنيسة أن تلقيه فى روع الناس تمكينا لسلطانها ، ورغبة فى نقودهم التي يبذلونها للكنيسة فى سبيل الحصول على ذلك الصك الذى يكون سر الأمان ، وطريق الوصول إلى الغاية .

لقد ابتدأت الكنيسة حق الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة ، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا .

ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق فى الغفران ، والشخص قوى يستقبل الحياة ، ولا يودعها ويقبل على متعها ، ولا يدبر عنها ، وغالت فجعلت لنفسها غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب ، ثم أغرقت فى المغالاة فاتخذها رجال الدين بابا من أبواب الكسب للكنيسة . ثم إنهم ينفقون ما يجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق ، وما قد يحرمانه ، وبذلك طم السيل ، حتى جاوز الحزام الطبيين .

سلوك رجال الدين الشخصى

١١٢ — وهل كان رجال الدين فى سلوكهم الشخصى ، وفى استمساكهم بعروة الأخلاق ، وهدى الدين يستحقون أن يبذل الناس فى طاعتهم ما يبذلون ويروضوا أنفسهم على الخضوع لآرائهم ، وقبولها بقبول حسن ، متهمين العقول إن حاولت التمرد والعصيان ، لأن حال رجال الدين بعيدة عن الظنة ، منزهة عن الريبة ، قد سموا بأنفسهم ، حتى ساموا فى العلو القديسين والشهداء والصالحين . وجعلوا أنفسهم عنوان العفة ، وبخع النفس عن الشر ، وافتدوا الفضيلة بأنفسهم ، أو عرضوا أنفسهم للفداء كما كانوا يرون أن المسيح قد فعل من قبل ؟ لقد كانت حال رجال الدين تحوطها الريب من كل جانب ، وتأخذهم الأنظار المتعقبة من كل ناحية من نواحى الحياة ، حرموا على أنفسهم الزواج إذ سادت الرهبانية ، وسيطرت على نفوسهم ، فجعلوا زواجهم حراما ، لينصرفوا لخدمة كنيسة الرب ، ويقوموا على سدانتها ، ويرعوها حق رعايتها ، ولكن ما إن توردت عليهم الأموال ، وكثرت أمامهم أسباب النعيم ، حتى فكهوا فيها مترفين وانغمسوا فى الملاذ يستطيبون أطيبها ، ويطلبون أشدها ، ولما مكنوا لأنفسهم من السلطان ، اندفع بعضهم فى طلبها اندفاعا ، ومنهم من استهتر فى سبيلها استهتارا . وخرجت حال بعض أولئك المنغمسين فى الخطايا من السر إلى الجهر ، ومن التستر إلى التفحش ، ومن الخفية إلى الإعلان ، واتصل بعضهم بالنساء

اتصال سفاح ، بعد أن حرموا على أنفسهم النكاح ؟ ولم تتمنع النساء المتصلات بهم من أن يعلن ذلك مفاخرات به ، وجاء من ذلك الاتصال الآثم أولاد لا آباء لهم ، ولكن لهم حظوة ، لأن بعض رجال الدين يعرفون آباءهم ، كما يعرفون أبناءهم ، فيمكنون لهم بسلطانهم الديني سلطانا دنيويا .

ولقد كانت تلك الحياة اللاهية العابثة الفاسقة ميزة اختص بها بعض رجال الطبقة العالية الدينية أنفسهم ، أما التحوت من رجال الدين ففي فقر مدقع ، وفي حياة هي أقرب إلى الدين المسيحي من حياة كبرائهم ، وذوي السلطان فيهم وفي الشعب .

ابتداء الإصلاح :

١١٣ — هذا سلطان الكنيسة ، وتلك حال رجالها ، يتدخلون في كل شيء ينقبون عن القلوب ، وقد سترها علام الغيوب ، ويرهقون من يتهمونهم بأقسى أنواع العذاب ، ويفرضون سلطانهم على الراعي والرعية ، حتى يتململ من تحكمهم الملوك والأمراء ، وذوو الفكر من الشعوب ، ويجبون الاتاوات ويفرضون الضرائب حتى كأنهم الجباة العشارون ، لا رجال الدين المهذبون ، ويعطون أنفسهم حق مسح الخطايا بعد اعتراف المذنب في آخر أيامه في الدنيا ، وأول أيامه في الآخرة ، ثم يغالون ، فيمنحون أنفسهم حق غفران الذنوب السابقة واللاحقة للقوى الصحيح ، ويكتبون في ذلك صكوكا يبيعونها بثمن قليل أو كثير ، ثم يقضون أو بعضهم حياة كلها لهو ، وحولهم الناس ينظرون .

ولقد بلغ السيل الزبى في العصر المشهور في التاريخ الأوروبي بعصر النهضة ، وفيه نهضت الإرادة الإنسانية ، والعقل الإنساني يفرضون وجودهما ، وفيه استطاع الأوربيون أن يروا نور الله في الإسلام ، والتدين الحقيقي فيما يدعو إليه

هذا الدين ، إذ اتصل الشرق بالغرب فيما قبس الغرب من دراسات تلقاها على أساتذة من المسلمين بشكل خاص ، ومن الشرقيين بشكل عام ، وفيه علم أن لاسلطان لأحد من رجال الدين على القلب ، وأن لا وساطة بين الله والعبد ، وأن لله قريب ممن يدعوه ، ويجيب دعوة الداعى إذا دعاه .

حينئذ أخذت الأقطار المتربصة تحصى على رجال الدين مايفعلون ، ووجد من بينهم من استنكروا حالهم ، وأخذوا يدعون زملاءهم إلى إصلاح حالهم ، ليردوهم إلى حكم دينهم قبل أن يفوت الوقت ، وقبل أن ينفض الناس ، وقبل أن يحملهم العامة على الإصلاح .

دعوة بعض رجال الدين إلى الإصلاح

ولقد جاهر بذلك جيروم وهوس ، ولكن كان نصيبهما أن أعدما تحريقا بالنيران ، وكان ذلك بقرار من مجمع كونستانس الذى انعقد من سنة ١٤١٤ إلى سنة ١٤١٨ ، ولقد قرر ذلك قتل هذين العالمين حرقا بالنار ؛ لأنهما دعوا الكنيسة إلى عدم الأخذ بما يسمى سر الاعتراف ، مبينين أن الكنيسة ليس لها سلطان فى محو الإثم أو تقريره ، وإنما التوبة مع رحمة الله هى التى تمحو الآثام ، وتطهر النفس من الخطايا ، ولقد تقدم إلى المجمع يوحنا هوس ليدافع عن آرائه ، وهذا ما قاله كاتب متعصب للكاثوليك فى ذلك الدفاع :

« لدى دخوله أخذ يعلن غواياته قبل انتظاره حكم المجمع على تعاليمه ، فقر الرأى على إلقاء القبض عليه ، وفوض المجمع إلى بعض أعضائه أن يفحصوا مؤلفاته وألحوا عليه أن يقلع عنها ، ولكنهم لم يستفيدوا شيئاً . . ووجدوا فى مؤلفاته فصولا كثيرة تتضمن أضاليل ، وقد خولوه الحرية ليوضح أقواله فى كل منها ، وحرضوه على الخضوع لحكم المجمع ، وعرضوا عليه صورة الرجوع عن ضلاله ، فأبى أن يمضيها ، وبقى مصرا على غيه ، ولم يشأ المجمع أن يتوصل معه إلى المضايقة الأخيرة ، بل حاول مرارا أن يرده عن عناده ، فحكموا أولا

على كتبه بالتحريق رجاء أن يخيفوه بذلك ، لكنه لبث مصراً على عناده ، فحينئذ حطوه عن الدرجات المقدسة حطا احتفاليا ، وأسلموه لحكومته ، فحكمت عليه بالحرق حيا بمقتضى نواميس المملكة ثم نال جيروم تلميذه وقرينه فى العناد هذا العقاب نفسه .

أما المجمع فلم يطلب قط هذا العقاب بل ترك للقضاء المدنى أن يعمل بموجب شرائع المملكة التى كانت تعطى الملك حقا فى أن يعاقب من يفسدون النظام المدنى ، بينهم بتعاليم سيئة تقلق راحة الجمهور » .

هذ ما يقوله الكتاب المدافعون عن الكنيسة ، ومهما يكن قولهم فى براءتها من دم أولئك الذين حاولوا من رجال الدين إصلاحها ، فمما لاشك فيه أنها لم تصغ إلى أقوالهم ، بل عاقبتهم عليها بالحرمان ، فسلبتهم المنصب الدينى ، ثم عاونت بذلك على قتلهم أفظع قتلة ، إن لم تكن هى الفاعلة .

ابتداء الإصلاح من غير رجال الدين

١١٤ — كانت إرهاصات الإصلاح تبدو الوقت بعد الآخر ، ويظهر به رجال استعدوا للفداء زمنا بعد زمن ، وكانت البلاد التى تظهر فيها آراء الإصلاح فى شمال أوروبا وإنجلترا ، وفرنسا ، لأن فرنسا قد ذاق بعض ملوكها أذى الحرمان من الكنيسة ، وأحس الفرنسيون بشدتها ، وإنجلترا رأت من سلطان البابا عليها تدخلا فى شئونها ، ولأن أمم شمال أوروبا قد اقترنت حضارتها بالدين فكانت شديدة الغيرة عليه ، قوية الرغبة فى فهمه على وجهه ، جاعلين قبلتهم الكنيسة ورجالها ، فعثروا بما أوتوا من رغبة دينية وعقل فاحص على عيوبهم ، فأرادوا أن يصلحوها من غير أن يهدموها ، لذلك ظهرت حركات الإصلاح ووجدت آذانا مصغية فى تلك البقاع ، ولم ينبثق فجر القرن السادس عشر حتى انبثقت معه أصوات قوية جريئة تدعو إلى إصلاح الكنيسة ، وتنقد حالها وتندد بأعمالها ، وتنشر عيوب القوامين عليها ، عساهم يصلحون أمرهم . ويعودن إلى آداب الدين وتهذيبه .

الدعوة الهادئة

وقد ظهر فى فجر القرن السادس فى أزمان متقاربة أصوات رجال مصلحين ، ومن أشدها ظهوراً صوت أرزم ، وقد ظهر بالأراضى المنخفضة ، وعاش من ١٤٦٥ إلى ١٥٣٦ . وقد أخذ يدعو الناس إلى قراءة الكتاب المقدس عندهم ، وإلى تهذيب عقولهم ، وتنمية مداركهم ، ليستطيعوا فهمه ، والانتفاع به ، وإدراك مراميه وغاياته ، وأخذ يدعو إلى إصلاح الكنيسة ، ويظهر أنه لم يوجه دعوته إلى الشعب ، بل وجهها إلى الحكام المستنيرين ، وإلى رجال الكنيسة أنفسهم ، فقد كان البابا ليو العاشر صديقه ، وكان ممن يقدرون آراءه ، ويعجبون بتفكيره ويوافقون بالأولى على وجهة نظره ، وقد سار فى طريق ذلك الإصلاح السلمى مجتهداً الاجتهاد كله فى أن يحافظ على مركز البابا وقداسته ، حريصاً على ألا ينال أحداً منهما ، وألا يخلط دعاة الإصلاح بين إصلاح الكنيسة ومراكز رجالها ، وما يستحقون من إجلال وتقديس ، فهو يرى أن الإصلاح واجب ، على أن تقوم به الكنيسة فى داخلها ، أو يعاونها الحكام على إصلاح نفسها ، ولذلك عندما رأى ثورة لوثر العنيفة ، وما أدت إليه من مس سلطان الكنيسة ونقص مالها من قداسة ، نبذ آراءه ، ولم يعاونه .

وظهر كذلك فى هذا الإبان تومس مور من ١٤٧٨ إلى ١٥٣٥ ، وقد ظهر بإنجلترا ، ودعا إلى إصلاح الكنيسة أيضاً بالطريق السلمى ؛ ولذلك دعا بنفسه إلى وجوب احترام سيادة البابا ، وأن يكون له السلطان الدينى على الجميع .

النقد العنيف

١١٥ — ولكن دعوات أولئك السلمية لم تفد فائدتها ، ولم تنتج ثمراتها ، وإن شئت فقل إن تحول الأفكار وانتقال الفكرة إلى الشعوب ، واصطدام الكنيسة بالمفكرين وبعض الأمراء جعل نقد الكنيسة عنيفاً ، وجعل خطوات الدعاة أسرع مما يريد أولئك السلميون .

وأشد من ظهر أولئك تأثيراً . وأقواهم نفوذاً : مارتن لوثر ، وزونجلى ، وكلفن . ولنتكلم عن كل واحد من هؤلاء بكلمة موجزة .

لوثر

أما مارتن لوثر ، فقد ولد سنة ١٤٨٢ من أبوين فقيرين ، ولكن أباه أجهد نفسه ، وأراد أن يصل به إلى أقصى درجات الثقافة ، ومكن له ليكون قانونياً ، فأرسله إلى الجامعة ، ولكنه عدل عن إتمام دراسته القانونية ، وعكف على دراسة اللاهوت ، وانصرف إليها ، لأنه أحس بنزعة دينية قوية تدفعه إلى الانقطاع لذلك ، وقد كان شديد التورع ، مبالغاً فى تقدير سيئاته ، قد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة ، حتى لقد قال بنفسه إنه لن ينجو من عذاب الجحيم إلا برحمة الرب الرحيم ، وكان لهذا الإحساس الدينى الدقيق ، وذلك النزوع اللاهوتى موضع رعاية رجال الكنيسة ، حتى لقد أوصوا به خيراً أولى الأمر من رجال الدنيا ، فعين مدرساً للفلسفة ، وظل عاكفاً على هذه الدراسة التى كان يشك فى صلاحيتها ، إذ كان يدرس فلسفة أرسطو ، وما كان فى نظره إلا من عبدة الأوثان ، ويجب أن يلاحظ أن دراسة الفلسفة فى ذلك العصر كانت تحت ظل الدين ، وفى خدمته ، ويقوم بها رجال الدين أنفسهم ، ولذلك لم تكن دراسته الفلسفية مبعدة له عن دراسته الدينية ، بل كانت تتميما لها .

ولقد دفعته نزعته الدينية الخالصة ، وإجلاله للكنيسة ورجالها إلى أن يحج إلى روما ، ليتيمن بلقاء رجال الدين ، ولكى تحل عليه بركات روما موطن المسيحية ومقر الكنيسة المقدسة ، ولكنه ما إن وطئت قدماه أرض روما حتى رأى ما صدم حسه ، وأزعج نفسه ، لقد توقع أن يرى النسك والعبادة والزهادة ، فوجد مدينة لاهية عابثة ، ووجد رجال الدين قد دنست بعضهم المفاسد ، وأحاطت بهم الريب ، وظنت بهم الظنون ، وجد جرأة على الخطايا ، واستهانة بأحكام الدين . ووجد الذين تخيلهم قديسين صالحين ، وأنهم ملائكة

الله تسير على الأرض ، قد انغمسوا فى الرذيلة ، ورتعوا فى حماها زاعمين أن سحائب الرضوان قد نزلت عليهم ، وغفر لهم سابق ذنوبهم ولاحقها ، وأن بيدهم مفاتيح الملكوت فى السماوات والأرض وسر التوبة ، وأبواب الغفران ، يغفرون لمن شاءوا ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، رأى لوثر كل هذا وهو المرهف الحس الدينى ، ذو النفس اللوامة ، الذى يرى أن خطايا الإنسان أكبر من أن يمحوها هو ، وأنه لا سبيل لغفرانها إلا أن تسعها رحمة الله .

لذلك شده من هول ما رأى ، وتحير بين ماتخيله فى رجال الدين من زهادة ، والواقع المستقر الذى صدمه صدمة عنيفة ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى انتقل من الحيرة إلى الاستنكار ، لذلك عاد إلى ألمانيا حانقا مستنكراً ، بعد أن ذهب راضياً مقدساً .

ولقد أخذ يعلن من ذلك الإبان أن التبرك بالمقدسات ، والحج إليها وتكرار الصلاة لايجدى العاصى ، ولا يغنيه عن توبة نصوح ، وندم مطهر ، ورجاء رحمة الرحيم ، وأن أحدا من الخلق مهما تكن قدسيته لا يملك لأحد غفرانا ، ولا يستطيع أن يستر ذنبا قد ارتكب .

١١٦ — كان لوثر بعد عودته مأخوذا بهذه الأفكار ، قد استولت على نفسه ، وسوغ له كل هذا أنه قد عرا ثقته برجال الدين ضعف ، وإن لم يعتزم الثورة عليهم أو على آرائهم ، ولكن الحوادث كانت تدفعه إلى أن يعلن استنكار آراء رجال الدين ، والجهر بذلك ، وذلك لأن البابا ليو أراد أن يعيد بناء كنيسة بطرس فى روما ، وذلك يحتاج إلى مقدار من المال غير يسير ، فقرر أن يجمعه من صكوك الغفران يبيعها ، فذهب الراهب تنزل إلى ألمانيا ، ومعه تلك الصكوك التى نقلنا لك نموذجا منها فيما أسلفنا من القول ، وأخذ يعلن من أمرها ، ويبالغ فى قدسها وسرها .

عندئذ ثار لوثر الذى لا يعرف أن شيئاً يستر الذنب إلا الندم على ما كان، والإقلاع عنه فيما يكون، ورجاء رحمة الديان، والذى رأى فى رجال الدين ما رأى، ثار لوثر على تلك الصكوك، وكتب فى بطلانها احتجاجا علقه على باب الكنيسة.

ولقد كان لذلك أثره فى العامة والخاصة، ولم يكن من المعقول أن تقابل الكنيسة ذلك بالصمت أو الإغضاء، فقد أرسلت إليه تدعوه إلى الحضور لمحاكمته أمام محكمة التفتيش التى كانت تدبيراً اتخذته المجامع ذريعة للقضاء على مخالفيها.

ثورة لوثر على الكنيسة

وهنا نجد بعض الأمراء يتدخل، فيوصيه بألا يجيب طلبها، فلم ير البابا بداً من أن يصدر قراراً بحرمانه، ويعده زائغاً، وهنا تأخذ الحمية لوثر، ويشتد فى دعوته، ويجاهر بالاستهانة بأمر الحرمان، حتى إنه ليحرق فى وسط وتبرج، والجموع حاشدة، حرمان البابا وقرار زيغه، ولم يبق إلا أن تنفذ السلطة المدنية قرار الحرمان، فتحرمه من الحقوق القانونية والمدنية، أثراً لقرار الحرمان الدينى، فاجتمع مجمع ورمز سنة ١٥٢١ لمحاكمته، ولكنه طالب البابا بأن يقنعه بخطئه فيما ارتأى، فلم يجب إلى ما طالب، فانفض المجمع من غير نتيجة فى هذا ولكن الامبراطور أعلن حرمانه من الحقوق المدنية إلا أن أمير سكسونية حماه.

ومن هذا الوقت أخذت تخضع دعوة لوثر لحكم الأحداث السياسية، فتجد سلما من الدولة، إذا كان الأمبراطور مشغولا بحرب، ولا يريد إثارة فتنة. وتجد حربا إذا خلا الامبراطور لهم، وفى كلتا الحالتين تزداد الدعوة حدة، ويزداد أتباعها عددا، ويشتد ساعدهم بموالاة أمراء أعزاء فى النفرة.

وفى سنة ١٥٢٩ حاول الامبراطور أن ينفذ قرار الحرمان الصادر سنه ١٥٢١

ولكن أنصار لوثر يحتجون على ذلك ، ومن ذلك الحين سموا البروتستنت أى المحتجين ، ثم جرت الأمور سلما فحربا متداولين ، حتى إذامات لوثر ، وكان الامبراطور قد خلص من كل الحروب التى تشغله أنزل بالبروتستنت أقسى العذاب وأشده بلاء ، ثم يعقب ذلك صلح بين الفريقين .

لوثر لم يرد هدم الكنيسة

١١٧ — لم يكن لوثر من الغلاة الذين يرمون إلى هدم الكنيسة ، ولا إلى محاربة سلطانها ، بوصف كونها مرشدة وواعظة ومبينة للناس شئون دينهم ، ولكنه كان يريد إصلاح حال الكنيسة ورجالها ، وحملهم على الجادة ، وإعطاءهم من الحق ما أعطتهم لها الكتب المقدسة ، ووصايا رسلهم ، والمأثور عنهم ، وهو لم ينظر إلى البابا على أنه خليفة المسيح لا يخطىء ، ولا يأتى الباطل إلى قوله ، بل نظر إليه على أنه كبير المرشدين الواعظين .

ولما أراد لهم الصلاح ـ وكان يائساً من أن يقوموا هم بذلك ـ دعا الأمراء إلى أن يتدخلوا ، وقرر أن لهم عليهم سلطانا ، وأن لهم الحق فى عزل رجل الدين إذا لم يقم بما يأمره به الدين ، ووجد أن جزءا من فساد رجال الدين يرجع إلى عدم الزواج :

ورأى أن المنع منه لم يكن فى المسيحية فى عصورها الأولى ، فقرر حقهم فى الزواج ، وتزوج هو فعلا مع أنه من رجال الدين ، وكان زواجه من راهبة .

ووجد أن الكنيسة تحتفظ لنفسها بحق فهم الإنجيل ، وذلك من أسباب غلوها ، وفقدها الرقيب ، فجعل لكل مسيحى مثقف الحق فى فهمه ، واشتغل بترجمته إلى الألمانية ليقرأه كل ألمانى .

وأنكر أن المسيح يحل فى بدن من يأكل العشاء الربانى ، فقد أنكر استحالة الخبز إلى عظام المسيح المكسورة ، وأنكر استحالة الخمر إلى دم المسيح ، وحلولها فى جسم الآكل ، واكتفى بكون العشاء الربانى تذكيرا لما قام به المسيح من فداء للخليقة فى زعمهم وأن يعتقد المسيحى أن المسيح معه بجسده عند تناول هذا العشاء .

هذا كله مع إنكاره حق الكنيسة فى الغفران ، ذلك الحق الذى كان عود الثقاب الذى أشعل ثورة لوثر ، وكانت منها تلك النيران التى لم تستطع الكنيسة لها إطفاء .

١١٨ — وفى الوقت الذى كان يغالب فيه لوثر الكنيسة وأنصارها من ذوى السلطان ، كان فى سويسرة صوت قوى آخر ينادى بما يقارب ما نادى به لوثر ذاك ، ذلك هو زونجلى (١٤٨٤ - ١٥٣١) فقد آلمته حال الكنيسة ودعا إلى مثل ما دعا إليه لوثر فى مسائل الدين ، وقد ابتدأت ثورته بالثورة على صكوك الغفران ، كما ابتدأ لوثر ، وقد مات فى أثناء صراع وقع بين أنصاره ، والمعتنقين لمبادئه . وأنصار الكاثوليك .

وآراؤه فى الجملة تتقارب من آراء لوثر ، ولقد كان يرى أن العشاء الربانى مناولة تذكارية لموت المسيح ، وفدائه لخطيئة الخليقة فى زعمهم ، وأن المسيح يحضر ذلك العشاء بروحه فقط ، ويفسر ما جاء خاصا بالعشاء الربانى فى إنجيل متى بمعناه المجازى ، وهذا نص ما جاء فى ذلك الإنجيل فى إصحاحه السادس والعشرين : « وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز . وبارك ، وكسر ، وأعطى للتلاميذ ، وقال : « خذوا ، كلوا هذا هو جسدى وأخذ الكأس وشكر ، وأعطاهم قائلا : اشربوا منها كلكم ، لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » .

ودعوة زونجلى هذه ، وإن كانت تتلاقى فى مبادئها فى الجملة مع مبادىء لوثر كانت منفصلة عنها ، فلم تتوحد الدعوتان ، بل كانت كلتاهما تعمل فى محيط إقليمها ، بيد أن حركة لوثر كانت أوسع دائرة ، وأسرع انتشاراً ، لسعة الإقليم الذى نشأت فيه . ولرعاية بعض الأمراء لها ، بل لاعتناقهم مبادئها ، ولأن الأحوال السياسية فى ألمانيا كانت تسمح لمثل هذه الدعوة بالذيوع والانتشار .

١١٩ – وفى الوقت الذى كان فيه هذان الرجلان يعملان ، ويجاهدان كل بطريقته ، فلوثر بطريقته السلمية التى خالطها العنف ، وزنجلى بطريقة الصراع والمنازلة ، حتى لقد مات فيه .

كلفن

فى هذا الوقت كان رجل آخر ظهر فى فرنسا وهو كلفن ١٥٠٩ – ١٥٦٤ قد ولد بفرنسا ، ونشأ بها ، وتثقف ثقافة قانونية ، ولكنه مال بعد تخرجه فى القانون إلى الدراسات الدينية ،وقد كانت حركة لوثر قد ذاعت وشاعت فى ربوع أوروبا ، وما إن أعلن كلفن آراءه حتى اضطر إلى الفرار بعقيدته إلى جنيف فى سويسرا ، وهناك ألف وكتب ، وأخذ يعمل على نشر مبادىء المذهب البروتستنتى ، وينظمها بعد موت لوثر ، فتنظيمها على الشكل الأخير يرجع إلى كلفن أكثر مما يرجع إلى أى رجل آخر ، وإن كان باذر البذرة سواه ، بل إن بذور ذلك المذهب قد كانت أقدم تاريخا من لوثر نفسه ، وقد نوهنا إلى بعض هذا فى الكلام فى المجامع .

ويرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها ، وعلى الحاكم المدنى مساعدتها ومعاونتها وحمايتها ، وذلك ليكون السلطان الدينى غير خاضع لحكم الحكام ، وهو يرى أن المسيح لا يحضر لا بشخصه ولا بروحه فى العشاء الربانى ، ويعتبر تناول العناصر المادية رمزا للإيمان . ويقول كما يقرر صاحب كتاب الأصول والفروع فى العشاء الربانى : « يشير العشاء الربانى أيضاً إلى مجىء المسيح ، كما يشير إلى موته ، فيكون تذكاراً الماضى والمستقبل ، فالعبرة فى العشاء الربانى الذكرى ، لا حضور المسيح مادياً أو روحياً » .

إنشاء كنائس المصلحين

١٢٠ – كانت جهود هؤلاء القادة وأتباعهم ، وعيوب الكنيسة ، وسوء حالها وحال القوامين عليها ، وشدة ضغطهم سبباً فى ذيوع الآراء التى تخالف رأى الكنيسة ، وقد ابتدأت الحركة بطلب إصلاح الكنيسة على أن يقوم بالاصلاح

رجال الكنيسة أنفسهم ، ولكنهم أنغضوا رءوسهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، ورفضوا كل دعوة للإصلاح ، وقابلوا أصحابها بقرارات الحرمان أحيانا كثيرة ، والإهمال أحيانا قليلة . فلما استيأس مريدو الإصلاح من أن يقوم الكنسيون بإصلاح حالهم ، وأن يرعوا الديانة حق رعايتها اتجهوا إلى الحكام طالبين أن يتدخلوا لإصلاح الكنيسة ، كما حاول لوثر ، فقد أعطى الحكام حق الهيمنة على الكنيسة ليصلحوها ، ولكن الحكام تقاعسوا ، ومنهم من لم يحاول إصلاح الكنيسة ، بل حاول القضاء على طلاب إصلاحها ، وأنزل بهم اضطهادات وبلايا وشدائد ومذابح ، كما حدث لبروتستنت فرنسا ، وكان ذلك إما تعصبا للكنيسة ، وإما مجاملة ، وإما كراهة للمصلحين ؛ لأن منهم من كانت لهم آراء فى إصلاح نظم الحكم بجوار آرائهم فى إصلاح الكنيسة ، وقد كان الحكم استبداديا مطلقا ، بلا نظام يقيد الحاكم ، ويلزم المحكوم .

فلما يئس طلاب الإصلاح من الحكام ويئسوا من رجال الكنيسة اتجهوا إلى أن يجعلوا لآرائهم جماعة ، ووحدة دينية منفصلة عن الكنيسة وآرائها غير خاضعة للكنيسة ، ورافضة كل ما لها من سلطان ، وأنشئوا لهم كنائس ليست معترفة لكنيسة روما بأى سلطان ، وسلطة رجال الدين فيها محدودة ، ولرجال الدين من الحقوق ما قرروا من مبادىء ، وسميت كنائسهم كنائس إنجلية[1] أى أنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس ويقيد بأحكامه رجل الدين أمام رجل الشعب ، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب ، وليس لرئيس الكنيسة خلافة تجعل كلامه مقدساً ، مساويا لأحكام الكتاب المقدس فى الرتبة والاعتبار .

وقد انتشر المذهب الجديد فى ألمانيا والدانمرك وأسوج والنرويج وهولندا وإنجلترا ، وأمريكا الشمالية وسويسرا ، وإن لم تصر كلها على هذا المذهب .

---

(١) وتسمى الكنائس الأخرى التى تجعل لرئيس الكنيسة سلطانا يعتبر فيه خليفة المسيح الكنائس التقليدية ، وهى كنيسة الكاثوليك ، والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة الأرثوذكسية المرقسية ، وهى كنيسة القبط وغير ذلك .

مبادىء الإصلاح

١٢١ ـ والآن نلخص المبادىء التي أتى بها ذلك المذهب الجديد ، ونكتفي بذكر أصولها التي ترجع إليها غيرها من الفروع ، وأعظم تلك الأصول شأنا :

(أ) جعل الخضوع التام الواجب على المسيحى لنصوص الكتاب المقدس وحدها[1] وجعله الحكم وحده الذى لا ترد حكومته ، ولا ترفض أوامره ، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المجامع على ما نص عليه فى ذلك الكتاب ، فما وافقه قبل على أن الكتاب قد ورد به ، وماخالفه رفض ، ولو كان قد صدر عن أكبر رجال الكنيسة شأنا فى الماضى أو الحاضر .

ولذلك يقول صاحب كتاب سوسنة سليمان فى ذلك « إنهم جميعاً متفقون فى المعتقدات على مجرد مافى الكتاب المقدس فقط ، فلا يخضعون لشىء من التقاليد التى لا يوجد لها فيه رسم أصلا ، ولا إلى أقوال أحد من الآباء أو المجامع إلا إذا كان موافقا لنصوصه لفظاً ومعنى ، أما تفاسير الآيات الغامضة والتى لم يوضحها الوحى الإلهى ، فلا يمارون أحداً فيها إلا إذا كان التفسير ينافى ما كان معناه واضحاً فى غيرها من تعاليم الكتاب » .

فهم لا يعترفون بسلطان لغير الكتاب وقد كان تحكيم الكتاب وحده سببا فى جعل رجل الدين غير مطاوع إلا فيما ورد فى الكتاب .

---

(١) الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة الشرقية وغيرهما من الكنائس التقليدية لا يعتبرون الكتاب المقدس وحده هو المصدر للدين المسيحى ، بل يعتبرون معه الرسائل غير المسطورة فى ذلك الكتاب وتعاليم المسيح التى نقلت إلى البابوات خلفا عن سلف مصدراً أيضاً ، ويسمون ذلك المصادر التقليدية . ويقول فى ذلك صاحب كتاب تاريخ الكنيسة الذى ترجمه يوسف البستانى فى ذكر قرارات المجمع الترندينى : « ان المجمع الترنديتى المقدس الملتئم بتدبير الروح القدس والمصدر فيه صفات الكرسى الرسولى لاعتباره أن حقائق الإيمان ورسوم الآداب متضمنة فى الصحف المكتوبة وفى التقليدات المكتوبة ، وهى المنقولة عن فم يسوع بواسطة الرسل ، أو المنزلة على الرسل أنفسهم بالروح القدس . وقد اتصلت الينا تسليما اقتفاء بأثر الآباء الأرثوذكسيين قد قبل جميع أسفار العهدين القديم والجديد ، ثم التقليدات أيضاً المتعلقة بالإيمان والآداب بما أنها بارزة من فم يسوع المسيح ، أو ملقنة من الروح القدس ، ومحفوظة فى الكنيسة بالخلافة المتواصلة ويعتنقها بنفس الاكرام والاحترام الذى تعتنق به الكتب المقدسة » .

وقد كان جعل سلطان الكتاب شاملا لرجل الدين ، ولرجل الشعب سبباً فى أن حق التفسير والفهم لم يعد مقصوراً على رجال الدين ، فأزيل ذلك الحجاب الذى أقيم بين المسيحى وبين كتابه . إذ أقامة رجال الدين ليحتجزوا حق تفسير الكتاب لأنفسهم ، وبذلك يكون الدين ماتنطق به أفواههم وليس لأحد أن يعقب على قولهم ، لأن باب التفسير قد أقفل دون غيرهم فلا يستطيعون إزالة رتاجه ، ولافتح أغلاقه ، فألغى المذهب الجديد ذلك الحجاب وفتح باب التفسير لكل مثقف ذى فهم وإذا كان ثمة نص لم يفهم توقفوا عن فهمه ، فإن أبدى رجل الدين رأياً فى فهمه قبلوه إلا إذا خالف نصاً ظاهراً لا مجال للتأويل فيه .

عدم الرياسة فى الدين.

(ب) ليس لكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة . بل لكل كنيسة رياسة خاصة بها ، والرياسة الكنسية التى تستمد الخلافة من أحد الحواريين أو من المسيح نفسه لاوجود لها عندهم ، بل إن الكنيسة فى كل مكان ليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد ؛ والقيام على تأدية الفروض والتكاليف الدينية، وبيان الدين لمن لايستطيع معرفته من تلقاء نفسه ، ولم يكن عنده من الثقافة مايمكنه من ذلك .

ليس لرجل الدين الغفران

(ج) وإذا كانت الكنيسة ليس لها سلطان إلا البيان لمن لايستطيع بيانا والإرشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه ، فليس لها سلطان فى محو الذنب ، أو ستره أو تلقى الاعتراف بالذنوب ومسحها سواء أكانت تلك هى المسحة الأخيرة عند الاحتضار، أم كانت قبل ذلك ، فكل ذلك ليس لها فيه سلطان ، لأنه من عمل الديان . وقد علمت أن صكوك الغفران وحق الكنيسة فيه كانت الثقاب الذى اندلعت منه الثورة على الكنيسة، وتبعها تقصى عيوبها، وتتبع نقائصها . وقد ذكرنا ببعض التفصيل ما كانت تفعله الكنيسة، وبينا أنها غالت فيما زعمته لنفسها فى ذلك من حق ، والأساس فى رفض حق

الـكنيسة فى هذا أن كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وكما أن ذلك الأساس أدى إلى سلب الـكنيسة مازعمته لنفسها من حق الغفران أدى إلى أمر آخر ، وهو منع الصلاة لأجل الموتى ، واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سيحاسب عليه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأدى أيضاً إلى أن طلب شفاعة القديسين لاقيمة له ، لأنه لا يغير عمل الشخص من طالح إلى صالح .

وفى الجملة إنهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع إلى عمل الشخص وعفو الإله ، وتوبة العاصى وندمه على مافات ولومه نفسه على ما كان ، وكل قول يجعل غفران الذنب أساسه غير ذلك رفضوه ، ولم يلتفتوا إليه .

عدم الصلاة بلغة غير مفهومة

(د) ولقد كان ذلك المبدأ الذى يجعل الإنسان يدين بعمله وحده ، ومبدأ أن لا سلطان للـكنيسة على القلب والعادة كان هذان المبدآن سبباً فى أن رفض أولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد ، لأن الصلاة دعاء من العابد للمعبود وانصراف القلب إليه ، والقيام بالخضوع الـكامل له ، والنطق بما يدل على الخضوع والالتجاء إلى المعبود ، فوجب أن تـكون بألفاظ يفهمها العابد ليريد معانيها ويقصد مراميها ، وقد كانت صلاة القسيس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الـكاثوليك ، لأن أساس ذلك أن عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطانه .

رأيهم فى العشاء الربانى

(هـ) انتهى البروتستنت بالنسبة للعشاء الربانى إلى أنه تذكار بفداء المسيح للخطيئة التى ارتـكبها آدم ، وتحملت الخليقة من بعد وزرها ، وتذكار لمجيئه ليدين الناس ، فهو تذكار للماضى والمستقبل كما جاء فى بعض الرسائل ، وهم ينـكرون أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح ، والخمر إلى دمه .

والـكنيسة قد أصرت على ذلك إصراراً ، وهذا قرارها فى المجمع الترندينى فى ذلك الشأن ، فهى تقول بلسان أعضائه : « قد اعتقدت كنيسة الله دائماً

بأنه بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقى ودمه الحقيقى مع نفسه ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر ، وإن كلا من الشكلين يحتوى مايحتويه كلاهما، لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت شكل الخبز، وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل، كما أنه هو كله أيضاً تحت شكل الخمر وجميع أجزائه، وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً ثابتاً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز إلى جوهر جسد ربنا ، وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه تعالى ، وهذا التغيير قد دعى بكل صواب ، فيلتزم إذاً جميع المؤمنين بأن يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للإله الحقيقى ، لأننا نعتقد بأنه يوجد فيه الله نفسه الذى عبدته الملائكة عن أمره تعالى ، حينما أتى على العالم ، وهو نفسه الذى سجدت له المجوس خارين على أقدامه ، وله نفسه سجدت الرسل فى الجليل » .

هذه عقيدة الكنيسة فى العشاء الربانى، لم يستسغها لوثر وأشياعه، وخلفاؤه من بعده ، وانتهى أمرهم إلى أن رفضوا ذلك التحول الذى تفرضه الكنيسة ، وتلزم به ، وإن كان بعيداً عن المعروف المألوف ، وبعد أن رفضوا ذلك قر قرارهم الأخير على اعتبار العشاء الربانى تذكاراً بالفداء وتذكاراً للمجىء وفى ذلك عظة واستبصار .

إنكار الرهبنة

(و) أنكر أولئك المصلحون لزوم الرهبنة التى يأخذ رجال الدين أنفسهم بها ويعتبرونها شريعة لازمة ، يفقد رجل الدين صفته الكهنوتية إن تخلى عنها ولقد رأوا ما أدى إليه ذلك الخطر من كبت للجسد الإنسانى ، وتعذيب له من غير ضرورة ، ولا نص من الكتب قديمها وجديدها يفيد ذلك ، بل لقد رأوا ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريزة الإنسان فى رجل الدين فانطلق يكرع اللذة من شقتها الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال ، وطفق يغترف من ورد معتكر بالآثام ، مرنق بالمفاسد ، وترك المنهل العذب الذى

حللته الشرائع ، ويتفق مع ناموس الاجتماع الإنسانى .

(ز) منع البروتستنت اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها ، معتقدين أن ذلك قد نهى عنه فى التوراة، فقد جاء فى سفر التثنية: لاتصنع لك تمثالا منحوتاً ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل، وما فى الماء من تحت الأرض ، لاتسجد لهن ولا تعبدهن، لأنى أنا الرب إلهك غيور افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى، واصنع إحساناً إلى ألوف من محبى ، وحافظى وصاياى » .

ولا شك أن مانهت عنه التوراة يجب الأخذ به مادام الجميع يؤمنون بالتوراة ، وكتب العهد الجديد ، وما دام لم يرد عن المسيح أو عن الرسل ما يبطل ماجاء فى التوراة .

ولقد أثبت الأستاذ أمين الخولى بالسند التاريخى أن ذلك التحريم قد قبسه النصارى المصلحون من نور الإسلام .

المسيحيون لم يسيروا فى منطقهم إلى أقصى مداه

١٢٢ — هذه أعظم المسائل التى خالف بها المصلحون فى المسيحية ماعليه الكنيسة ، وهى لاشك خلع لسلطان الكنيسة على النفوس ، وقضاء على سلطان المجامع ، وإذا كان للحوادث منطق تسير عليه ، فهل لنا أن نستنبط منطق تلك الحوادث ، وما كان عساه يكشف عنه لو سار فى طريقه إلى أقصى مداه ؟ لقد علمت فى سياقنا التاريخى الذى بيناه عن أدوار المسيحية أن ذلك السياق يعلن فى عبارته وفى فحواها أن تلك الديانة كانت ديانة توحيد ، حتى جاءت المجامع ، فقررت ألوهية غير الله ، وطردت من حظيرة المسيحية المستمسكين بعروة التوحيد الذين رفضوا دعوى ألوهية المسيح ، وناصرتهم الشعوب المسيحية فى ذلك الإبان .

فإذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الدينى من الكتب الصحيحة

وقرروا أن يرفضوا سلطان المجامع والكنيسة معاً ، فإن المنطق الذى يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا أقوال المجامع القديمة، ومنها ألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس .

فلقد قرر المجمع النيقى ألوهية المسيح . وقرر المجمع القسطنطينى ألوهية الروح القدس .

وقد كنا نود أن يدرسوا قرارات هذه المجامع ، وينظروا إلى سندها وقوته فإن لم يروا السند قوياً رفضوا ذلك القرار ، ولكنهم لم يسيروا فى منطقهم إلى أقصى مداه ، فرفضوا آراء الكنيسة فى أمور ، أعظمها شأناً ما بيناه ، ولم يتجهوا إلى لب العقيدة ، وهو لم يتجاوز أنه قرار مجمع ، فيدرسوه من جديد على ضوء ما فتحوه لأنفسهم من نور مبصر ، وهو أن يكون لكل شخص له قدرة على فهم الكتاب حق فى تفسيره ، واستخراج الأوامر والنواهى منه من غير أن يتخذوا الأحبار والقسيسين وسائط فى فهمه ، ويحكموا بذلك فى ضمائرهم واعتقاداتهم .

عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح

١٢٣ — ولكنا وقد يئسنا من أن يسير البروتستنت فى طريقهم إلى أقصى مداه وجدنا العقول المسيحية قد تنبهت ، والدراسة العلمية والفلسفية قد سارت ونور الإسلام قد انبلج ، فوجدنا علماء كثيرين قد صرحوا فى قوة بأن المسيح لم يكن إلا رسولا، وأنه لم يكن أكثر من بشر، وقد قبسوا ذلك من الأناجيل نفسها ، فهذا رينان قد جهر بذلك فى قوة وجرأة ، ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الإصرار على رأيه والذود عنه ، وهذا تولستوى ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح ، وتنتهى نتائج بحثه إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح ، بل طمسها ، والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضاً وإخفاء .

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف ، فهو يقول : « إنه ينبغى لفهم تعليم

يسوع المسيح الحقيقى ، كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الطويلة الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى ، حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعاليم المسيح ، بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم ، و بولس كما لايخفى كان رسولاً للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية ، كالختان وغيره ، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده ، ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى ، فخسر صفته الإلهية الكمالية ، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم ، وآخرها فى عصرنا الحالى ، والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وأن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلهاً ، دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار : موسى ، والزبور ، وأعمال الرسل ، ورسائلهم ، وتآليف آباء الكنيسة ، مع أن تلك الأقوال لاتدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله » .

هو إذن ينكر ألوهية المسيح ، وينكر ألوهية روح القدس ، ويعتقد بأن الله واحد أحد فرد صمد . وينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بإلهام ، ويعلن فى جرأة أنها حرفت وعراها التغيير والتبديل ، فيقول فى صراحة المستمسك بالعروة الوثقى : « إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحى الإلهى ، فالمسلمون يعتقدون بنبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية ، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء ، وأنه قد أوضح فى قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية ، كما قالاها دون زيادة ولا نقص ، وأن كل مسلم أمامه القرآن يقرؤه ، ويتمسك به ويسير

بموجب أحكامه ، ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصلاح ، ويسمى المسلمون ديانتهم بالمحمدية ، لأن محمداً وضعها ، بخلاف الكنيسة المسيحية التي تسير الآن بموجب تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من الروح القدس، فكان الأحرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية » .



خاتمة

١٢٤ — قد ظهر إذن مسيحيون يدعون إلى التوحيد ، وإنك لترى بريق الإسلام يلمع بين السطور التى دونوها ، والأقوال التى نشروها ، ولكن قد طردتهم المسيحية الحاضرة من حظيرتها كما فعلت المجامع من قبل ، ولقد كان الأمر لا يسترعى النظر لو كان مقصوراً على العلماء . بل إنك لترى المسيحيين الذين تجادلهم أو تخالطهم بالمودة ـ إن استثنيت رجال الدين منهم ـ يصرحون فى بهرة المجالس . وفى جهر من غير إسرار بأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا المسيح إلا رجلا عظيما رسولا من عندالله ، وليس هو الله ، ولا ابن الله وليس ذا صلة بالألوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله .

فهل لنا أن نعتقد أن شيوع هذا على ألسنة أولئك المثقفين يؤدى إلى إصلاح كامل للعقيدة ، يكون شاملا للأصل ، ولا يكون مقتصرا على الفرع كما فعل الإصلاح السابق واقتصر عليه ؟

إن الطريق لهذا أن يتجه أولئك المثقفون إلى دراسة دينهم ، وأن يتجه الذين يحاولون إرشادهم ـ إلى بيان الأدوار التاريخية التى مرت بدينهم ، وإلى ما أحدثته المجامع من أحداث ، وكل حدث فى الدين هو بدعة فيه ، فإن دراسة تلك الأدوار تريهم الحقائق عارية ، وتكشفها لهم غير مستورة برسوم وطقوس كنسية أو غير كنسية ، وقد حاولنا فى أثناء بحثنا أن نبين أن ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس فكرتان عرضتان على العقل المسيحى ، ولم تكونا فى المسيحية الأولى ، وذكرنا السند التاريخى فى ذلك ، وإنه لمسيحى خالص ،

وإنه بهذه المحاولة نريد أن ندعو الذين يهمهم رد العالم المسيحى إلى التوحيد — إلى العناية بدراسة تاريخ المسيحية وإعلانه لأهلها ، ونريد أن ندعو الذين يريدون نشر الإسلام بين ربوع المسيحيين إلى إعلان ذلك التاريخ ، فإنهم إن دخلوا فى التوحيد ، دخلوا فى الإسلام بأيسر مجهود ، لأن الخطوة التالية لا تحتاج إلى أكثر من الإعلام والحمد لله رب العالمين .

مايشتمل عليه الكتاب


١٥٧ ـ المجامع الباقية

١٦٤ ـ الفرق المسيحية

١٧٠ ـ الفرق القديمة فى عهد التثليث

١٧٨ ـ الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

١٨٤ - الفرق الحديثة « البروتستانت »


الثمن ٣٠ ص